جواسيس الأدب

جواسيس السينما

محمود قاسم

الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع
المكتب الرئيسي : الخبر ٣١٩٥٢ ص.ب ٣٣٥٤ المملكة العربية السعودية
تلفون . ٨٦٤٤٤٨٥ / ٨٦٤٠٠٤٠ (٣ خطوط)
تلكس : ٨٧١٤٣٩ عربية - فاكس : ٨٩٨١٣٠٤

التوزيع فى
السعودية والخليج العربى

المركز الفضى للمعلومات
Silver Information Center
١٠ ش يوسف عباس - مساكن التوفيق - مدينة نصر - القاهرة - مصر
ت/ فاكس : ٢٦٢٦٠٢٣ - ٢٠٢

التوزيع فى
مصر - ليبيـا
ودول المغرب العـربى

☆قبل أن تقرأ ☆

يتوق الناس دوما الى معرفة الكثير عن كل ما هو غامض ، ومثير . وهل هناك شيء أكثر غموضا من حياة الجواسيس ؟ وهؤلاء الذين تبرز أنشطتهم ابان الحروب ، الساخنة منها والباردة . فيندسون وسط المجتمعات الراقية التى يذهب اليها القادة العسكريون والسياسيون من أجل تلمس معلومة صغيرة يمكنها أن تحسم حربا ضروس ، استمرت سنوات طويلة وأفرزت ملايين القتلى والضحايا .

وهل هناك أكثر غموضا من حيوات هؤلاء الاشخاص الكامنين فى الظل ، الذين عليهم العمل بمنطق ميكافيلى ؟ فيجعلون الآخرين يأمنون جانبهم ، ويعطونهم أشد الاسرار خطورة ، لذا فكم من قصص حب جذابة تكمن وراء الحصول على مجرد معلومة واحدة ، وكم من محاولات مضنية لاختراق خطوط العدو ؟

هذا الجاسوس لابد أن يكون محط أنظار الحسان ، ورجال السياسة ، والعسكر ، وهو يعرف أن أقل خطأ يمكن أن يجعله يدفع رأسه ثمنا لخطأه باعتباره خائنا فى منظور الذين يقبضون عليه ، فى نفس الوقت فانه يمكن أن يكون بطلا فى منظور آخرين يقوم بخدمتهم ، قد لا يعرفهم ، ولا يعلمون عنه شيئا .

هل هناك شخصية أكثر اثارة لأى كاتب فى العالم من الجاسوس ؟ وهل هناك روايات تم تأليفها مليئة بالقصص الغامضة بنفس القدر الذى نراه فى حيوات الجواسيس ؟ سواء كانوا شخصيات حقيقية عرفتها البشرية ، مثل ماتاهارى ، أم من وحى الخيال ، مهما فعلت فى خيال الكاتب فلابد أن أسرارها أشد غموضا ، وعلى سبيل المثال ، فان الكتب التى تكشف ملفات جديدة من حياة ماتاهارى لا تزال تصدر تباعا ، وفى كل منها الجديد ، والحقيقى عن تلك الجاسوسة الغامضة التى تم إعدامها ١٩١٧ .

كم هى كثيرة قصص الجواسيس . وكم هم منتشرون فى أنحاء العصور ، والأماكن ، يزدهرون فى أروقة الزمان ، وتبرز أدوراهم الأساسية . ولولا الكاتب والفنان بشكل عام . ما عرف الناس كل هذه التفصيلات فى حياة الجواسيس . هذه الشخصيات التى تحمل فى داخلها

بذور عشرات من أروع الحواديت التى يحب الناس قراءتها

فى البداية ، قد ينُشر خبر بسيط فى احدى الصحف حول القبض على جاسوس ، وتبعا لدواعى الأمن ، فقد تنشر الصحف حكاية الجاسوس مليئة بالمبالغات ، أو مختص أجل عدم كشف اسلوب وكالة الاستخبارات التى قامت بالقبض عليه أو قد لا يتم النشر تبعا أيضا لدواعى الأمن .

ولكن ، بعد فترة ، يطلع على الناس كتاب فى صورة رواية ، يتناول حيـ الجاسوس ، ويصف كل دقائقه ، وسلوكه وتصرفه منذ تجنيده وحتى القبض عليه ، ومـ الروايات تضيف البعد الانسانى على حياة الجاسوس . باعتباره بشر ، وهكذا فان ينجح فى أن يخرج قصة من ظلامها الى النور ، كى يقرأ الناس كافة تفاصيلها .

وما حدث فى عالمنا العربى فى السنوات الاخيرة على المستوى الوطنى ، كان للانتباه فبعد أن انتهت الحروب العسكرية فى الشرق الأوسط من هزائم وانتصارات لل المتحاربة ، بدأت حروب جديدة ، ذات شكل مختلف ، حيث طلعت وكالات الاستخبارات الناس بقصص بعض أبطالها الذين عملوا فى الخفاء عدة سنوات ، وما كان لهم الظهور وأيضا بقصص بعض الخونة الذين كانوا سببا فى بعض الهزائم ، خاصة فى سنوات الاستنزاف .

ووجد الناس أنفسهم يقرأون الحكايات الغامضة من تواريخهم الحديثة ، عن شخص عاشت فى الظل تصنع النصر أو تشارك فى زيادة حجم الهزيمة . وتحولت هذه القصص روايات يقرأها الناس فى الصحف ، ثم فى الكتب ، وما لبثت أن تحولت الى أفلام سينما ومسلسلات اذاعية وتليفزيونية يتتبع الناس حلقاتها بشغف شديد ، ويتعاطفون مع الاشخاص الذين عاشوا فى الظل ، محاطين بالمخاطر الحقيقية من أجل أمن الوطن .

واكتشف الناس أن في حياتهم أبطالا ، لم يكونوا ليعرفونهم أبدا لولا هذه الروا وأدرك الناس أهمية تلك القصص ، فى سنوات امتلأت مشاعر الكثيرين بالاحـ بالاحباط ، ووسط هذه المشاعر العامة ، أو الخاصة ، اكتشفوا رجالهم ، أبطال غامضين مـ خاص ، كان لابد أن تنزل عليهم أستار الغموض لسنوات طويلة ، بل أن هناك فى ا حكايات أخرى سوف يحين الوقت للتعرف عليها .

ومن هنا جاءت أهمية الفنون والآداب فى تجسيد حياة هذه الشخصيات ، فى أن تتدفق فيها الدماء ، فتولد فيها الحياة ، خاصة أن طبيعة عملها هو الظل ، ولكن الأهم أنها شخصيات حقيقية ، عاشت بين الناس ، والبعض منها لا يزال بيننا ، قد تلقاه فى الشارع ذات يوم فلاتعرفه ، رغم أنك تحبه كثيرا . وهل يعرف الناس الوجه الحقيقى لجمعة الشوان بطل رواية " الدموع فى عيون وقحة " رغم أن صورته الحقيقية قد نُشرت فى الصحف ، بل أن الناس يعرفون صورة النجم عادل إمام التى طلعت عليهم فى حلقات مثيرة تجسد حياة هذا البطل ، الذى لابد أن يكون موجودا فى حياة الشعوب بأى ثمن .

وإيمانا بهذا الدور ، دور كتاب الرواية والسينمائيين ، فى إعادة تجسيد حياة هذه الشخصيات فى أعمال أدبية مثيرة ، جاءت فكرة تأليف هذا الكتاب ، الذى هو الأول من نوعه فى المكتبة العربية ، كتاب عن روايات التجسس ، أى الروايات الأدبية التى تناولت قصص التجسس بكافة أشكالها ، وفى كل أنحاء العالم الذى اهتم مبدعوه بتأليف مثل هذا الطراز من القصص ، وتحويل هذه القصص الى أفلام سينمائية .

ولقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى عام ١٩٩٠ تحت عنوان " رواية التجسس والصراع العربى الاسرائيلى " والتقاه الناس بما يليق بانتشار هذا النوع من الكتابات ، ولكن بعد صدور الكتاب بأشهر قليلة ، انتهت أكبر حرب باردة استمرت منذ عام ١٩٤٥ بين القوتين العظميين ، الاتحاد السوفيتى سابقا بكل حلفائه بما كان يعرف بالمعسكر الشيوعى، والولايات المتحدة بكل حلفائها فى أوروبا الغربية .

وكان ذلك اشارة بأن تتقلص هذه الحروب ، وأن تقوم وكالات الاستخبارات بتغيير استراتيجيتها . وعلى سبيل المثال ، فان وكالات الاستخبارات الغربية لم تنس أبدا خصومها القدامى فى المعكسر الشرقى ، فراحت تقدم الاغراءات لبعض قيادات خصومهم من أجل نشر مذكراتهم .

وعقب نشر الطبعة الأولى من الكتاب ، كانت صورة العالم قد تغيرت تماما وبدا أنه لابد من الانتظار عدة سنوات لمعرفة ماذا حدث فى العالم ، وماذا سيكتب الأدباء فى ظل النظام الجديد ؟

وهنا تكمن الأسئلة التى تبدو اجاباتها مثيرة للدهشة ، هل تغير شكل الجواسيس ؟ وبالتالى هل تغير ما يكتبه الناس ، وما يقرأونه فى هذه الآونه . خاصة أن اكتشاف جاسوس

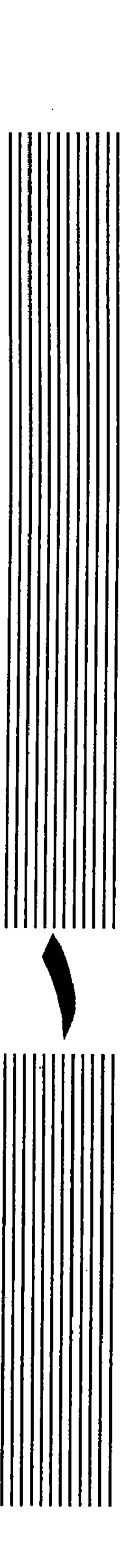
فى ظل الوفاق الدولى لدى دولة ضد حليفتها يمكن أن يمثل متاعب شتى .

والكتاب الذى نقدمه بين يديك لا يزال هو الوحيد من نوعه فى المكتبة العربية ، وقد حاولنا فيه أن نتحدث عن ظاهرة كتابة قصص الجاسوسية فى أوطان عديدة ، والتركيز على روايات بعينها كتبها أدباء بلغات مختلفة عن ما شهدته منطقتنا الساخنة دوما من أحداث سياسية وعسكرية ، لعبت فيها الجاسوسية أدواراً هامة . ولذا بقيت هذه الروايات المأخوذة عن هذه الأحداث ساخنة سخونة المواقف نفسها ، وتثير رغبة القراء فى معرفة كوامن غموضه.

القسم الأول

رواية التجسس العالمية





☆الفصل الأول☆

١

جذور رواية التجسس

الفصل الأول

جذور رواية التجسس

لاشك أن أقدم مهنتين فى التاريخ هما : الهوى . والتجسس . واذا كان الهوى هو المهنة الأقدم التى عرفتها كافة المجتمعات القديمة ، فان التجسس على الآخرين ، ومراقبتهم قد تولدت مع ميلاد الهوى . باعتبار أن هناك خطوطا مشتركة جمعت بين الأمرين .

وتجىء غرابة هاتين المهنتين فى أن كلا منهما تُمارس فى سرية ، ولكل منهما طقوسها الخاصة التى قد تبدو علنية ومعروفة ، الا أن النواميس ، والغموض ، والأسرار ، يحكمون قواعد هذه المهنة : الجاسوسية ، منذ أراد الأخوان هابيل وقابيل أن يعرف كل منهما أسرار الآخر . بل ربما بدأت قبل ذلك . حين تجسس أبليس على آدم ، قبل أن يدفع به الى أول ذنب يقترفه بشر .

وفى كتابه عن « رواية التجسس » أكد الباحث والناقد جابرييل فيرالدى أن هاتين المهنتين القديمتين قد أصبحتا الآن تتحركان فى العالم من خلال مؤسسات قوية ، تعمل فى الخفاء. ،بنفس الطقوس التى بدأت بها قبل الاف السنوات ، مع بعض التطوير بما يلائم العصور التى اجتازتها .

أما الباحث ديزموند موريس ، فقد ذهب الى أبعد من ذلك فى كتابه الذى نشره عام ١٩٦٢ ، حين أكد أن الأنسان قد تعلم من الحيوان فنون البص ، والترقب ، والترصد ، وأيضا التجسس وذلك بدافع الاحتفاظ بمكاسبه التى حققها ، وأرضه التى يسكن فوقها ، ومن أجل حماية نفسه من مجهول ينتظره . قد يأتى بخطر يتمثل فى أعدائه المحيطين به ، سواء من الحيوانات أو البشر ، والطبيعة نفسها . ويرى موريس أن هذا السلوك قد ساعد الانسان على التقدم فى كافة شئون الحياة .

ورغم كل هذه السنين ، فان فنون الترقب والترصد ، والتجسس لم تتغير كثيرا ، وان

كانت الحضارة قد ساعدت الانسان على حصد الكثير من الأخبار والمعلومات فى وقت أقصر ، أو أسرع ، من خلال أجهزة ابتدعتها على مدى سنوات طويلة . ولذا فقد صنعت الدول التى عرفت الحضارات المبكرة ، خاصة فى الشرق الأوسط ، ما يسمى بأساليب التجسس ، حسبما كتب جابرييل فيرالدى ، وفى اليونان القديمة عُرف ما يسمى بـ « الطابور الخامس » ، وقد سار هذا الطابور من قبل السلطات الحاكمة اليونانية على قواعد ظلت تتبع فى عالم الجاسوسية حتى القرن التاسع عشر ، ومنها أن قيادات هذا الطابور الخامس لا يعرفون بعضهم البعض . ولا يمكنهم السؤال عن هدف الخطط الموكلة اليهم . بل عليه فقط التنفيذ .

وفى كتابه عن « وكالات الاستخبارات » أكد الباحث الامريكى « آلن دولز » أن الفراعنة قد عرفوا أشد النظم صرامة فى التجسس من أجل الحفاظ على أسرار الكهنوت ، والعلوم المتقدمة فى تلك الآونة ، ويقول ممدوح عيسى فى مجلة « المهندسون العسكريون » (يناير ١٩٥٦) أن النقوش دلت على أن الفراعنة كانوا يبثون العيون فى داخل البلاد وخارجها ، فكان حاجب الفرعون المقرب اليه يلقب « عينا ملك الوجه القبلى » ، و « أذنا ملك الوجه البحرى » . مما يعنى أن هذا الحاجب كانت وظيفته أن يتفقد للفرعون كل شيء بنفسه ، كما كان له مستمعون يأتون اليه بالأخبار عما يدور فى المدن من أشياء خفية .

وقد دلت ألواح تل العمارنة على أن فرعون كان يستخدم الجواسيس فى كل بقاع المستعمرات المصرية ، وفلسطين وسوريا ، وكذلك فى الممالك المتحالفة معه ، كما كان يستخدم أمراء المستعمرات أنفسهم جواسيس على بعضهم البعض .

وقد قامت عملية التجسس فى المجتمعات القديمة على أسس اجتهادية ، لكن يرجع الفضل الى الصينى « صون تسو » أنه قد قام بالتنظير ، ووضع أسس وقواعد وأساليب التجسس ، وانشاء مؤسسة لجمع المعلومات فى مملكته ، وذلك قبل أربعمائة عام من الميلاد ، وأكد آلن دولز أن الزعيم الصينى الراحل ماوتسى تونج كان من أشد المعجبين بما كتبه تسو ، وأنه أوصى بأن يدرس فصلان من كتابه « فن الحرب » فى المدارس العسكرية الصينية .

وفى هذا الكتاب ، قام تسو بتصنيف العملاء السريين وأظهر كيفية التقاطهم ، وتدريبهم والتعامل معهم ، واختيارهم فى الظروف الحربية الصعبة . وكيفية غش العدو عن طريق ارسال «المخبر المدسوس » ، وكيفية التأثير سلبيا على معنويات العدو ، وذلك باشاعة الأخبار الكاذبة، أي الحرب النفسية كما تسمى فى القرن العشرين .

وفى الهند ، عرف أيضا كتاب شفاهى توارثته الأجيال منذ أمد بعيد يتضمن العديد من التقاليد المتبعة فى إحضار المعلومات ، ورصد حركات الخصوم والأعداء ، وكما جاء فى كتب التراث الهندية ، فان الابراهما قد أوصى أحد الحكام بهذه المقولات :

« أرسل جواسيسك بأسرع مما تتحرك قدماك . ولاتدع نفسك تهلك ، لا من المقربين لك، أو من الاجانب ، تجسس عليهم واعرفهم »

وقد اهتمت الكتب السماوية أيضا بموضوع التجسس ، مما يعكس صورة العصور المتتابعة ، وفى مقال كتبه الدكتور الطاهر مكى (مجلة الهلال - اغسطس ١٩٨٧) يقول عن هذا النوع من الروايات : « ثم كلم الرب موسى قائلا : أرسل رجالا ليتجسسوا فى أرض كنعان التى إنى معطيها لبنى اسرائيل وابعث من كل قبيلة رجلا يكون حاكما فى موقعه فبعث موسى باثنى عشر رجلا يتجسسون فى أرض كنعان . ورسم لهم الخطة وقال لهم : اصعدوا من هنا الى الجنوب واطلعوا الى الجبل وانظروا الأرض ما هى . والشعب الساكن فيها أقوى أم ضعيف ؟ قليل أم كثير ؟ كيف هى الأرض التى هو ساكن فيها . أجيدة أم رديئة . وما هى المدن التى هو ساكن فيها ، أمخيمات أم حصون ؟ وكيف هى الأرض أسمينة أم هزيلة . أفيها شجر أم لا ؟. فصعدوا وتجسسوا ، وقد قضت طليعة الجواسيس هذه أربعين يوما ، ثم أتوا موسى ، وقالوا : لقد ذهبنا الى الأرض التى أرسلتنا اليها ، وحقا أنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها . غير أن الشعب الساكن فى الارض معتز ، والمدن حصينة عظيمة جدا »

وفى الحديث الذى أجرته مجلة « لير » الفرنسية مع الكاتب البريطانى جون لوكاريه (مايو ١٩٨٦) أشار أن الجاسوسية تقليد أزلى منذ قيام دولة اسبرطة ، حيث كون العملاء السريون ما يسمى بـ « القوة السرية » أو «كريتيا» وهانحن بعد قرابة عشرين قرنا من انشاء أول قوة سرية ، فان هذه الكريتيا لاتزال قوية وتتمتع بنفس درجة السرية ، وتمارس نفس الشعائر .

وباعتبار أن « الياذة » هوميروس عمل أدبى لم يندثر مع التاريخ ، فهى بذلك أقدم ما وصلنا من الأعمال التى اهتمت بأعمال الجواسيس . ففى اثناء حرب طروادة ، كان لابد أن يلعب الجواسيس دوراً هاماً فى توصيل المعلومات ، وفى الكتاب العاشر من الياذة هوميروس، هناك وصف للمهمة التى قام بها كل من أوليس ، وديوميدس ، حين اكتشف المحاربان اليونانيان لدى الطروادين أسيرا، فراحوا يستقون منه المعلومات ثم قتلوه . وكانوا بذلك

يسعون لمعرفة كل ما لدى العدو . ويقول جابرييل فيرالدى فى كتابه عن « رواية التجسس » أن هذا السلوك قد أصبح ظاهرة صحية فى رواية النوع فى القرن العشرين . فأبطال روايات التجسس يختارون السلاح الانسب فى استعماله . وهم يهتمون بسرقة أى معلومات عن العدو، ففى « الياذة » هوميروس كانت سرقة جياد روسوس عملا مشروعا فى الحرب من أجل المعرفة . ثم سؤال الاسرى واجبارهم على الاعتراف بما يعلمونه ، ومعرفة نوعية العلاقات التى تربط ما بين الملك أجا ممنون ، والحكيم نستور ومحاربيه .

وفى الكتاب التاسع من « انيادة » فرجليوس ، نرى بعض الجنود الذين توكل لهم مهمة التسلل الى مواقع العدو ، ويتم ارسال اثنين من المحاربين فى مهمة انتحارية ، هما نيسون واوريال اللذان يقبلان القيام بهذه المهمة مهما كانت المخاطر التى يتعرضون لها . وذلك بدافع الواجب والاخلاص ، وينجحان فى الدخول الى اليونانيين . ولكن يتم اكتشاف أمرهما ، فيهربان عبر الغابة ، وأخيرا يتم الايقاع بهما ، وقتلهما .

وهؤلاء الجواسيس عليهم أن يتمتعوا بحيطة ، وذكاء خاص . وفى ملحمة فرجليوس يبدو الجاسوس بمثابة شخصية مثالية . فهو يتمتع بأريحية وجاذبية ، كما أنه يتقبل مصيره المحتوم . مهما كانت بشاعته ، وذلك بصدر رحب .

وفى نفس الحقبة الزمنية ، قدمت الحكايات الصينية اسطورة عرفت تحت اسم « الممالك الثلاثة » ، والتى دونت فيما بعد فى القرن الرابع عشر الميلادى ، حول حرب المائة عام فى الصين وكيف أن استراتيجية هذه الحرب كانت تقوم على العملاء السريين ، وعلى مهارتهم فى توصيل المعلومات من الطرف المحارب الى الطرف الآخر ، واستطاع المنتصرون أن يحصلوا على أكبر قدر من المعلومات العسكرية كى يتمكنوا من هزيمة خصومهم .

ويرى الدكتور الطاهر مكى فى حديثه عن رواية التجسس أن فى سنوات الاسلام الأولى أمثلة كثيرة . وربما كانت غزوة الخندق أوضحها – مجلة الهلال ، اغسطس ١٩٨٧ – فقد كان المسلمون يعرفون كل شيء عن أعدائهم فى مكة . على حين لم يحاول هؤلاء أن يعرفوا شيئا . ولذلك عندما جاءوا المدينه يهاجمون المسلمين ووجدوا خندقا يحيط بها دهشوا ورأوه عجيبا . ووقع الرعب فى قلوبهم ، وعادوا من حيث جاءوا دون أن يقاتلوا »

وقد كشف جمال الغيطانى فى روايته « الزينى بركات » عن دور البصاصين فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ابان الحرب بين العثمانيين والمماليك والتى انتهت لصالح

الطرف الذى لديه بصاصين أكثر مهارة .

ولأن الحروب لازمت البشرية طوال تاريخها العريض ، وفى كل أنحاء العالم ، فان الجواسيس لعبوا دورا كبيرا فى ترجيح كفة الحروب . وهو نفس الدور الذى لعبه المحارب . وليس مجالنا هنا الحديث عن التجسس كنشاط إنسانى ، ولكن ما يهمنا تبعا لموضوع الكتاب، الحديث عن كتابة قصص الجواسيس ، وعمليات التجسس فى روايات أدبية . حيث يعتبر الروائى الامريكى جيمس فنيمور كوبر (١٧٨٩ - ١٨٥١) هو أول من استخدمها بمعناها الأدبى المعروف حاليا فى روايته « الجاسوس » المنشورة فى عام ١٨٢١ .

وتجىء أهمية هذه الرواية فى أن النقاد يعتبرون روايات كوبر بمثابة تسجيل لخبراته الشخصية ، حيث عُرف عنه حبه للمغامرات والقنص . ويقول د. نبيل راغب فى « موسوعة أدباء امريكا » (من منشورات دار المعارف) أن كوبر « اهتم بنقد مظاهر المجتمع المعاصر من خلال الشخصيات التى قدمها ، ولم يعبأ باثارة غضب القراء عليه ، من جراء هجومه عليهم . وقد كانت رواياته نقدا متصلا للحياة الأمريكية المعاصرة ، وظلت مكانته فى تراث الفكر الأمريكى منحصرة فى الرواية الاجتماعية الواقعية . وقد كانت روايته « الجاسوس » سببا فى اثارة انتباه جمهور عريض من القراء الذين أعجبوا بأحداثها وشخصياتها . مما جعل كوبر يكرس حياته كلها لحرفة الادب » (ص . ٧)

والجاسوس فى رواية كوبر ليس عميلا محترفا .. ولا ينتمى الى مؤسسة استخبارية تسعى الى استحضار معلومات سرية من جهة معادية . ولكنه شخص مختلف ، انه هارفى بيرتش ، ضابط انجليزى شاب يضطر الى السفر لزيارة أسرته أثناء حرب الاستقلال الأمريكية على الجانب الآخر من القتال ، ويدفعه الأمر الى القيام بمجموعة من المغامرات تجعله يتعرف على الكثير من المعلومات السرية والخفية المتعلقة بالحرب ، وفى النهاية يتم القبض عليه ويحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص بتهمة التجسس ، ورغم أنه لم يقم قط بأى من هذه الاعمال . ورغم أن الشاب ينجح فى الهرب من الاعدام فى اللحظة الأخيرة ، فانه فى رأى قادته مجرد جاسوس .

ويرى جابرييل فيرالدى أن بيرتش يمثل نموذج الشخص الذى يجابه مشاكل اللاوعى . فقد استطاع كوبر بهذه الرواية أن يؤثر فى أدباء امريكا الذين جاءوا بعده طوال نصف قرن على الأقل .وفى فرنسا ، ظهرت روايتان من أدب النوع فى عام واحد هو عام ١٨٤٦ . الأولى

للكاتب جوزيف بالاسامو ، والثانية للروائي المعروف الكسندر دماس الاب (١٨٠٢ - ١٨٧٠) وبالنسبة للرواية التى كتبها بالاسامو فانها تدور فى اثناء الثورة الفرنسية ، ولم تكن تعبيرات مثل « جاسوس » و « جاسوسية » قد إستخدمتا بنفس المفهوم المعاصر ، فهناك عميل للملك يبحث عن مصير سوار الملكة . فيتخفى فى العديد من الشخصيات ، ويتابع السوار من مكان لآخر اثناء غليان الثورة ، أما الحكايات التى ألفها الكسندر دماس وجمعها فى كتابه «مذكرات طبية » فهى أقرب فى شكلها العام الى رواية الجاسوسية ، فهناك أجواء الحرب الخفية ، والشعائر السرية التى تحكم مجموعة من الناس عليهم حماية نائب الرئيس الأمريكى. ومن المعروف أن رواية « الفرسان الثلاثة » قد امتلأت بشخصيات قامت بأعمال التجسس لصالح الوزير ريشيليو الذى راح يوقع بين الملكة وزوجها من أجل مآربه الشخصية ، لكن ظهور مثل هذه الشخصيات الهامشية فى هذه الرواية لم تجعل منها أبدا عملا أقرب الى رواية التجسس ، فالمهم فى هذه الأعمال هو وجود للأشخاص الذين يمارسون أعمال التجسس . وأن تدور الرواية من خلال أجواء بوليسية مليئة بالغموض . وهو ما سوف نؤكد عليه فى مكان آخر من خلال علاقة الرواية البوليسية برواية التجسس ، وعلى سبيل المثال فان الروائى أونوريه دى بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) قد أكد أن رواية « ديربارم » لستندال (١٧٨٣ - ١٨٤٢) هى عمل مكيافيلى مكتوب فى القرن التاسع عشر ، لكن هذه الرواية لم تنتم أبدا وهى المكتوبة عام ١٨٤٠، الى أدب النوع فيجب أن يكون هناك مزيج بين الأجواء السياسية الممزوجة بالاغتيالات ، والهروب ، والمغامرات الى آخر مثل هذه الظواهر الموجودة فى عالم الجواسيس والتجسس .

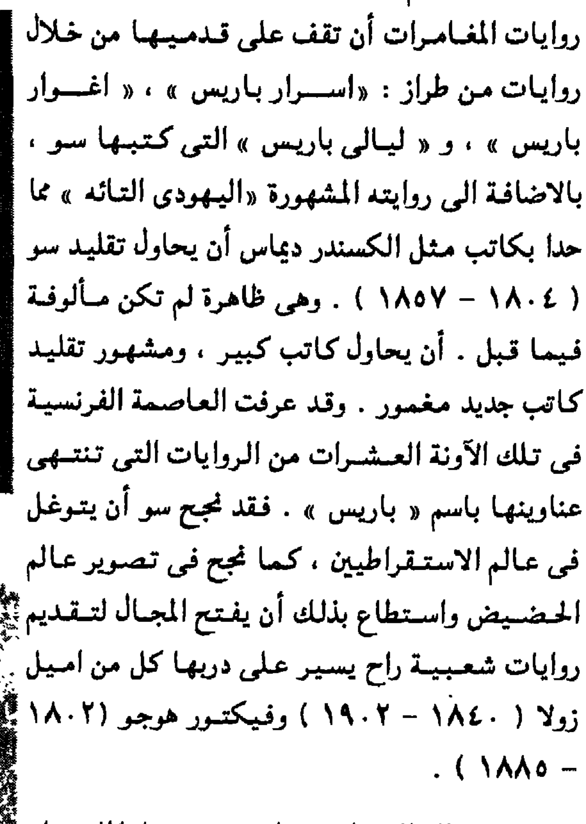
ولعل بلزاك نفسه كان معجبا بهذا الجو الغامض الذى ملأ رواية « ستندال » ، فراح يصوره بأسلوبه الخاص فى رواياته التى كتبها فى أربعينات القرن التاسع عشر . ومن بين هذه الروايات : « مهمة مظلمة » و « الرائعون » و « مآسى المحظيات » وغيرها ، وكما يؤكد النقاد ، فان هناك عالما سريا خاصا له شعائره المميزة موجود فى هذه الروايات .

فى تلك السنوات ، كانت الروايات البوليسية ، والروايات الشعبية قد بدأت فى الازدهار ووجدت فرسانها من الكتاب ، وحققت هذه الابداعات نجاحات كبيرة ، واتسع انتشارها وسط قراء الصحف الذين يتابعون حوادث هذه الروايات المثيرة فى حلقات ، يجب معرفة تكملتها فى الأعداد القادمة ، واستطاع كاتب مثل « يوجين سو » أن يبيع من رواياته

أعدادا كبيرة لم يحققها كبار الأدباء المرموقين فى أوروبا ابان تلك السنوات . واستطاعت روايات المغامرات أن تقف على قدميها من خلال روايات من طراز : «اسرار باريس » ، « اغوار باريس » ، و « ليالى باريس » التى كتبها سو ، بالاضافة الى روايته المشهورة «اليهودى التائه » مما حدا بكاتب مثل الكسندر ديماس أن يحاول تقليد سو (١٨٠٤ - ١٨٥٧) . وهى ظاهرة لم تكن مألوفة فيما قبل . أن يحاول كاتب كبير ، ومشهور تقليد كاتب جديد مغمور . وقد عرفت العاصمة الفرنسية فى تلك الآونة العشرات من الروايات التى تنتهى عناوينها باسم « باريس » . فقد نجح سو أن يتوغل فى عالم الاستقراطيين ، كما نجح فى تصوير عالم الحضيض واستطاع بذلك أن يفتح المجال لتقديم روايات شعبية راح يسير على دربها كل من اميل زولا (١٨٤٠ - ١٩٠٢) وفيكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) .



الكسندر ديماس



فى تلك السنوات ، ذاع صيت رجل المانى راح يناصر الفقراء ، اسمه كارل ماركس . وقد شكل وجوده مع صديقه البريطانى انجلز ظاهرة أصبحت من اهتمامات عامة الناس ، باعتبارهم الفقراء .

وقد كان نجاح هذه الروايات سببا فى أن يتجه الكثيرون من الكتاب الجدد الى تأليف روايات على نفس النمط . وكان بوانسون دى ترايل صاحب روايات « روكامبول » أبرز المجيدين فى هذا المجال بعد «سو » ، كما برع فى كتابه الرواية البوليسية بول فافل ، واميل جابوريو . وسنرى أن الفرنسى



أونوريه دى بلزاك

موريس لبلان (١٨٦٤ - ١٩٤١) ، والبريطانى
ارثركونون دويل (١٨٥٩ - ١٩٣٠) بمثابة تلميذين نابغين فى هذه المدرسة الجديدة التى أوجدت نوعا جديدا من الرواية ازدهر فى العالم منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وسوف يستمر ازدهاره الى قرون عديدة قادمة . حيث حاول كل كاتب دخل هذا العالم المثير أن يصنع لنفسه اسلوبا مميزا فى الكتابة .

وتدور أحداث هذا النوع من الروايات فى أجواء قاتمة ، شديدة التعقيد ، والسرية ، تحدث فيها جرائم قتل أو سرقة أو ما شابه ذلك ... وأغلب هذه الجرائم غير كاملة ، حيث هناك شخص يسعى الى كشفها وحل ألغازها المعقدة .. فقد تتوالى الجرائم دون أن يتوصل أحد الى هوية المجرم ، مما يشد الانتباه أكثر الى كشف الفاعل .. ويسعى الكاتب فى أغلب الأحيان الى وضع العديد من الشبهات حول أشخاص قريبين من الجريمة ، لدرجة تدفع القارىء أن يؤكد أن كل واحد من بينهم هو الجانى الحقيقى ، ولكن شيئا فشيئا يتكشف أن الفاعل شخص بعيد تماما عن كل دوائر الشبهات ، وأنه لم يكن سوى إحدى الشخصيات الثانوية . ولم يكن لأحد أن يتصور أن الجريمة تصل اليه . أو أنه حتى يمكن أن يدبرها . وذلك زيادة فى احداث الاثارة .

وفى هذه الروايات ، نرى أن المؤلف يسعى الى مداعبة غرائز الانسان المرتبطة بحبه لمعرفة كل مجهول ، ولذا فان معظم قراء هذه الروايات لا يفرغون من قراءتها الا بعد أن ينتهوا من مطالعتها فى جلسة واحدة . أو جلسات متقاربة . ورغم اللهاث الذى يعانيه القارىء كى يعرف السر الذى يكمن وراء الاحداث ، فان الرغبة فى معاودة قراءة نفس الرواية مرة أخرى لا تبدو متوفرة ، لأن القارىء حين يكشف السر يفقد حاجز الاثارة ، فيصبح الايقاع لديه أكثر بطئا .

وفى هذه الروايات البوليسية ، نرى أن أغلب شخصياتها إما ضحايا ، أو مشبوهين ، أما القتلة والمقتولين فهم شخصيات ثانوية ، يختفى القتيل فى الفصول الأولى ، ويبقى القاتل كامنا وراء الستار لا ينكشف أمره الا فى الصفحة الأخيرة . ولذا فان هذه الروايات مليئة بالقتامة ، ولا يوجد منفذ منها الى موقف انسانى فكه ، لذا فالعواطف دائما مشبوهة وموضع ريبة ، وتعيش الشخصيات متوترة الاعصاب تنتظر الموت فى أية لحظة ، لها أو للقريبين منها .


اجاثا كريستى

ومنذ ظهور روايات يوجين سو ، وحتى آخر رواية ظهرت هذا الاسبوع من الروايات البوليسية ، فان معظم الكتاب الذين تخصصوا فى تأليفها ، يهتمون بابتداع شخصية محورية يتجدد وجودها مع كل رواية جديدة ، حيث تعيش مغامرة تختلف ملابساتها وظروفها ، فبعد «روكامبول » لبوانسون دى تيرايل (١٨٢٩ - ١٨٨٢) ، وهناك «أرسين لوبين » للمؤلف الفرنسى موريس لبلان ، وشرلوك هولمز للكاتب البريطانى أرثر كونان دويل (١٨٥٠ - ١٩٣٠) ، ثم هناك المفتش ميجريه البلجيكى عند جورج سيمنون (١٩٠٣ - ١٩٨٩) ، والمفتش هرقل بوارو ، ومس ماربل عند الكاتبة البريطانية آجاثا كريستى (١٨٩١ - ١٩٧٦) ، والمفتش مارلو عند الكاتب الأمريكى رايموند شاندلر (١٨٨٨ - ١٩٥٩) ، والسيد ريبللى عند الكاتبة الأمريكية باترشيا هايسميث (١٩١٧ - ١٩٩٥) . وقد انتقلت هذه الخاصية كما سنرى ، عند كتاب رواية التجسس ، فهناك جيمس بوند لدى البريطانى ايان فلمنج (١٩٠٨ - ١٩٦٥) ، وسمايلى عند البريطانى جون لوكاريه ، ومالكو عند الفرنسى جيرارد دوفيليه ، وشخصيات أخري جاءت من الأدب الى السينما مثل مات هيلم وكرياكو وآخرين .

وقد اهتم أغلب كتاب هذه الرواية بالمعاصرة على حساب التاريخ ، وكانت الجريمةهى نتاج العصر بايقاعها المجنون المليء بالغموض والدم ، وعلى سبيل المثال ، فان الروايات التاريخية التى كتبتها آجاثا كريستى عن مصر الفراعنة ، كانت الحبكة البوليسية فيها أضعف من رواياتها المعاصرة ، نتيجة لاهتمام المؤلفة بابراز النواحى التاريخية لهذا العصر ، على الحس البوليسى .

وقد ساعدت الصحافة اليومية والاسبوعية التى انتشرت فى القرن التاسع عشر بشكل ملحوظ على ازدهار هذا النوع من الروايات ، حيث اهتم رؤساء التحرير بوجود مادة أدبية تجذب انتباه القاريء وتجعله يشترى العدد القادم الذى به تكملة الحكاية المثيرة

واذا كان « يوجين سو » لم يبتدع شخصية تكرر ظهورها فى رواياته ، فان باريس كانت بمثابة الشخصية الاعتبارية التى برزت فى هذه الروايات . وبدت باريس دوما بمثابة

مدينة فقيرة فى حواريها ودوريها وسكانها ، ولذا استطاع سو أن يصنع أدبا مميزا من هذا النوع الذى تحول فيما بعد الى ما يسمى بالأدب الهامشى .

والطريف أن الرواية البوليسية بحبكتها ، ونواميسها ، قد أصبحت نوعا أدبيا أمًا ، من الأمومة ، للعديد من الأنواع الأدبية التى إزدهرت فى القرن العشرين ، وانبثقت منها رواية التجسس ، ثم رواية « الخيال العلمى » ، « ورواية الخيال السياسى» وأيضا «رواية الفنتازيا » وروايات التخويف ، وما الى ذلك من الاسماء أو تحت الاقسام التى تفرعت من النوع الاساسى . بمعنى أن هذه جميعها ليست مذاهب ادبية ،ولكنها طرز من الروايات المكتوبة يكتبها المؤلف بهدف التسلية .

وقد ارتبط ظهور الرواية البوليسية بوجود ادباء شغفوا بنوع جديد من الكتابة ، أما رواية التجسس ، فكان ميلادها ووجودها مرهونين بازدهار الحروب التى شهدها النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثم الحروب العديدة العالمية والمحلية التى شهدها القرن العشرون . وظهور الأمية ، وازدهار الصناعة وتطور الابتكارات العلمية ، وايضا ظهور التكتلات السياسية والحروب الباردة ، وتعاظم الايدولوجيات . ثم اختفائها . وما الى ذلك من الانشطة والظواهر الانسانية التى برزت فى القرن العشرين .فقد كانت كل هذه الامور بمثابة الأرض الخصبة التى يمكن فيها زراعة الجواسيس ، أو تأليف الروايات عن جواسيس ، سواء كانوا معروفين لدى الناس ، أو مصنوعين من قريحة الكاتب .

ولم تكن هناك علاقة بين أن يكون كاتب الرواية البوليسية من ضمن الرجال الذين يعملون ، أو عملوا يوما فى الشرطة ، لكن رواية التجسس شهدت الكثير من الكتاب الذين عملوا فى سلك العسكرية، وخاصة فى الاستخبارات العسكرية ، أو الذين عملوا فى وكالات الاستخبارات ، وهى مؤسسات منفصلة فى بلاد عديدة عن المؤسسات العسكرية ، وسوف نرى أن هذه الظاهرة موجودة بشكل مكثف لدى الروائيين الذين عملوا بالتجسس ، وكتبوا روايات النوع .

لكن هذا الامر كان قيدا على رجال الاستخبارات ، باعتبار أن ما يكتبونه يكشف أساليب الجهاز الذى يعملون فيه ، حتى ولو أدعى أن هذه الكتابات من محض الخيال ، لذا ، ففى بداية ظهور رواية التجسس لم تكن المحاذير واضحة ، راح الكثير من العسكريين يكتبون روايات عما عايشوه ، وكانت جميعها أقرب فى شكلها العام الى روايات التجسس ، مثلما

فعل السير جورج تومكين شيسفى الذى كان ضابطا مهندسا فى الجيش البريطانى بالهند فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكى يهرب من أي متاعب مع مؤسسته ، اختار لنفسه اسما مستعارا وهو يقدم روايته « معركة دونة » ، أما الكاتب الفرنسى دربان ، الذى قتل أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد الف روايات عن التجسس فى الحرب حملت الاسماء التالية : « الحرب فى الغابات » ، « الحرب فى الريف » و « الحرب فى باللون »

ولأن الحروب تدور دائما بين طرفين ، أو أطراف متصارعة ، لذا فان رواية التجسس بدأت تشهد كتابها فى أنحاء متفرقة من العالم ، فعلى الجانب الآخر من المحيط ، راح الأمريكيون ، رغم أنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد الصراعات الدولية ، يجربون حظهم فى تأليف هذا النوع من الروايات .

*****

يعتبر الكاتب البريطانى ويليام لوكو هو الأب الروحى لرواية التجسس البوليسية المعاصرة ، وهو ابن لكاتب بريطانى معروف ، ولد لوكو فى لندن عام ١٨٦٤ . وقد جمع بين ثقافات عديدة، فهو من أصل فرنسى ، وتربى فى المانيا وايطاليا وفرنسا . ثم فى بلاده بريطانيا . وأتقن العديد من اللغات ، واختار مهنة الصحافة وراح يكتب فى جريدة التايمز مقالات حول الحركات الثورية فى أوروبا ، ثم أصبح رئيسا لوكالة الاستخبارات البريطانية السرية ولكنه استقال منها كي يتفرغ لكتابة الرواية ، وراح يكتب الروايات المسلسلة فى بعض الصحف ، وفى عام ١٨٩٧ نشر رواية « الحرب العظمى فى إنجلترا » حول غزو فرنسى روسى لبلاده . وبعد نجاح الرواية ، عكف على كتابة عديد من روايات التجسس حول ما يمكن أن يدور فى أروقة وكالات الاستخبارات وعالم التجسس .

ولاقت هذه الاعمال شعبية كبيرة . مما دفع بالملكة الكسندرا والعديد من الوزراء البريطانيين الى التصريح أن لوكو هو الكاتب المفضل لديهم . وترجمت أعماله الى العديد من اللغات منها العربية واليابانية ، والصينية ، وقد انحصرت اعماله فى ثلاثة أنواع أدبية هى: «التخيل العسكرى » ، و « رواية التجسس » و « الرواية الوثائقية » ، وكان مشغوفا بالعالم السرى لرجال الجيش والسياسة ومن هذا العالم استمد رواياته المثيرة .

ولم يكن لوكو ، وهى كلمة فرنسية تعنى الذيل - أبدا - عميلا للاستخبارات البريطانية أو يعمل لصالحها . وقد بدت أعماله كأنها تحدث بالفعل فى الواقع .

وعلى الجانب الآخر ، ظهر فى المانيا كاتب آخر تخصص فى هذا النوع من الكتابة ، هو فيلهام شتاينر ، والذى عمل فعلا فى مجال التجسس ، حيث عمل جاسوسا لحساب بلاده فى فرنسا فيما سمى بـ « الطابور الخامس الالمانى » فصادق قيادات فرنسا السياسية والعسكرية، والغريب أنه بعد أن تم القبض عليه راح زميله البريطانى لوكو يقتبس حكايته فى رواية حققت نجاحا كبيرا .

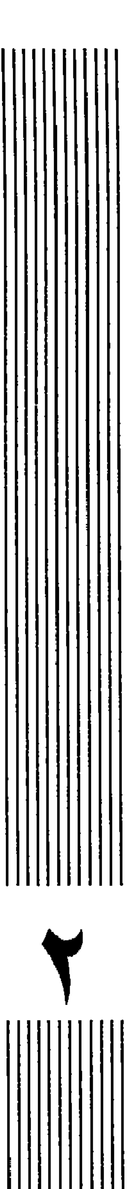
أما رواية « انجلترا فى خطر » التى نشرها لوكو عام ١٨٩٩فتدور حول جاسوس بريطانى يعمل لصالح فرنسا ، يموت عندما ينفجر السيجار الذى أهدته له زوجته. وهذه الزوجة - كما جاء في الرواية - هى عشيقة لرئيس وكالة الاستخبارات الفرنسية وفى نفس الوقت فان السفير الفرنسى فى بريطانيا واسمه لاتوش ، يحول السفارة الى مكتب للتجسس لصالح بلاده.

وقد عُرف لوكو بغزارة انتاجه، وكان يستقى وقائع رواياته من ملفات وكالة الاستخبارات البريطانية ، أو المعروفة تحت اسم « استخبارات صاحبة الجلالة » . وحول اللورد روبوتس أشهر جاسوس بريطانى فى تلك الآونة ، قدم روايته « الهروب » عام ١٩٠١ أما رواية « محرك السيارة » فتدور حول تورط طبيب بريطانى فى العمل مع الاستخبارات الالمانية ، وهذا الطبيب كان يعالج ذات يوم مريضا أصيب فى حادث سيارة ، الا أن رجال الاستخبارات الالمان راحوا يتهمونه أنه هو الذى صدم الضحية ، واستطاعوا آن يوقعونه فى حبائلهم حتى يعمل لخدمتهم .

وحول نفس الموضوع ، قدم لوكو روايته « جواسيس قيصر » ، وفيها يرى أن بريطانيا وقعت تحت سطوة الجواسيس الالمان ، وأنه فى كل انحاء لندن ، يمكن للمرء أن يتوقع أن الناس الذين حوله ، ليسوا سوى جواسيس يعملون لخدمة الاستخبارات الالمانية ، « أغلب هؤلاء الرجال من المانيا ، وقد جاءوا الى هنا بعد أن تم تجنيدهم ، وقد وجدوا مكانا فى مقهى فاستطاعوا أن يجندوا الخباز ، والحلاق ، والخادم ، وجعلوهم ينتمون الى الحزب ويمارسون أعمال الجواسيس » .

وبهذه الروايات وغيرها ، استطاع لوكو أن يفتح ، لمن سيأتون بعده ، الآفاق الرحيبة لهذا النوع من الروايات التى سوف يزدهر بشكل ملحوظ فى النصف الثانى من القرن العشرين وربما فى النصف الأول من القرن الجديد .

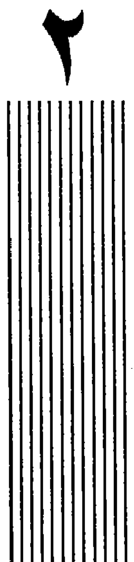




☆الفصل الثانى☆

٢

روايات الجواسيس ..
سمات عامة



الفصل الثانى

روايات الجواسيس .. سمات عامة

من الصعب التعرف على كل روايات التجسس الصادرة فى أنحاء العالم ، وذلك لكثرة الروايات المكتوبة ، والتى تنتمى الى هذا النوع ، لأن رواية التجسس مكتوبة فى لغات متعددة . ومن المهم أن نرصد أهم السمات العامة التى تجمع بين روايات التجسس . من خلال ما أمكننا التوصل اليه من روايات مكتوبة بلغات عديدة . ويمكن ايجاز أهم هذه السمات فى مجموعة من النقاط منها :

- تدور روايات التجسس فى عوالم مليئة بالغموض والاثارة ، فهى مكتوبه عن عمليات تجسس من الصعب ، عند معرفتها لأول مرة التكهن بما سيحدث فى السطور التالية ، وهذه العمليات تدور فى أجواء سرية تحوطها نواميس الكريتيا القديمة . وأغلب هذه العمليات حول ملفات مكتوب عليها « سرى للغاية » ، وذلك لما لها من أهمية باعتبار أن تسرب المعلومات يضر بالأمن العسكرى ، وأيضا بأمن وطن بأكمله خاصة إبان الحروب .

ولذا ، فان الجواسيس الذين يقومون بهذه العمليات هم بشر تحفهم المخاطر ، وهم معرضون لاكتشاف أمرهم فى أى لحظة ، وفى بعض الروايات يتم تصوير الجاسوس كشخص بغيض ، وتكون نهايته المأساوية أمرا مقبولا . وفى روايات أخرى يصبح الجاسوس بمثابة بطل قومى . وعلى القارىء أن يلهث وراء الصفحات لمعرفة مصيره ، متمنيا له النجاح والتوفيق ، والوصول الى بر الأمان ، لذا فالقارىء يجد نفسه فى لهاث وراء أحداث الرواية وكلما طوى القارىء صفحات ، كلما تكشف سر أحد الالغاز وظهرت ألغاز جديدة . وعلى هذا القارىء أن يكشف كيف تم حلها . كما أن عليه أن يتساءل دوما عن مصير الجاسوس ، وكيفية تصرفه أمام المخاطر . التى يتعرض لها ، وهل ، مثلا ، سيتم اكتشافه أم أنه سينجو بذكائه الخارق المفترض توفره فى هذا النوع من البشر ؟. وهذه هى احدى السمات التى اكتسبتها رواية

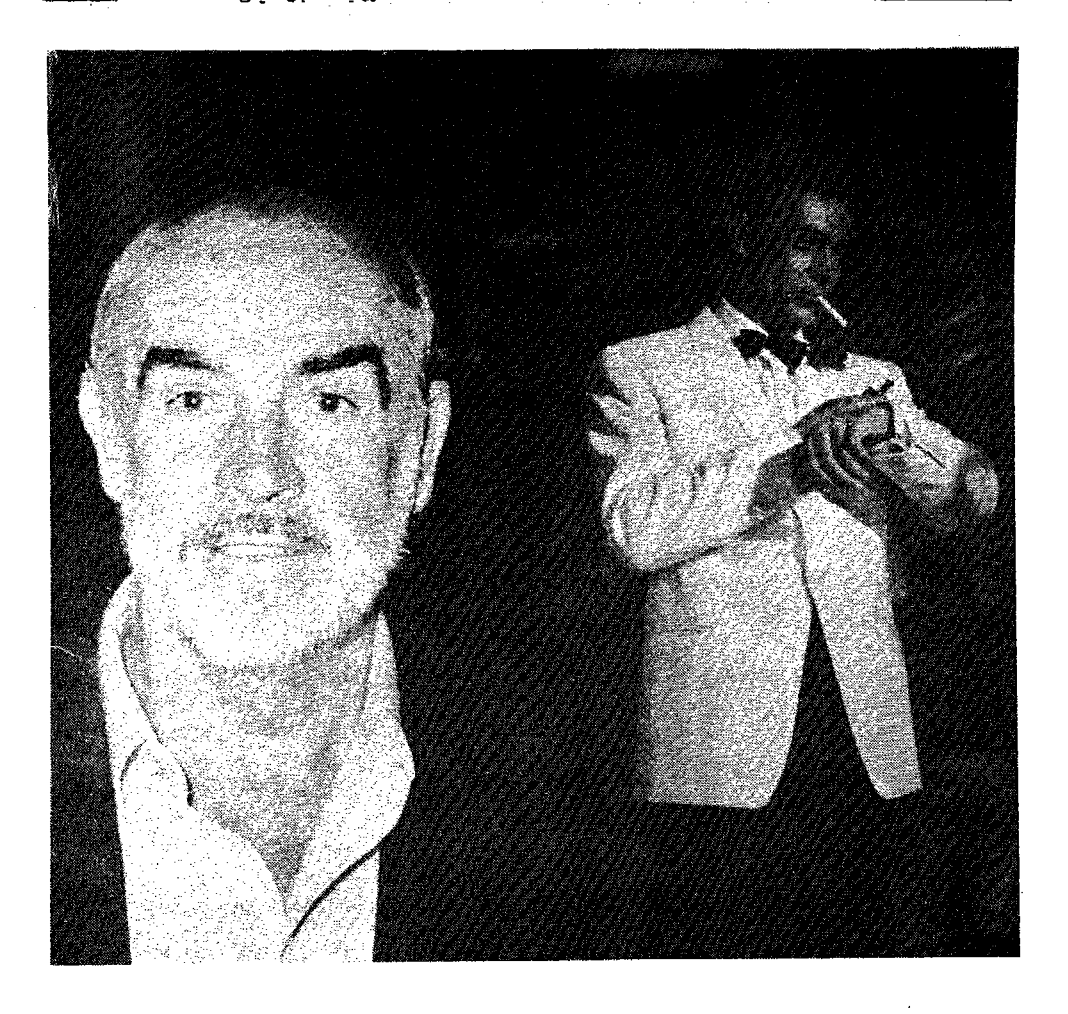
التجسس عن الرواية البوليسية ، حتى اذا وصل القارىء الى الصفحة الأخيرة كان عليه أن يطوى الرواية ، ويكف عن اللهاث ، وفى الغالب تنقطع العلاقة بين الطرفين ، القارىء والرواية ، بعد ذلك الى الابد ،

أى أن رواية التجسس تقوم فى المقام الأول على أحداث الاثارة ، ومن الصعب أن تنفصل أى من هذه الروايات عن هذه السمة فى هذا النوع الأدبى .

وتبدو الاثارة فى الروايات ، من خلال خطورة العملية المزمع القيام بها ، ثم من السمات التى يمكن للجاسوس أن يتسم بها ، فالجاسوس يجب أن يكون شخصا خارقا فى ذكائه ، ورجولته وبرودة أعصابه، وسرعة البديهة . وهو فى الروايات غالبا ما يكون وسيما ، لماحا يجيد التصرف عند اللزوم ، وقادرا على التخفى فى الوقت المناسب ، ويعرف كيف يخلب قلوب النساء دون أن تهتز مشاعره نحو المرأة ، وهو انسان مراوغ ، كما أنه بطل فردى فى أغلب الاحيان ، رغم انتمائه الى جهاز استخبارات قوى يعمل على تدريبه ، وحمايته فانه يواجه مصيره وحده ، أثناء العملية التى يقوم بها . لذا فان نجاحه يعود الى مدى قدرته على استيعاب التدريبات التى يتلقاها .ثم كيفية التصرف عند العملية .

وأغلب روايات التجسس تدور حول شخص الجاسوس أكثر منها حول عملية تجسس ، لأن العملية مرهونة بشخص ، ولاتنجح العملية الا بمدى قدرة الشخص علي التصرف ، ولذا فقد سعى بعض كتاب روايات التجسس الى ابتداع شخصية جاسوس تتكرر مغامراته ، وعملياته من رواية لأخري ، مثلما فعل ايان فملنج مع جيمس بوند ، وأيضا جون لوكاريه مع جورج سمايلى ، ويتسلح هؤلاء الجواسيس بأسلحة فتاكة ، هي دائما نتاج أحدث ماوصل اليه العلم من التكنولوجيا . وهو لايستخدم هذه الأسلحة سوى عند اللزوم ، وبحذر شديد .

وعادة ، مايعمل الجاسوس فى أرض العدو ، أى منطقة نفوذ تبعد كثيرا عن سيطرة وكالته التي يعمل لحسابها . ولايمكن لهذه الوكالة ، وهي بالطبع وكالة استخبارات . أن ترد عنه الخطر حين سقوطه ، وعندما يهوى فان السقطة تكون مميتة . ومن هنا جاءت أهميته الدراميه ، فهو في بعض الروايات يعيش محاطا بأجواء اسطورية تقارب مايحدث في الميثولوجيا القديمة .



وتدور رواية التجسس حول مغامرة ، أو عملية ، محاطة بأجواء من الابهار ، فاذا كانت وكالات الاستخبارات تعني باللغات الاجنبية الانجليزية والفرنسية والايطالية " الذكاء" INTELEGENCE ، فإن العمليات التي يقوم بها الجاسوس هى في المقام الأول حرب ذكاء بين طرفين ، والمنتصر دوماً هو الأكثر ذكاء .

وروايات التجسس تعزف على هذا الوتر ، وهناك دائما تساؤلات مطروحة ، وعلي الجاسوس والمؤلف الاجابة عليها ، ولأن للتساؤل اجابته ، فعلي القارئ أن يبحث عن اجابة إن لم تكن هناك مجموعة اجابات متشابكة ، ولذا فان العديد من روايات الجاسوسية ضخمة الحجم، لانها تضم حكايات كثيرة وتفاصيل عديدة . واشخاص من الصعب حصرهم . وعلى

سبيل المثال فان صالح مرسى في روايته عن رأفت الهجان ، كان يطرح العديد من الأسئلة حول ماحدث ، قبل أن يعطى القارئ إجابة واحدة ، وغالبا ماتكون الاجابة واحدة فقط لاأكثر . وقد بدت هذه الظاهرة في بقية روايات الكاتب عن الجاسوسية .

رغم أن رواية التجسس قد انبثقت عن الرواية البوليسية ، الا أن الغموض في النوعين الادبين له سماته ، وخاصة الرواية البوليسية الشعبية المعروفة تحت اسم SERIE NOIRE ، فهناك دائما جريمة يتم البحث عن مرتكبها . أو محاولة الامساك به بطرق شتى . وغالبا ماينكشف المجرم في نهاية أحداث الرواية ، ان لم يكن في السطور الأخيرة ، وهذه السمة عامة في هذا النوع من الروايات الذي يكتبه داشيل هاميت ، ورايموند شاندلر ، وآجاثا كريستى وجورج سيمنون وآخرون .

أما في رواية التجسس ، فنحن أمام عميل سواء كان رجلا أم امرأة هو في منظور أحد الاطراف يؤدي خدمة وطنية لبلد ، وعليه أن يقوم بعملية تجسس لدى طرف آخر ، هو بالطبع خصم أو عدو . ولذا فان الطرف الآخر ينظر اليه كمجرم وخائن ، وتتنوع درجات العمليات التي يقوم بها هذا العميل ، فهى اما عملية لمعرفة أسرار عسكرية أو أسرار صناعية ، أو لخطف شخصية ذات أهمية ، أو تصفية لجاسوس ، أو لخصم ، أو تدمير جهاز ، أو حفار ، أو قاعدة .... الخ .

والجاسوس موجود في أغلب أحداث الرواية ، وهو يحل محل ضابط التحرى في الرواية البوليسية ، ولذا فعلى القارئ أن يتحرك معه ، حتى وإن تعددت اسماؤه ، الحقيقة والمستعارة، وهناك صداقة ماتقوم بين القارئ والجاسوس ابان مهمته خلف خطوط العدو . ويعيش الجاسوس دائما في حالة توتر مهما أوتى من ثبات أعصاب ، سواء عند محاولة الحصول علي معلومات جديدة أو مطلوبة ، أو عندما يسعى لابلاغ هذه المعلومات الى مؤسسته التى يعمل لحسابها ، وعلى خيوط التوتر المصنوعة من هذه المحاور يعزف كتاب الرواية مايشاءون من مغامرات وحكايات مثيرة .

الكثيرون من مؤلفى روايات التجسس انتموا في فترة ما فى حياتهم بوكالات الاستخبارات في بلادهم بشكل مامن الأشكال ، فاما أنهم كانوا يعملون موظفين ، أو جواسيس لدى هذه الوكالات ، أو أن الاستخبارات قد راحت تستعين بهم لتحويل قصص التجسس المدونة في الملفات الي روايات يقرأها الناس ويعرفون خباياها .

وحسب نوع مايكتبون ، فان هناك ثلاثة أنواع من هؤلاء الروائيين هم :

النوع الأول : يعتمدون في نسج حواديتهم علي خيالاتهم مستندين على مايعرفونه من أسرار وأساليب وكالات الاستخبارات ، وقليلا ماتكون لاحداث رواياتهم علاقة بما دار في الواقع ، مثل الكاتب البريطاني أيان فلمنج الذى كان عميلا فى وكالة الاستخبارات الملكية البريطانية ، الا أن شخصية العميل جيمس بوند التى ابتدعها في مجموعة من الروايات لم تكن موجودة في الواقع ، كذلك فان مافعله جيمس بوند فى هذه المغامرات لم يدون في ملفات وكالة الاستخبارات البريطانية ، لكنها من تأليف قريحة الكاتب . ومن هؤلاء الكتاب أيضا البريطانى اريك امبلر ، والفرنسى جيرار دوفيليه ، والروسى فلادمير فولكوف ، يعيش فى فرنسا منذ سنوات طويلة ، صاحب رواية " التحول" التى فازت عام ١٩٨١ بجائزة الاكاديمية الفرنسية .

ورغم أن هؤلاء الكتاب لايستعينون بملفات الوكالات ، فان خبرتهم العملية بأعمالهم السابقة في هذه الوكالات تجعلهم يعرفون كيف يتم اعداد الجواسيس ، بل وكيف يتصرف كل منهم في عملهم وحياتهم ، ويمكن مثلا ، أن تكون شخصية جيمس بوند هي تركيبة انسانية من مجموعة جواسيس عرفهم فلمنج، أو قرأ عنهم ، وسوف نفرد مساحة أخري للحديث عن هذا الكاتب .

أما **النوع الثانى** من الأدباء فانهم يرجعون في بعض الأحيان الى ملفات وكالات الاستخبارات ، ويختارون منها خطوطا عامة ينسجون حولها من خيالاتهم . فيمتزج الواقعى بالمتخيل مثلما يفعل الكاتب البريطاني جون لوكاريه والكندى أنطوني هايد ، ومثلما فعل الروائى جرهام جرين (١٩٠٤ - ١٩٩١) فى العديد من رواياته عن العملاء السريين ومنها "المخبر السري " و" عميلنا فى هافانا "

أما **النوع الثالث** ، وهو الأكثر خطورة ، فهو الذى يلتزم التزاما شبه كامل بما جاء فى الملفات ، وهو لايروح بعيدا في تخيلاته عما جاء في هذه الملفات ، وكل مايفعله الكاتب هنا أن يحول المادة الجافة المكتوبة فى تقارير الاستخبارات الى أحداث درامية مليئة بالآثار والغرائب ، أى أن هذا النوع من الكتب يعيد الحياة الى شخصيات تحولت الى أرقام فى ملفات وكالات الاستخبارات . ومن أبرز هذه الامثلة : صالح مرسى ، وإبراهيم مسعود فى مصر ، والكاتب البريطانى كين فوليت ، والاسرائيلى بن بورات .

وقد عرفت رواية التجسس أبناءها المخلصين الذين لايكتبون نوعا آخر من الروايات ، وارتكزت شهرة هؤلاء الروائيين على ذلك النوع من الابداع ، ومن اشهر هذه الاسماء : جون لوكاريه ، وكين فوليت ، والاسرائليان بن بورات ، وبورى دان ، وإيان فلمنج وصالح مرسى فى السنوات العشرين الأخيرة . وقد أعلن صالح مرسى ، على سبيل المثال ، فى مقدمة روايته عن " رأفت الهجان" أن كتابة رواية التجسس السابقة - يعنى " الحفار " - قد أنهكته كثيرا ، وأنه قرر الابتعاد عن الكتابة في هذا النوع ، الا أن هذا لم يحدث ، فبعد النجاح الذي حققته رواية " رأفت الهجان " عقب تحويلها الى مسلسل تليفزيونى كان قد نشر رواية " سامية فهمى " ثم نشر رواية " الدموع في عيون وقحة " التى كان قد سبق نشرها قبل خمسة عشر عاما فى مجلة المصور ، ولم يتوقف عن الكتابة عن الجاسوسية ، فنشر فى مجلة " حواء " مجموعة مقالات تحمل عنوان " نساء في قطار الجاسوسية " .

رغم أن رواية التجسس فد انبثقت عن الرواية البوليسية ، فان هناك فرقا كبيرا بين كل من النوعين ، فكما يقول صالح مرسى ، فان العنف ليس سيد رواية التجسس ، لان ضابط الاستخبارات ، هو آخر من يلجأ الى استعمال العنف ، وأبسط دليل هو حكاية تسمية اسم الاستخبارات في العالم باسم " الذكاء " . باعتبار أن الاستخبارات هى عقول تتصارع ، ورغم أن هذا هو رأى صالح مرسى الذى حدثنا به فى جلسة خاصة حول هذا النوع من الروايات ، فان الكثير من روايات التجسس المعاصرة يعتمد على الذكاء ، وعلى العنف من أجل تصفية الخصوم أولا بأول . ولعل مافعله رجال الموساد بالفدائي الفلسطيني خليل فى رواية " الطبالة الصغيرة " لجون لوكاريه ، لم يكن نوعا من استخدام الحيلة ، بل هى من قبيل التصفية الجسدية باطلاق النيران على الخصم ، وقد كان يمكن لرجال الموساد أن يختطفوا خليل وهو بين يدى حبيبته شارلى ، لذا فهذه الروايات مليئة أيضا بالقتل والعنف الدموى .

اختار العديد من ادباء هذا النوع أن ينشروا رواياتهم تحت أسماء مستعارة ، وتفسير هذا هو أن أغلب هؤلاء الروائيين لم يود أن يشير المتاعب مع وكالة الاستخبارات التى كان يعمل لصالحها ، أو مع الاستخبارات التى يكتب ضدها . فالكاتب الاسرائيلي يورى دان نشر العديد من رواياته تحت اسم بن دان ، أما جون لوكاريه فاسمه الحقيقى هوجون كرونويل .

لكن هناك أدباء آخرين نشروا مثل هذه الروايات باسمائهم الحقيقية . ونحن نقول أدباء باعتبار أنهم مبدعون حقيقيون للادب ، وأن نشاطهم في كتابة روايات التجسس كان مرحلة

من حياة كل منهم . فصالح مرسى كان اسمه معروفا كأديب لسنوات طويلة قبل أن يسطّر حرفا واحدا في روايات التجسس ، أما جراهام جرين وسومرست موم (١٨٧٤ - ١٩٦٥) فقد قدما العديد من روايات التجسس فى فترة من حياتيهما . وسجل موم تجربته كجاسوس فى رواية تعتبر وثيقة هامة فى أدب النوع .

وفى رواية التجسس ، يمكن لأكثر من كاتب أن يتعاونوا من أجل تأليف رواية واحدة ، وهذه الظاهرة منتشرة فى الولايات المتحدة وإسرائيل ، فقد راح الأمريكيان لارى كولينز ، ودومنيك لابيير يكتبان معا العديد من الروايات منها " واقدساه " ، " ليلة الحرية " و" الفارس الخامس " . كما اشترك الاسرائيليان يوري دان وبن بورات فى تأليف عدد من الروايات منها "الجاسوس الذى آتى الى إسرائيل"، " ولعنة جاسوس " ، " والميراج ضد الميج " و"عنتيبي " .

الجاسوسية فى الاساس عملية ، ولكل عملية فى وكالات الاستخبارات ملف خاص له رقم . وغالبا مايتسمي الجواسيس بأرقام كودية ، لكن في الأدب غالبا ماتكون هناك روايات عن جواسيس ، وروايات أخرى عن عمليات تجسس ، وعلى سبيل المثال ، فان رواية " الحفار" لصالح مرسى هى رواية عن عملية قامت بها أجهزة الاستخبارات المصرية لتدمير حفار جاء من كندا متجها الى اسرائيل فى عام ١٩٧٠ . وتم تدميره فى داكار بالسنغال بواسطة مجموعة من ضباط الاستخبارات تحت قيادة ضابط اسمه الأدبى هو " نديم هاشم " .

وهذه الرواية عن عملية قام بها هذا الضابط الذى اشترك تبعا لمهامه الوظيفية فى العديد من العمليات الأخرى . ولذا فان رواية " الحفار " هى بمثابة عملية فى وكالة الاستخبارات لها ملف يحمل رقما كوديا خاصا .

أما رواية " كنت جاسوسا فى إسرائيل " المعروفة تحت اسم " رأفت الهجان " فهى رواية عن جاسوس منذ أن تم تجنيده ، وتدريبه ، تم زرعه فى قلب إسرائيل ، وإعادة تدريبه ، والعمليات التى قام بها الى أن طلب إعفائه من أعمال التجسس ، ثم بعد أن مات . أى أنها رواية عن جاسوس طيلة حياته ، باعتبار أن القارئ عرف الكثير عن مولده ، وإسرته .

ومن المفترض أن الهجان قد قام ، سواء في الرواية أو من واقع ملفات الاستخبارات بالعديد من العمليات ، ولكن وجود كل هذه العمليات فى ملف واحد لايجعل منها رواية عن عملية ، بل هى رواية عن جاسوس .

اذن ، فهناك روايات عن جاسوس ، وآخرى عن عمليات جاسوسية ، فرواية " الطبالة الصغيرة " لجون لوكاريه عن عملية اصطياد الفدائى الفلسطينى خليل وقتله ، ولذا فان كل الشخصيات التى فى الرواية أشبه بعرائس ماريونيت مربوطة فى خيوط تحكمها وكالة الاستخبارات الاسرائيلية " الموساد " وكذلك رواية " المفتاح : ربيكا " للكاتب البريطانى كين فوليت هى حول عملية تجسس للتخلص من الجاسوس الالمانى جون آبلر . أما حياة هذا الجاسوس الذى عاش فى مصر ، وعرفت تحت اسم حسين جعفر فقد رصدها الكاتب ليونارد موسلى فى كتاب " قط وفأر " أى أن رواية فوليت عن عملية تجسس . أما كتاب موسلى فهو عن جاسوس منذ ميلاده ، وحتى وفاته ، حتي بعد أن تم القبض عليه ، ثم بعد أن أطلق سراحه، وعاش مواطنا عاديا لاعلاقة له بعالم الجاسوسية .

لكل دولة رواية تجسس خاصة بها . تعكس أنشطة أجهزة الاستخبارات التابعة لها . وتحاول أن تمجد هذه الأنشطة وتقدمها فى أحسن صورة الى القارئ . ولذا فان العميل فى الأدب المحلى هو بمثابة بطل قام بتقديم خدمات وطنية جليلة لبلاده . ودفع من أعصابه ودمائه، وأيضا حياته مقابل هذه الوطنية . حتى العملاء الذين ينتمون الى بلاد أخرى ، ويعملون لمصلحة هذا البلد فى نظر هذا الأدب أبطال ، ولايقلون وطنية عن أبناء الوطن نفسه .

كما تنظر رواية التجسس الى الشخص الذى يعمل لصالح العدو على أنه خائن ، ويجب اعدامه ومثل هذه الاسقاطات ساعدت فى تهميش قيمة هذه الزوايات باعتبارها عملا دعائيا فجا فى بعض الأحيان ، ولذا يحاول الكثيرون من كتاب رواية التجسس جذب انظار القارى لما يمثله هذا الجاسوس على أساس أن للقارئ الحكم النهائي على مايقوم به هذا الجاسوس من بطولات أو خيانات .

فاذا كان الجاسوس نجما في وطنه ، فهو عميل خائن فى الوطن المعادى ، ولذا فان بعض الدول لاتقبل على ترجمة روايات التجسس الى لغاتها الا بحذر شديد ، لانها فى رأيها روايات صفراء تمجد الخونة والمرتزقة ، وهؤلاء الذين يبيعون حياتهم مقابل المال .

وبشكل عام ، فان هذا الادب يلعب على المستوى المحلى دورا قويا فى تجسيد الروح القومية مثلما حدث في العالم العربي بأكمله عندما نشر صالح مرسى رواياته الأربع التى استمدها من ملفات الاستخبارات المصرية . ومجموعة قصصية واحدة ، عن عمليات ضباط

استخبارات ناجحة ضد اسرائيل ، وقد كان هم المؤلف في هذه الروايات أن يؤكد لقرائه أن ماكتبه بعيد تماما عن الخيال ، وأنه لم يفعل شيئا سوى أن غير الاسماء لدواعى السرية . رغم أن وسائل الاعلام قد تسابقت عقب اذاعة الجزء الأول من مسلسل " رأفت الهجان " عام ١٩٨٨ فى نشر الأسماء الحقيقية لهؤلاء الضباط وصورهم ، خاصة أنهم كانوا قد تركوا وظائفهم فى وكالة الاستخبارات المصرية .

لم تعرف رواية التجسس كُتابا غزيرى الانتاج مثلما يحدث عادة فى الرواية البوليسية فمن المعروف أن كتاب الرواية البوليسية اشتهروا بغزارة الانتاج ، ومن الصعب أن نحصر أعداد الكتب التى ألفها موريس لبلان ، ويوجين سو ، ولكن جورج سيمنون نشر مالا يقل عن ثلاثمائة رواية ، باسمه الحقيقى ، وبأسماء مستعارة ، أما أجاثا كريستى فعدد رواياتها يصل الى ٤٨٠ رواية ترجمت الى كل لغات العالم .

لكن هذه الظاهرة لم تنتقل بدورها لدى كتاب رواية التجسس فعلى سبيل المثال ، فان إيان فلمنج لم يكتب طوال حياته سوى اثنتى عشرة رواية ، أما جون لوكاريه فلم يزد عدد رواياته عن ثلاث عشرة رواية حتى أوائل عام ١٩٩٦ . ويمكن أن يدخل فى هذا الاطار كل من اقترب من هذا النوع من الروايات ، ولعل الكاتب الوحيد الأغزر انتاجا هو الفرنسى جيرار دوفيليه ، حيث صدر من سلسلة كتب SAS أكثر من ١٣٨ عدد حتى الأن .

ولايوجد تفسير محدد لهذا الأمر ، لكن هناك عدة تصورات تدخل فى هذا الاطار ، منها أن رواية التجسس حاولت أن تبتعد عن الهامشية التي التصقت بالروايات البوليسية الشعبية ، ولم تسع الى مغازلة القارئ بنفس القدر ، ومن الاسباب أيضا قلة كتاب الرواية الذين عملوا فى هذا النوع قياسا الى الرواية البوليسية .

ولكن هناك ظاهرة أخرى مختلفة ، فبينما اتسمت الروايات البوليسية بأنها صغيرة الحجم ، فان الكثير من روايات التجسس يقع فى مئات الصفحات ، وعلى سبيل المثال رواية "كنت جاسوسا فى اسرائيل " لصالح مرسى . وتقع روايات لوكاريه فى عدد كبير من الصفحات خاصة أعماله الاخيرة " الطبالة الصغيرة " و " جاسوس عريق " و " المنزل الروسى " و " مدير الليل " .

كما سبقت الاشارة ، فانه بينما اهتم الكثيرون من كتاب الرواية البوليسية بابتداع شخصية مفتش تحر يظهر من رواية لأخرى فان القليل من كتاب رواية التجسس قد لجأوا الى

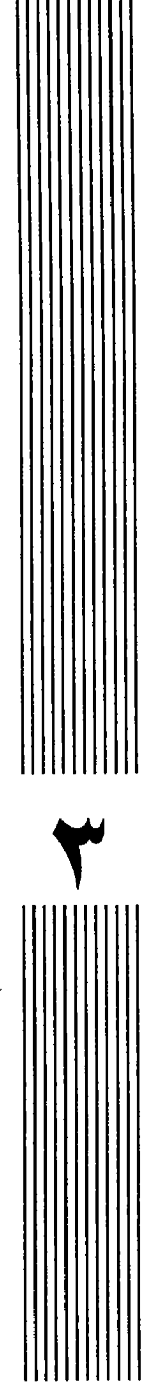
هذه الظاهرة ، وقد أشرنا أن ذلك يعود الى نوع المصادر التى يرجع اليها الكاتب فالروائى إيان فلمنج قد كتب رواياته كلها عن شخصية جاسوس متخيل هو جيمس بوند ، واهتم لوكاريه بالحديث عن جاسوسه جورج سمايلي فى أربع روايات فقط من مجموع أعماله .

ولعل ذلك يرجع أيضا الى أن وكالات الاستخبارات قد تسمى الجاسوس " عملية " كما سبقت الاشارة الي ذلك ، ويمكن اعتبار كل جاسوس عملية روائية منفصلة ، وهذا ماحدا بالعديد من الروائيين الذين يكتبون فى هذا النوع أن يؤلفوا عن العمليات ، وليس عن الجواسيس ، ويتضح هذا بشكل محدد فى روايات لوكاريه ، ثم فى أعمال صالح مرسى ، وكين فوليت . فقد راح كل منهم يفتح ملفا ، حتى وإن كان متخيلا ، عن عالم خاص به ، وعلى سبيل المثال ، فان لوكاريه قد تناول موضوعات حول سور برلين ، وحول الصراع العربي الاسرائيلى ، ثم البيروستريكا السوفتية ، وعن العالم الجديد فى روايات منفصلة ، أما صالح مرسى فقد سجل عملية " الحفار " ثم كتب عن أربعة جواسيس فى رواياته وأقاصيصه ، مثل عبلة كامل فى الصعود الى الهاوية " ورأفت الهجان " في " كنت جاسوسا فى إسرائيل " و "سامية فهمى " و "جمعه الشوان " فى " دموع فى عيون وقحة " .

▩ رغم أن رواية التجسس هى نوع منبثق من الرواية البوليسية ، فان هناك ظاهرة غريبة متعلقة بجنس الكاتب . فمن الملاحظ أن الرواية البوليسية شهدت تفوقا ملحوظا لدى العديد من النساء اللاتى رحن يمارسن كتابة هذا النوع من الابداع . ويمكن القول أن هؤلاء النساء قد تفوقن على العديد من الرجال فقد حظت أجاثا كريستى بشهرة جعلت رواياتها تترجم الى ٢٥٨ لغة حسب احصاءات منظمة اليونسكو . أما باترشيا هايسميث فقد ابتدعت ماسمى بالرواية البوليسية النفسية . وفى السنوات الأخيرة لمعت روث راندل ، وفيليس دورثى جيمس

والغريب أن رواية التجسس لم تكن أدبا يدخل فى اهتمام النساء كمبدعات ، ولم يصل الى مسامعنا ، حتى كتابة هذه السطور ، أن كاتبة قد تفوقت فى هذا النوع من الروايات والسبب فى ذلك غير معروف بالطبع ، فقد مارست المرأة أعمال التجسس بنفس الكفاءة التى مارسها بعض الرجال . وكانت ماتاهارى ، على سبيل المثال ، مصدر وحى لروايات عديدة للمبدعين . ومع ذلك فان رواية التجسس لم تعرف بعد أديبة يمكنها أن تبارى المبدعين الرجال فى ابداعهم مثلما فعلت فى مجالات عديدة .





☆الفصل الثالث☆

٣

الجاسوسية ..
صناعة بريطانية

الفصل الثالث

الجاسوسية .. صناعة بريطانية

نحن نتفق تماما مع ماقاله الكاتب الفرنسى جابرييل فيرالدى فى كتابه عن " رواية التجسس " فى أن هذه الرواية ابداع بريطانى متميز فى المقام الأول . فأبرز كتاب هذا النوع من الروايات هم من البريطانيين . ليس فى حقبة زمنية معينة من القرن العشرين ، بل فى كل سنوات هذا القرن . وسنرى فى هذه الصفحات كيف أن البريطانيين قد تسيدوا هذا النوع من الكتابة . وقدموا رواياتهم عن عالم الجاسوسية ، ليس فقط مايتعلق بأنشطة الاستخبارات البريطانية ، بل عن عملاء من انحاء متفرقة من العالم . وسوف نري أن هذه الكتابات لم تقتصر على الأدباء الهامشيين ، أى الذين يسعون لجعل هذا النوع من الكتابة لمجرد التسلية ، بل سوف نرى أن أدباء مرموقين قد خاضوا تجربة كتابة روايات الجاسوسية . لدرجة تجعل الباحث يؤكد أن رواية التجسس ليست نوعا أدبيا هامشيا ، ولكنها أدب حقيقي مكتوب باسلوب يجعل القارئ يتعمق فى أغوار نفس الجاسوس باعتباره كائن بشرى . وليس أداة للمغامرة ، ولتحقيق مهام لاجهزة ، ووكالات لا قلب لها ، ومن أبرز هؤلاء الأدباء سومرست موم، وجرهام جرين ، واريك أمبلر ، ثم جون لوكاريه .

وحسب رأىّ ، فان الروايات المكتوبة فى بريطانيا ، تتم صناعتها وترويجها فى الولايات المتحدة . حيث راح الأمريكيون يستقبلون هذه الابداعات بحماس شديد ، واهتم الناشرون فى الولايات المتحدة ، بتوزيعها فى الدول الناطقة باللغة الانجليزية . ومتابعة ترجمتها الى العديد من اللغات . كما أن الامريكيين هم الذين حولوا هذه الروايات الى أفلام لاقت شهرة عريضة . ووزعت من خلال شركات هوليوود الىٰ كل أنحاء العالم . وقد استقبل الأمريكيون هذه الروايات بحفاوة شديدة ، ليس فقط لانها تتفق مع ذوق القارئ الامريكى . بل مع سياسة العم سام التى رأت أن مايقوم به جواسيس هذه الروايات كان من مصلحة

المعسكر الغربي ، وضد النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفيتي (سابقا) وغيرها من الدول التي كانت تناصره قبل عام ١٩٩٠ . وأيضا ضد الصين.

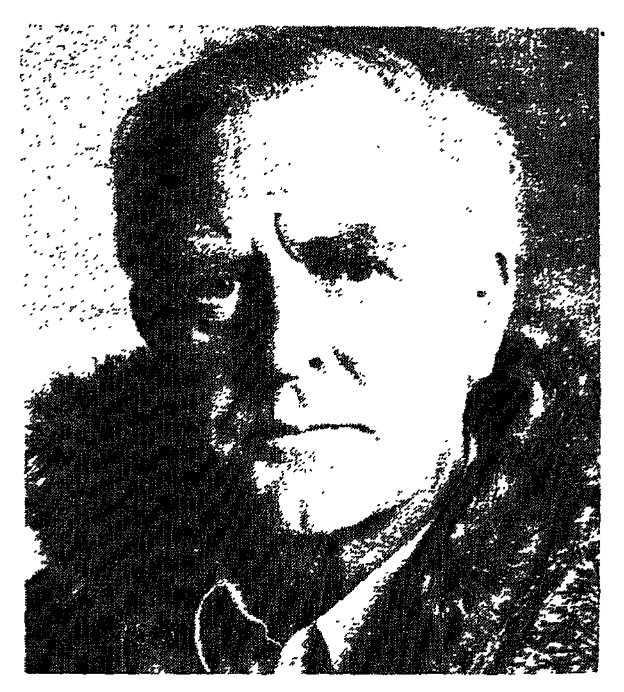
ورغم أن العديد من الأدباء الامريكيين قد حاولوا صناعة هذا العالم الموجود فى الروايات البريطانية ، فان الولايات المتحدة لم تتميز قط في هذا النوع من الأدب ، واستطاع الفرنسيون أن يبرزوا الى حد ما على المستوى المحلى الفرنسى . وجاء الروائيون الفرنسيون فى المرتبة الثالثة بعد البريطانيين والأمريكيين .

هذه من ناحية التميز الأدبي ، أما من حيث عدد نسخ الكتب المطبوعة والمنشورة ، فان للولايات المتحدة ، بالطبع ، الأغلبية الرئيسية ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وفى الوقت الذى تراجع فيه الناشرون عن تكملة نشر روايات عن العملاء الامريكيين من طراز مات هيلم و "فلينت " ، فان روايات إيان فلمنج لاتزال تطبع باعداد متزايدة كل عام . واستطاع النموذج البريطاني إن يؤثر في روايات التجسس حتى داخل الولايات المتحدة نفسها .

ولقد اخترنا أن نتحدث فى هذا الفصل عن أبرز الكتاب البريطانيين الذين عملوا فى هذا المجال ، على أن نفسح لثلاثة منهم فصلا خاصا " جون لوكاريه ، وكين فوليت ، وإيان فلمنج" ، وذلك لانهم قد برعوا بشكل واضح فى كتابة هذا النوع من الروايات . حيث عملوا في كتابة روايات التجسس طوال سنوات ابداعهم دون أن يتراجعوا عن الكتابة فيه ولو مرة واحدة فقط .

وقد تعامل الكتاب البريطانيون مع رواية التجسس بشكل جدى ، وليس على أنها نوع أدبى هامشى ، فأضافوا عليها العديد من الابعاد الانسانية ، وظهر الكثير من الجواسيس فى الأدب الانجليزى على أنهم بشر يمارسون الجاسوسية كمهنة مثل بقية المهن ، ومن أوائل الكتاب البريطانيين الذين برزوا فى رواية التجسس مع أوائل القرن العشرين : ادوارد فيليبس (١٨٦٦ - ١٩٤٦) الذى أكدت رواياته على ماتتمتع به من شعبية لدرجة جعلت منه " أمير الحكّائين"، وهى التسمية التى أطلقها عليه الكاتب روبرت سانديتش فى كتابه الذى يحمل نفس العنوان ، والذى نشره فى انجلترا عام ١٩٥٧ .

وقد نشر فيليبس مجموعة كبيرة من الروايات بدأها عام ١٧٩٨ برواية " السيد سابين الغامض " ، وهو يعلق قائلا : " لقد غزت رواياتى العديدة الكثير من أنحاء العالم الغامض ، والمجهول للدبلوماسية .



چــــون لوكاريــــه

وقد استفاد فيليبس من اندلاع الحرب العالمية الاولى ، فراح يكتب روايات عن الجواسيس الذين يعملون في خدمة بريطانيا ، وأعتبر أنه أحدى وسائل الدعاية الرسمية من خلال هذه الروايات ووكلت اليه مهمه الاتصال بالصحافة الامريكية من أجل تقديم صورة الحرب العالمية . وقد سافر الى الولايات المتحدة وتزوج من إمرأة أمريكية ، فوجد نفسه فى عالم من الأحلام . فهو محاط دائما بالحسان والأجواء الغامضة . وينتقل بين الفنادق الفخمة والمدن الكبرى . من فيينا الى مونت كارلو ، وبودابست ، وكان ، ومن خفايا هذه العوالم استمد احداث رواياته . فقد امتلأت أعماله بالمناطيد والغواصات ، والمتشردين والنساء ولاعبي القمار ، وبأناس ينتمون الى الطبقات العليا . وكان فيليبس أول روائى معاصر يبتدع شخصية أوبنهايم . وهو ضابط مثالى ، يتحرك من خلال حبه للتضحية من أجل المهمة التى يقوم بها ، يؤمن بأن عليه أن يدافع عن مصالح الامبراطورية البريطانية أينما امتدت سطوتها . وهذا الجاسوس كما صوره المؤلف ابنا لأحد المستشرقين الذين يهتمون بدراسة ثقافة شرق آسيا ، وقد درس فى جامعه كمبردج وعمل ضابطا فى البحرية البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى .ومن بين الاعمال الهامة التى كتبها فيليبس كتاب عن عالم الجاسوسية تحت عنوان " لغز الرمال "

أما الكاتب البريطانى الثانى فهو روديارد كيبلنج (١٨٦٥- ١٩٣٦) الذى فاز بجائزة نوبل عام ١٩٠٧ . وقد نشر رواية واحدة تنتمى الى الجاسوسية تحت عنوان " كيم " عام ١٩٠١ ، ومن المعروف أن كيبلنج كان أحد الكتاب الذين يدافعون عن أمجاد الامبراطورية فى بلاد عديدة . ومن رواياته " كتاب الغابة " وهو أشهر كتاب أطفال فى القرن العشرين . كما قدم رواية " الرجل الذي كان يود أن يصبح ملكا " .

وفى رواية " كيم " تحدث عن تورط شاب بريطانى فى الانضمام الى الجاسوسية . وقد ولد كيم فى الهند لجندي بريطانى وأم هندية عملت وصيفة . وتبدأ الرواية عندما يبلغ الثانية عشر من عمره بعد أن فقد والديه ، ويجد نفسه يعيش فى زحام مدينة لاهور . ولايستطيع أن يغادرها . وكأنها المياه بالنسبة لسمكة صغيرة . يعمل كيم خادما فى منزل أحد القديسين الذين يسكنون منطقة التبت . وهذا الرجل فقير بدوره . وهو يصحب كيم معه من أجل البحث عن النهر المقدس حيث المياه تغسل خطايا البشر . وفى رحلته يتعرف كيم على رجل يدعى محمود على ، يعمل فى خدمة وكالة الاستخبارات البريطانية ، وهذا العميل مراقب من قبل ضابط آخر يدعى " مورجان صاحب " ويتعلم كيم اصول ممارسة التجسس ، فيدربه الرجل كيف يلتقط الاشياء بعينيه ثم يحفظها فى ذاكرته ، وكيف يسجل الوقائع ، وثم ينقلها دون أن يضيف عليها .

ثم يحدث تلاحم بين الأشخاص الثلاثة : السيد ، والجاسوس ، وكيم ، ويتمكنون من الوصول الي النهر المقدس ويغسلون ذنوبهم وخطاياهم فى مياهه .

وكما نرى فإن كيبلنج قد مزج قصة تجسس بالحس الانسانى فلكل من الشخصتين المحيطتين ب " كيم " فلسفته الخاصة فى الحياة ، وفى هذه الرواية نجد أبطالها يترقبون من أجل المعرفة ، وكيم على سبيل المثال يستخدم قدرته فى الرصد ، ليس من أجل التجسس ، بل من أجل زيادة المعرفة . لذا فان الثلاثة يستفيدون من هذه المعرفة أكثر من وكالة الاستخبارات التى يعملون لصالحها .

أما الكاتب الثالث الذي كتب رواية التجسس ضمن عطائه الأدبى المتميز فهو جوزيف كونراد (١٨٥٧ - ١٩٢٤) ، وهو كاتب من أصل بولندى عاش سنوات طويلة من عمره فوق المراكب البخارية التى تجوب العالم . وقد قدم العديد من الروايات التى تدور أحداثها فوق السفن ، ومن أبرزها " لورد جيم " ، " قلب الظلمات " و " نوسترومو " وغيرها . وتجئ أهمية كونراد فى أنه أحد الروائيين المجددين فى الصياغة الادبية ، وهو أحد الذين حاولوا ايجاد شكل جديد يختلف عن الشكل التقليدي للسرد .

وقد كتب كونراد روايتين حول الجواسيس ، الأولى تحت عنوان العميل السرى عام ١٩٠٧ ، والثانية " تحت العيون الغريبة " عام ١٩١١ . وفى هاتين الروايتين حاول الكاتب أن يستفيد من تجربته الشخصية ، فمن المعروف أن والده كان أحد النبلاء المهتمين بالأدب

الانجليزي ، وقد ترجم أعمال شكسبير الي اللغة البولندية ، كما كان عضوا فى حركة التحرر الوطنية البولندية ، لذا تم اعتقاله من قبل السلطات الروسية ، ونفي مع أسرته الى سيبيريا . كان جوزيف فى تلك الفترة صغيرا لم يتجاوز الخامسة ، واستطاع فيما بعد أن يهرب الى فرنسا . ثم الى بريطانيا ليصبح مواطنا انجليزيا .

ولذا ، فان أحداث روايتيه عن الجاسوسية تتناولان الثورة الروسية . و" العميل السرى" فى الرواية التى تحمل نفس الأسم يدعى فيرولوك ، ينتمى الى أوساط الفوضويين فى لندن ، يستطيع أن يحصل على وظيفة متواضعة فى السفارة الرومانية حيث يتم تجنيده وهناك يطلبون منه إلقاء قنبلة فى لندن ، الا أنه يستطيع ، بعد أن أوهمهم بالموافقة ، أن يثير الرأى العام البريطانى عليهم ، ويجد فيرولوك نفسه مطاردا من قبل المفتش " جيت " الذى ينتمى الى الشرطة الخاصة . وهو فى نفس الوقت عميل مزدوج ، وذلك من أجل اصطياده أو اغتياله .

ويقول جابرييل فيرالدى أن هذه الرواية قد طرحت نظرية نفسية حول موضوع الاغتيال، فالكاتب يحلل العديد من الظواهر الاجتماعية فى المجتمع المعاصر التى دفعت بانسان عادى أن يصبح جاسوسا محترفا .

ومن الكتاب البارزين فى تلك السنوات الأولى من القرن العشرين جون بوشان ، المولود فى عام ١٨٧٥ من أب اسكتلندى وقد عاش بوشان طفولة سعيدة يطالع قصص البحارة والرعاة ، وكانت محبته شديدة للناس البسطاء . مما يجعله يصور العملاء السريين على أساس أنهم فى الأصل أشخاص يتمتعون ببساطة مثل بقية البشر .

وفى أثناء دراسته الجامعية ألف جون بوشان خمس روايات حول الفقراء فى مدينة لندن، وعقب تخرجه فى الجامعه عمل محاميا لدى اللورد ميلنر ، زعيم المائدة المستديرة ، والمحافظ الاستعمارى لجنوب أفريقيا فيما بعد ، وفى أثناء سنوات الحرب العالمية الأولى عمل مديرا لادارة المعلومات بوزارة الدعاية واستطاع من خلال هذه الوظيفة الحساسة أن يتعرف على الكثير من السياسيين ، وأيضا عرف الكثير من المعلومات السرية التي استفاد منها فيما بعد فى مؤلفاته .

اذن ، فبوشان هو أول كاتب معاصر يعمل فى منصب سياسى يتعلق بالمعلومات السري، ويستفيد من هذه الوظيفة لتحويل العديد من وقائعها الى روايات . وقد حذا حذوه فيما بعد العديد من الأدباء فى بريطانيا ، مثل جراهام جرين وسومرست موم ، وإيان فلمنج .

لذا كان بوشان أحد الرجال الذين يعرفون الكثير . بل أن وظائفه التي التحق بها فيما بعد كانت أكثر أهمية ، فقد انتخب عضوا فى البرلمان ، وعمل مستشارا خاصا وضابطا أعلى برتبة مدنية ، ثم عمل مديرا مساعدا لوكالة رويتر . وعمل سنوات طويلة حتى وفاته فى عام ١٩٤٠ محافظا لكندا .

نشر بوشان ، كمؤلف ، غشر روايات ومجموعة كبيرة من القصص القصيرة تنتمي الى رواية التجسس . ومن أشهر هذه الأعمال " ٣٩ درجة سلم " المنشورة عام ١٩١٥ . والتي تحولت فيما بعد الى السينما أكثر من مرة ، من أشهرها الفيلم الذى أخرجه الفريد هيتشكوك عام ١٩٣٥ ، والجاسوس فى هذه الرواية يدعى ريتشارد هاناى ، وهو مهندس مناجم عاد من جنوب أفريقيا فى عام ١٩١٤ من أجل قضاء إجازة فى مدينة لندن ، فيجد نفسه واقعا بالمصادفة فى مجموعة من المتاعب تتعلق بمؤامرة تجسس ، فهناك امرأة يتم اغتيالها من قبل احدى المؤسسات السرية . وهذه المنظمة تطلق على نفسها اسم " ٣٩ درجة سلم " ، ولأنه شاهد على هذه الجريمة التى رآها يوما وهو خارج من دار السينما ، فانه يجد نفسه مطاردا من قبل رجالها ، وعليه أن يهرب ويحمى نفسه ، وعندما يذهب الى الشرطة يتهمونه بأنه الفاعل ، فيهرب فى أثر القتلة من أجل إثبات براءته وفى وسط هذه المطاردات يتعرف على فتاة تتولى مساعدته ، كما يتعرف على فنان يسعى الى تعريفه بالمنظمات السرية التى تعمل فى لندن .

وكما هو واضح ، فان هذه الرواية تنتمي فى أغلبها الى الروايات البوليسية أكثر منها الى التجسس ، ولكن النقاد وضعوها فى مصاف كتابات التجسس لانها تكشف العالم السرى الذى يحكم هذه المنظمات ، وهو عالم الكربتيا الذى تتحرك فى أجوائه كافة المنظمات السرية التى لها عملاؤها فى أماكن متعددة .

وعلى غرار آدوارد فيليبس ، كتب بوشان مجموعة من الروايات تظهر فيها نفس الشخصية ريتشارد هاناى . ففى روايته التالية "الرجل ذو المعطف الأخضر" المنشورة عام ١٩١٦ كان على هاناى أن يسافر الى تركيا فى مهمة خاصة عابرا الأراضى الاوربية بما فيها المانيا من أجل حماية أحد الائمة المسلمين فى تركيا . وكان على هاناى أن يتخفى فى شخصيات عديدة من أجل أن ينجح فى مهمته وذلك لمساعدة لورانس العرب فى إحدى مهامه فى المنطقة العربية . وفى عام ١٩١٩ ، نشر بوشان روايته الثالثة " السيد ستانفاست " التى تروى كيف أصبح هاناى جنرالا فى الجيش ويضطر الى الانخراط بين مجموعة من المسلمين

الذين يعيشون حياتهم فى سكينة ، من أجل اكتشاف حقيقة جاسوس الماني تخفى فيما بينهم.


سومرست موم

وأصبح على بوشان أن يغير من مواضيع رواياته بعد إنتهاء الحرب العالمية الاولى ، وقد بدأ هذا التغيير فى روايته " الرهائن الثلاثة" المنشورة عام ١٩٢٤ . ففى تلك الأونة كان الكاتب قد أصبح عضوا مرموقا فى البرلمان البريطانى ، ورأى أن الحرب الأهلية فى أيرلندا تشكل خطرا ، مثل الحرب التى خاضتها بريطانيا مع المانيا . ولذا دارت أحداث الرواية حول الثورة الايرلندية. وقد حاول بوشان أن يبدو محايدا قدر الإمكان دون أن يستطيع ذلك ، فقد كان على بطل رواياته هاناى أن يغير من أساليبه التى يستخدمها . حيث عرف أن هناك اشخاصا مرموقين ، يمكنهم أن يفكروا فى تدمير حضارة الانسان فى القرن العشرين . وذلك من أجل اشباع غريزة حب التدمير فى أعماقهم ، وحبهم فى اعتلاء المناصب العليا ، ومن أجل مواجهة هؤلاء الناس لابد أن تتغير الخطط والتقنيات . وكما يردد الكاتب على لسان بطله قائلا . .

" الحكومات مثل الأطفال الصغار الذين عليهم الذهاب الى المدرسة "

ويقول جابربيل فيرالدى أن بوشان قد اتجه الى تأليف رواية التجسس لأنه وجدها الأنسب للتعبير عن فلسفته ، وهى أن العالم المفتوح لايمثل سوى جزء من العالم بأسره ، ومن التجربة الانسانية وإن هناك مجالات من العمل يجب أن تحوطها السرية ، وان تكون لها نواميسها الغامضة ، حتي تسير الأمور الى الأفضل ، وان اكتشاف طقوس هذا العالم السرى قد يقود الدول الى السقوط فى مقبرة التاريخ ، وكما يردد أحد النقاد قائلا : " لم أفهم قط

أفكار بوشان حول الشجاعة الا بعد أن وقعت بين أيدى رجال الجستابو .

أما الكاتب الثالث الذى ابتدع شخصية جاسوس فى مجموعة من الروايات بعد بوشان فهو " صابر " SABBER . وهو اسم مستعار لضابط الاستخبارات الكولونيل ماكينل (١٩٨٨ - ١٩٣٧) . وقد ابتدع الكاتب شخصية الجاسوس بلدوج فى روايته " بلدوج ديزموند " المنشورة عام ١٩٢٠ وهو شاب بريطانى يتمتع بذكاء واضح ، وقوة بدنية لابأس بها ، كما أنه يعشق المغامرات ، مما يورطه فى بعض المغامرات ذات الطابع الوطنى .

وصابر هو أحد الذين قاموا بتأليف روايات دعائية ، كانت ذات أهمية وطنية خاصة فى انجلترا إبان سنوات نشرها ، لكنها مالبثت أن اختفت مع مرور الزمن .

ويعتبر سومرست موم أحد الكتاب القلائل الذين أعطوا هذا النوع من الروايات أهمية تجذب إليها أنظار القراء الجادين ، فكما سبق أن رأينا فان الكثيرين قد حولوا كتاباتهم الى دعاية تتناسب وظروف الحروب ، والصراعات السياسية . وقد عمل موم بالفعل فى وكالة الاستخبارات البريطانية ، كما عاش حياة مليئة بالتجارب المتدفقة ، فهو ابن السفير البريطانى فى باريس ، ولد فى عام ١٨٧٤ ،

فقد أباه وهو فى التاسعة من عمره ، فرباه عمه ، ودرس الطب فى الجامعة ، ورغم أنه أصبح طبيبا فانه اصيب بمرض الدرن . عمل فى وكالة الاستخبارات البريطانية فى الفترة بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ ، أى فى سنوات الحرب العالمية الأولى .

وقد أجاد موم العديد من اللغات ، فقد كان يتحدث الفرنسية بطلاقة ، بل أنه بحكم تواجده فى باريس طوال سنوات طفولته قد تعلم الفرنسية قبل اللغة الانجليزية ، كما أجاد الايطالية والالمانية، وقيل أنه مصابا بداء اللواط ، وقد تم استبعاد موم من وكالة الاستخبارات لفشله المتكرر فى القيام بأعمال التجسس . فقد أرسل الى موسكو من أجل معرفة نوايا الزعماء السوفيت بشأن الاشتراك فى الحرب ، هل هم ضد المانيا ، أم محايدون ؟ وعندما فشل موم فى هذه المهمة اختار أن يعود الى الاستخبارات فى كتاب أشبه بالسيرة الذاتية منه الى الرواية يحمل عنوان " آشندون . عميل سرى " . ومن المعروف أن موم لم يكتب روايات تجسس ، ولكنه كتب العديد من القصص القصيرة حول الجواسيس والعملاء السريين .

وقد اختار موم أن يعطى لبطله اسما مستعارا هو آشندون ، ولم يكن الكاتب يراه بطلا بالمرة . بل راح يهاجمه على الخط المستقيم ، وقد انعكس هذا المفهوم على العملاء السريين الذين ظهروا فى قصصه ، فأغلب شخصياته حائرة ، عليهم الامتثال لأوامر الوكالة ، والا كان جزاؤهم هو التصفية الجسدية أو القتل ، ومااالى ذلك من وسائل التصفية . وقد جعلت وجهة النظر هذه موم كاتبا محترما فى عيون الناس الذين لايميلون الى البشر من الجواسيس ، ويقال أن موم استطاع بذلك أن يكون القيم الفكرية التي يعزف عليها فى رواياته الآخرى ومن أهمها: " حد الموسى " ، " الدائرة " ، " عبودية الانسان " وغيرها .

يعتبر اريك امبلر أحد الروائيين الذين أعطوا لهذا النوع من الروايات أهمية كبيرة ، وكما يقول فردريك فورستيه فى مجلة " الاكسبريس " - ٥ يناير ١٩٨٤ - تحت عنوان " خلق آمبلر الجاسوسية " : أن التجسس كان قبل آمبلر مهمة قذرة ، وذلك منذ روايته الاولى " الحد المظلم " التى نشرها عام ١٩٣٦ ، أى وهو فى السابعة والعشرين من العمر ، كان آمبلر آسبق من شتاينبك فى تآليف الرواية التى يمكن أن تقرأ على أنها قصص منفصلة . وقد سبقته فى ذلك الروائية النيوزلندية كاثرين مانسفيلد ، واستفاد آمبلر من دراسته للعلوم فى الروايات الاثنتين والعشرين التى كتبها عن عالم الجاسوسية .

ويتحدث آمبلر الى مجلة الاكسبريس : " كنت أعمل فى وكالة نشر ، فآكتب نصوصا بالطلب ، كان عملا جادا . وقد لاحظت وأنا أكتب مذاكراتى أنني فهمت هذه المهنة خطأ ، باختصار ، ذات يوم ، أصبح لدىَّ مايكفى كى أكون كاتبا . كنت أود أن أصبح ساحرا ، وموسيقيا ، أو مؤلفا مسرحيا " .

ويقول فى نفس الحديث عن روايته الأولى : " كانت الحرب الاسبانية مشتعلة ، كان علينا أن نتخذ موقفا ، وقد بعت " الحد المظلم " مقابل ثلاثين جنيها استرلينيا ، مما أدهش ناقد جريدة الاوبزرفر دون أن يعرف أحد سبب دهشته .

ويرى آمبلر أن تلك السنوات قد شهدت ازدهاراً لرواية التجسس على يدىً لوكو وصابر، ولكن كان النقاد يتجاهلون هذه الروايات تماما ، الى أن استطاع بوشان من خلال روايته " المعطف الأخضر " أن يكسب هذا الأدب أهمية : " كنت اتعامل مع الجواسيس كشخصيات ثانوية ، ولم أكن أتصور أنني سأكتب رواية بطلها جاسوس " .

ويعترف الكاتب فى نفس الحوار المشار اليه أن هناك مرحلتين أدبيتين مر بهما . الأولى

بدأت في عام ١٩٣٦ واستمرت حتى ١٩٥١ . حين نشر روايته " محاكمة دلتشيف " والتى عندها بدأت مرحلة جديدة ، ويجى ذلك التقسيم من خلال انقلاب الكاتب على افكاره الاشتراكية ، وقيامه بمهاجمة الستالينية .

وبشكل عام ، فان آمبلر يهتم فى رواياته بالتأكيد على هوية الانسان ، مهما كانت وظيفته ، أو المهنة التى يعمل بها . فالجاسوس فى منظوره كائن بشرى عليه أن يعمل كى يعيش ، وهو عمل مشروع فى نظر الدولة ، بل أن البلاد تتعامل مع هؤلاء الموظفين الناجحين كأبطال " .

ففى روايته الأولى " الحد المظلم " يتحدث عن أحد العلماء ، يجد نفسه كأحد أبطال روايات التجسس فى بريطانيا ، متورطا فى مؤامرة تمولها أحدي المؤسسات الرأسمالية الدولية التى تتخذ من لندن قاعدة لها ، وهذه المنظمة تريد من العالم أن يصنع لها قنبلة تلقى فوق أوربا الوسطى . ويشير آمبلر أن حجة هذه المنظمة أن حاكم تلك الدولة المتخيلة ، طاغية . وهو أقرب الى مصاص دماء .

والجاسوس فى هذه الرواية هو شخص مجبر أن يمارس أحد أقدم المهن فى التاريخ . فالمنظمة تهدده بنقاط ضعف فى حياته وبافشاء أسراره ، ولذا فهو يثير رثاء القارىء بدلا من السخط ، ونفس هذا الاحساس يمكن للقارئ أن يشعر به أيضا فى روايته التالية : " الخطر المجهول " التى نشرها آمبلر عام ١٩٣٩ . فبطل هذه الرواية عميل سوفيتى ، وهو انسان لطيف لايعرف العجرفة ، حاضر النكتة يمارس مهنته كأنها عمل مسل ، وليس عليه أن يقتل أو يُسَيل دماء الآخرين ، بل عليه أن يعرف ، وأن ينقل مايعرفه الى الوكالة التى يعمل لمصلحتها .

وتعتبر روايته " قناع ديمتريوس " أحد أهم أعمال الكاتب فى الرواية التى تخصص فى تأليفها . وبطل هذه الرواية يدعى تشارلس لايتمر ، وهو أستاذ جامعى يقرر أن يهجر التعليم كى يصبح مؤلف روايات بوليسية على غرار آجاثا كريستى ، وفى آثناء رحلته الى استانبول يلتقى مصادفه برئيس وكالة الاستخبارات التركية ، وهو بدوره رجل شغوف بالروايات البوليسية التى يكتبها البريطانيون ، ويحكى له أنه عثر بالمصادفة على جثة قتيل ، ورجل مؤامرات اختفى منذ أمد طويل ، يعتقد أنه ألقى به فى البسفور ، وسرعان ماتنتاب " لايتمر" الرغبة فى أن يعيش قصة بوليسية حقيقية بدلا من القصص التي يقوم بتأليفها . فيبحث عن

ديمتريوس فى المدن التى كان يزورها . من أثينا الى صوفيا وبلجراد ، وجينيف وباريس ، ويكتشف أن ديمتريوس لم يكن قاتلا ، بل هو عميل سرى هارب من قتلة يريدون اللحاق به ، لانه خرج على نواميس وكالة الاستخبارات التى يعمل بها ، ويقرر الكاتب " لايتمر " أن يؤلف رواية عن هذه الاحداث التى عاشها . وهو يتساءل عن السبب الحقيقى الذى من أجله يتحارب البشر منذ أن هبط أبوهم آدم فوق سطح الارض . فالحرب هى المأساة التى تلاحق الانسان فى كل العصور ، ويفهم المؤلف أن البشر ربطوا مصائرهم دوما بالحرب وبالصراعات العامة بين الحكام والدول .

جدير بالذكر أن المخرج المعروف الفريد هيتشكوك قد أعجب كثيرا بهذا الرواية ، وراح يكتب لها مقدمة خاصة فى الطبعة الصادرة عام ١٩٤٥ . جاء فيها : " قال النقاد " عند بداية السيد آمبلر أنه قدم نوعا جديدا من الحياة ونظرة جديدة لفن رواية التجسس . فن مستخدم حتى حبل العنق كما يزعمون ، وهو فن بعيد عن الاكليشهات المتعارف عليها .

وهكذا ، بدا أبطال اريك آمبلر بأنهم لايتمتعون قط بسمات البطولة بل هم أشخاص مطحونون ، ويتسمون ببساطة . وهم ليسوا بالشخصيات الاجتماعية المرموقة ، وليست لهم جرأة خاصة فى مواجهة الاشياء ، انهم بشكل عام أشخاص عاديون يجدون أنفسهم متورطين فى مشاكل عديدة عليهم أن يتجاوزوها كى يعودوا الى حياتهم الطبيعية مرة آخرى .

أشرنا أن آمبلر قد مر بمرحلتين ، وأن رواية " محاكمة دلتشيف " كانت بمثابة الخط الفاصل بين مرحلتين ، فقد كتبها آمبلر بعد أن انتهت خدمته كضابط كبير فى الجيش طوال سنوات الحرب ، عمل كمدير للخدمات السينمائية فى الجيش البريطانى ، أي أن طبيعة عمله كانت تستدعى منه أن يعد أفلاما دعائية ، وفى الوقت الذى غرق فيه آمبلر فى اعداد هذا النوع من الافلام لاحظ أن صديقيه ايان فلمنج ، ونويل كوارد قد تفرغا لكتابة هذه الروايات ، ولذا تعتبر هذه المرحلة بمثابة تحول كامل لادبه ، وتتناول وقائع المحاكمة الزائفة التى تمت فى بلغاريا لرجل شيوعى من خلال اعترافات مراسل صحفى حضر المحاكمة : " لقد اعدت كتابة الرواية خمس مرات ، وفى نفس الوقت بدأت فى إهمال ثلاث روايات أخرى ، اعتقد أن العالم الذى استوحيت منه رواياتى الأولى قد تغيَّر تماما ، وعلّى أن أكتشفه من جديد .

وفى هذه المرحلة اهتم آمبلر بحكايات حقيقية وردت فى ملفات وكالات الاستخبارات ، وقد كان لبعض هذه الروايات علاقة بالصراع العربى الاسرائيلى . فقد كتب عن عملية هجوم

اسرائيلية بحرية فى رواية " ليفانتين " . وفى روايته " حذار من الزمن " المنشورة عام ١٩٩١ تناول فشل الامريكيين فى السيطرة على حرب الخليج من خلال أنشطة وكالة الاستخبارات الامريكية .

وفى بعض رواياته ، قدم آمبلر جاسوسا أطلق عليه اسم " اشندون " وهو الاسم المستعار الذى أطلقه سومرست موم على نفسه كجاسوس فى سيرته الذاتية ، وقد كتب الروائى البوليسى أنطونى بوشر فى جريدة نيويورك تايمز . مثلما جاء فى كتاب " رواية التجسس " ص ٣٨ أن " جراهام جرين لم يفعل أكثر مما فعل اريك آمبلر " مما جعل هذا النوع من الروايات مقبولا لدى الناس كأدب " .

يقول جابرييل فيرالدى فى كتابة " رواية التجسس " أن الأمريكيين لم ينمتبهوا الى أهمية آمبلر لأن جراهام جرين قد سرق منه الأضواء ، فأصبح جرين أحد الكتاب الأجانب الأكثر شعبية فى الولايات المتحدة ، وأنه الكاتب الحقيقى الذى يؤلف روايات بوليسية ، وروايات تجسس " .

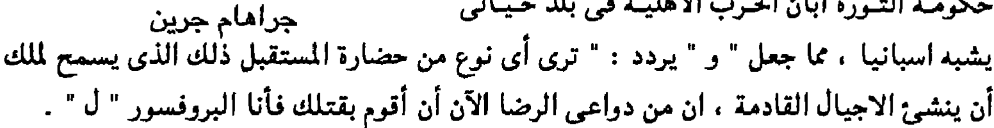
ولد جراهام جرين فى مدينة يوكها سنيدا فى ٢ أكتوبر عام ١٩٠٤ ، وكان أبوه ناظرا لمدرسة فى المدينة ، وهو يمت بوشائج قرابة للروائى البريطانى روبرت لويس ستيفنسون - مؤلف دكتور جيكل ومستر هايد - وقد بدت ميوله الى الكتابة منذ أن كان طالبا فى الكلية ، فقد التحق بالعمل فى مجلة " اكسفورد آوت لوك " ، ثم التحق بعد ذلك بصحيفة " توتنجهام جورنال " . وقد عمل جرين ، وهو لايزال شابا ، بمكتب الخدمات الخارجية التابع للاستخبارات البريطانية ، وهو ينتقل بين الكتابة الصحفية والابداع الادبى ، وأرسل فى مهمة سرية الى سيراليون فى الفترة بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٥ ، ثم رحل إلى أفريقيا ليعيش هناك لمدة عامين ، وقد كتب فيما بعد حول هذه التجربة رواية تحمل عنوان " لبّ المسألة " .

وقد نشر جرين روايته الأولى " العميل السرى " فى عام ١٩٣٩ والتى حاول فيها أن يعالج أحد موضوعات التجسس ، فا " السيد كان استاذا جامعيا ، وبينما هو يتلمس اجازة من الجامعة ، ويقوم مع زوجته برحلة الى دول أوروبا ، نشبت الحرب الأهلية ، وألقى به فى السجن الحربى لمدة ستة شهور ، وأعدمت زوجته رميا بالرصاص ، أما العميل السرى " ل " فهو يعمل عند " و " ويحاول الإيقاع به .

والجاسوس فى هذه الرواية شخص عادى وهو مجرد موظف لدى وكالة الاستخبارات ،

عليه أن يقوم بمهمة ، وهو يردد موجها كلامه الى احدى النساء : " يمكنك أن تفهمى أن المهمة الاساسية للانسان هو أن يسمو بالعمل المنوط به ، ان أنصار النظام الذى أدين به يرتكبون من الفظائع مايرتكبه غيرهم ، فما جدوى الانتقال من معسكر الى آخر ؟

وأسماء الاشخاص فى هذه الرواية بمثابة حروف . مثل " و " و " ل " ، هم مجرد أشباح يعيشون فى لهاث . لأن آخرين يقومون بمطاردتهم، فقد حصل الجاسوس " ل " على وظيفة جديدة فى حكومة الثورة ابان الحرب الأهلية فى بلد خيالى



جراهام جرين

يشبه اسبانيا ، مما جعل " و " يردد : " ترى أى نوع من حضارة المستقبل ذلك الذى يسمح لملك أن ينشئ الاجيال القادمة ، ان من دواعى الرضا الآن أن أقوم بقتلك فأنا البروفسور " ل " .

و " و " المتورط لبعض الوقت ، مثل الكثير من ابطال روايات التجسس فى عملية سرية عليه أن يعود مرة آخرى الى وظيفته كأستاذ جامعى . واستمرت حياته بعد ذلك عادية ، لكنه لاينسى أبدا تجربته مع الاستخبارات ، وهى نفس حالة الكاتب الذى عمل لفترة فى هذه الوكالات ، ثم عليه أن ينفصل عنها ، ويتفرغ للكتابة ، إما عن أنشطة هذه الوكالات أو عن تجاربه الانسانية العديدة .

وجراهام جرين هو أحد العملاء السريين الذين كانوا يكتبون من فترة لآخرى عن الجواسيس ، وعالم التجسس ، ورغم تعدد تجاربه ، وميله الى الرحيل ، واستقاء تجارب جديدة، فأنه لم يتوقف ، بين وقت لآخر ، فى كتابة روايات عن عالم التجسس حتى وفاته عام ١٩٩١ .

فقد ظل جرين يعمل فى خدمة وكالة الاستخبارات البريطانية عدة سنوات ، حيث أعيد تجنيده مرة آخرى فى عام ١٩٤١ ، وظل ملحقا بالعمل هناك طوال سنوات الحرب ، وكان معجبا بجاسوس يحمل اسما مستعارا هو " كيم فيلبي " ، وفى تلك السنوات نشر جرين روايته الرائعة " القوة والمجد " عام ١٩٤١ ، وفى عام ١٩٤٣ نشر رواية " وزارة الخوف "

التى تتناول موضوع الطابور الخامس ، ومدى مايمكن لاعضاء هذا الطابور من العملاء السريين أن يأتوا بالمعلومات لوكالات الاستخبارات وأغلب هذه الأعمال مترجم الى اللغة العربية .

ومن أشهر الروايات المعروفة لجرين فى التجسس هناك : " قطار الشرق " ، " و " هذه البندقية من أجل هير " و " عميلنا فى هافانا " ١٩٨٥ ، ثم " الدافع الإنسانى " عام ١٩٧٩ .

كما وجد جرين نفسه مع عمل يشابه مهام العملاء السريين طوال سنوات حياته ، فقد راح يسافر الى بلاد عديدة لحساب الصحف التى يعمل من أجلها . ففى عام ١٩٥١ ، مثلا ، سافر الى كينيا لحساب " صانداى تايمز " ، ثم سافر كمراسل حربى الى الهند الصينية أثناء الحرب الكورية فى أوائل الخمسينات لحساب ثلاث صحف فى نفس الوقت ، وفيما بعد سافر الى كوبا ، وبولندا والصين ، والاتحاد السوفيتي . كما سافر الى أمريكا اللاتينية عدة مرات ، ولم تكن هذه السفريات من أجل المتعة ، بل كانت بدافع العمل الشاق ، وكان يتعامل دوما بروح المغامر ، وعميل الاستخبارات السابق .

ويقول ابراهيم العريس فى مجلة " اليوم السابع - ٢٤ أغسطس ١٩٨٧ - : " أننا لو نقبنا بدقة فى أعمال جراهام جرين ، حتي رواياته الأكثر ترفيهية مثل التجسس أو الروايات البوليسية ، نجد أنه من الصعب على جراهام جرين فى أي عمل من أعماله أن يقف بوضوح ، واطلاق أى جانب من هذه الشخصية على حساب تلك ، حتى ولو كانت أولى الشخصتين تمثل الخير ، والثانية تمثل الشر المطلق ، فالكاتب أمام أعماله يرتبك فى اللحظات الحاسمة . ويعيش حيرته ، وذلك بالتحديد لأن جراهام لم يعرف أبدا كيف يحسم امره بين الشر والخير كما تتطلب منه كاثوليكيته ، ولعل هذا " الضياع " هو الذي جعل زميله الكاتب انطونى بيرجيس فى دراسة شهيرة عنه يصل الى حد الطلب بسحب الهوية الكاثوليكية منه ، فالبنسبة لبيرجيس يمكننا أن نقول عن جراهام جرين أنه الاقل كاثوليكية بين الكاثوليك .

وقد انتقل جرين بين الحبكة البوليسية فى رواياته مثل " الرجل الثالث " الى قصص الجاسوسية فى أعمال آخرى ، وتدور رواية الرجل الثالث " حول كاتب يذهب بعد الحرب الى مدينة فيينا من أجل اكتشاف سر زميله الذي مات فى ظروف غامضة أثناء الحرب ، وتبدو مدينة فيينا ممزقة من احتلال اربع دول كبرى هى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . وفى هذه الاجواء يعانى الأهالى من هذا الاحتلال الرباعى . مما يفتح الابواب لارتكاب جرائم الاتجار فى كل شئ حتى حياة الاطفال وأدميتهم .

ويدين الكاتب من خلال أسلوب الرواية البوليسية الدول المتعفنة ، فالدول كالأفراد ظاهرهم ثقافة وباطنهم ذمم ملتوية ، وضمائر ميتة ، ويصف جرين المدنية قائلا : " ياله من عالم غريب مجهول من معظم الناس ، ذلك العالم الذى يختفى تحت أقدامنا ، فنحن فى الواقع نعيش فوق اقليم بأسره من الكهوف والاقبية والمواسير الضخمة والتيارات السريعة ذات الضغط العالى . حيث هناك مد وجزر ، ويهبط كل هذا الي البحر .

ويتحدث فى روايته ، عميلنا فى هافانا " التى كتبها عام ١٩٥٨ عن تورط الاستخبارات البريطانية والأمريكية فى كوبا ، فهناك مراسل من الاستخبارات البريطانية يسافر الى الجبال الكوبية من أجل القيام بمهمة سرية ، ويفاجئ رؤساءه فى الوكالة أنه أرسل خريطة مزورة ومفتعلة ، ويرى جابرييل فيرالدى أن هذه الرواية بمثابة عمل عبثى يبعث على التسلية ، أما الآن بوكيه الناقد الفرنسي المعروف ، فقد كتب فى صحيفة لوفيجارو - ٤أبريل ١٩٩١ - أن هذه الرواية بمثابة " كتاب أمريكى هادئ جدا . ففى ذلك الكتاب أيضا بلغت العناصر البوليسية والعقد فى الجاسوسية مبلغا هائلا بحيث ينسى القارئ بسرعة أحداث القصة ، ولايبقى فى ذاكراته سوى احساس لذيذ بالاتهام الموجه لطريقة تصرف الامريكى ، التصرف الاخلاقى عند كل محنة والتفاؤل باصرار ، والعجرفة والثقة التى تصل الى حد اليقين بأن جميع الشعوب تعتبر الولايات المتحدة جنة تتوق الى تقليدها ، والوقوع بصفة دائمة فى الاخطاء غير المقصودة والجهل ، والسذاجة بسرعة لتصديق كل شئ ، والكرم فى غير محله . فما أراد جراهام جرين نقده هو معيار القيم الذى لم يتغير قط " .

ولم يقترب الكاتب من رواية التجسس ، الى أن عاد اليها مرة آخرى من خلال روايته " الدافع الانسانى " عام ١٩٧٩ ، وفى هذه المرة اختار جرين أن تدور الأحداث فى قلب مدينة لندن ، وفى مكتب وكالة الاستخبارات ، فهاهو الجاسوس كاستل قد عاد من مهمة فى جنوب أفريقيا بصحبة زوجته التى تزوجها هناك . انها امرأة سوداء . عانت الكثير من أمور التفرقة العنصرية فى بريتوريا ، لقد عاد كاستل كى يقيم بصفة نهائية فى ضاحية هادئة من لندن ، ويجد نفسه مطاردا من بعض الاشخاص الذين يلاحقونه فى طريقه ، أو التهديد فى هاتف منزله ، ويذهب يوميا الى احدي المكتبات كى يشترى رواية ضخمة تحمل عنوان " العلبة " ، أنه نفس عنوان المهمة التى وكلت اليه آخر مرة ، ففى جنوب أفريقيا عمل كاستل مع عميل آخر يدعى دافينز فى مكتب تجارى ، لقد ساعده دافينز فى تهريب زوجته الزنجية من البلاد

بمعاونة وكالة الاستخبارات السوفيتية .

كان السؤال المطروح بالنسبة لكاستل هو : هل يعتبر جاسوسا خائنا لانه تعامل مع وكالة الاستخبارات البريطانية ؟ . فقد اضطر كاستل أن يقدم للسوفييت مايفيدهم مقابل أن يساعدوه فى تهريب زوجته فى مغامرة جهنمية ، ويقول بيلار فى مجلة " لوبوان " - ١٨ سبتمبر ١٩٧٨ - " أؤكد أن كاستل مذنب " وخائن " وقد تعامل معه جراهام جرين بهذا المنطق، ففى حرب تعتمد على التقنيات والمعلومات ، على كل شخص أن يلعب بما لديه من أوراق ، مثلما يحدث فى مباريات البريدج ، فكاستل هو الوحيد فى الجواسيس ، الذى أدخل امورا ترتبط بالسلوك الاخلاقى وهو يتساءل عن الخير والشر ، وقد أصابه القلق وهو يعطى لنشاطه، بعداً انسانيا ، كما تعامل المؤلف معه بتعاطف ، وكذلك نحن . ليس لانه اختار المعسكر الطيب ضد الشرير ، فليس كاستل أول من القى نفسه فى أحضان الدولة الشيوعية ، ولكن لأنه أدخل مسألة العاطفة والأخلاق وأمور العدالة ، ورفض الضغط فى حياة يعيشها الآخرون على وتيرة واحدة تبعا لمسألة الخطر ، وعلى خلاف الآخرين ، فأن كاستل قد برهن أن الحب والخوف ، والحق يشكلون دائما ، عند جرين ، الشعور الأفضل الذى يجب التضحية به أمام القيم النسانية .

من المعروف أن جراهام جرين لم يتناول التجسس فقط فى رواياته بل فى العديد من كتبه الآخرى ، ففى أواخر الثمانينات نشر كتبا صغيرا .. حمل عنوان " التعرف على الجنرال" حول القائد الثورى البنمى عمر توريس الذى اغتيل على أيدى وكالة الاستخبارات الامريكية فى عام ١٩٨١ ، ويقول فردريك فورسايث أن " جرين يصنع روايات أشبه بحكايات الرسوم المتحركة ، فالأنسان إما أبيض أو أسود . شرير أو طيب ، بينما أشخاصه يتكلمون دائما عن الصراعات السياسية .

*****

هناك أدباء عديدون كتبوا روايات التجسس فى بريطانيا فى القرن العشرين مثل بيترشينى (١٨٩٦ - ١٩٥١) ، ومن نفس جيله هناك دينس ويتلى المولود فى عام ١٨٩٧، والذى تطوع فى الخدمة العسكرية فى عام ١٩١٤ ، وأصيب فى الحرب بجرح عميق . وفى عام ١٩٣١ باع محلا للنبيذ كانت تمتلكه اسرته من أجل التفرغ لتأليف الروايات الشعبية ، وفى عام ١٩٣٣ نشر روايته الأولى الأرض الممنوعة " التى تروى مهمة تجسس جماعية فى

الاتحاد السوفيتي . ورغم أن رواية التجسس لم تعرف كتابا غزيري الانتاج فى هذا النوع من الكتابة ، فان ويتلى كان ينشر رواية أو اثنتين كل عام . وقد اتسمت رواياته جميعها بتعصب سياسي واضح الفكر الغربي ، ولذا لم تبق أى من هذه الروايات فى أذهان الناس فترة طويلة ، عكس الروايات التى كتبها أقرانه ، وأضافوا على الجواسيس بعد انسانيا بعيدا عن الدعاية المباشرة.

ولم يكتب ويتلى فقط رواياته عن الجواسيس المعاصرين ، بل راح يؤكد روايات تدور احداثها فى قرون سابقة ، وكتب رواية عن ريشيليو الوزير الفرنسى الذى كان أحدى الشخصيات الشهيرة فى رواية " الفرسان الثلاثة " لالكسندر ديماس ، ومن رواياته حول هذه الحقبة " البارونات السود " .

كما كتب روايات عن التجسس فى المانيا ، ومن رواياته " أنهم يستخدمون القوى المظلمة "، وكشف فى أحدى هذه الروايات دور وكالة الاستخبارات البريطانية فى عملية انتحار أدولف هتلر ، اذن ، فـ : ويتلى " قد مزج السياسة بالتخيل ، بالواقع ، وقد اهتم بحكايات التجسس البريطانية ابان الحرب ، وكان يطلق أسماء ذات صبغة شعبية على هذه الروايات مثل " للشيطان ابنة " ، ، " هروب الشيطان " و " الصراع الغريب " وهى كما نرى نفس العناوين التى يهتم بها كتاب الرواية الشعبية منذ نشأتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولم يخرج ويتلى كثيرا عن حكايات النازية . ومعرفة أسرار القنابل الذرية واختطاف العلماء ، وهى موضوعات استهلكت بكثرة فى روايات التجسس .

ويقال أن أهمية ويتلى قد جاءت أنه أول من كتب روايات التجسس التى امتلأت بعشرات الصفحات من التفصيلات الجنسية الفاضحة . وقد لجأ الى الجنس فى كتبه الأخيرة بشكل لافت للنظر بعد أن أحس أن إيان فلمنج قد استطاع أن يحقق أعلى المبيعات من خلال التوليفة التي كان يصنعها فى حكاياته رغم أنه يعرف أن فلمنج لم يقترب كثيرا من الجنس لابنفس الصورة الخليعة التى صورها ويتلى بل بأقل منها بدرجات كبيرة .

*****

اخترنا أن نختم حديثنا عن الروائيين البريطانيين الذين يكتبون روايات التجسس . أن نلقى الضوء على فردريك فورسايث فهو أحد الذين تعاملوا مع الصراع العربى الاسرائيلى بشكل خاص فى بعض رواياته ، كما اثارت اعماله انتباه النقاد ، ويتحول بعضها الى أفلام

سينمائية ، ولفورسايث - المولود عام ١٩٣٨ مقدرة هائلة على إشاعة أجواء الغموض فى رواياته ، . وقد بدت هذه السمة فى روايته الأولى - " يوم أبن أوى " التى نشرها عام ١٩٧١.

وقد استوحى الكاتب أحداث هذه الرواية من واقعة حقيقية دارت فى فرنسا عام ١٩٦٣ ، حين قرر ثلاثة من وكلاء أحدى المؤسسات السرية اغتيال الجنرال ديجول بعد مقتل واحد منهم على ايدى القوات الفرنسية ، فارسلوا قاتلا محترفا الى باريس لاغتياله ، والجدير بالذكر أن هذه الرواية قد تحولت الى فيلم امريكى مشهور أخرجه فريد زينمان فى أوائل السبعينات . وقد حدث مع هذا الفيلم نفس ماحدث فى مصر عقب عرض الاجزاء الثلاثة من مسلسل "رأفت الهجان " حيث تبارت الصحف البريطانية والفرنسية فى الكشف عن حقيقة ابن أوى ، ونشرت جريدة ديلى اكسبريس فى عددها الصادر فى ٨ سبتمبر ١٩٧٣ تحت عنوان " ابن أوى الحقيقى " تحقيقا جاء فيه : نعم لقد حاولت أن أقتل ديجول لانني أكرهه ، لقد ضحى بكل شئ من أجل أن يشبع نهمه للسلطة . لقد كان العوبة فى أيدى الشيوعيين ، وهو من شدة غطرسته لايرى ذلك " .

والغريب أن هذا هو رأى نفس الكتاب الصهاينة الذين صدمهم وقوف الجنرال ديجول مع العرب عقب عدوان يونيه ١٩٦٧ ، وسنرى فى موقع آخر من حديثنا أن الكاتب الأمريكى الصهيونى ليون ايريس - صاحب رواية " الخروج " - قد حاول أن يفعل ذلك فى روايته "طوباز " .

قامت هذه المنظمة فى رواية " يوم ابن آوى " باختيار أحد القتلة المحترفين الانجليز الذين خدموا من قبل فى بعض البلدان الأفريقية واتفقوا معه على العملية التي سميت باسم "ابن آوى " وكان شرط القاتل الأوحد هو أن يكون صاحب التصرف المطلق حتى لايكتشف أحد خطوة من خطواته .

ويمكن لهذه الرواية أن تصنف تحت " أدب الخيال السياسي " أو الرواية البوليسية ، لكن الكاتب جعل مهمة مطاردة ابن أوي من مهام وكالة الاستخبارات فى فرنسا والولايات المتحدة من أجل حماية الجنرال ديجول ، وقد بدأ فى هذا الفيلم مدى الهوة الواسعة بين أفكار وكالات الاستخبارات ، وبين أفكار القاتل فلاشك أن لهذا الأخير هدفا مبررا من أجل اغتيال شخصية سياسية كبيرة مثل ديجول ، وهو مدفوع الى أن يعرض نفسه للاخطار مقابل تنفيذ

خطته . أما الاستخبارات فلم تحاول قط أن تعرف السبب . بل كان كل همها هو الايقاع به . وكيف تحمى الجنرال بأي ثمن . وفى رأىّ أن هذا هو القيمة الكبرى فى الرواية ، " فورسايت " يؤكد أن وكالات التجسس لاتسعى للتعرف على أفكار العالم من أجل فهمه ، ولكن لاسباب أخرى عديدة أهمها أن هذا هو هدف السلطة السياسية العليا ، وليس الجاسوس سوى أداة طيعة بين أيدى هذه الوكالة ، ليس عليه أن يفهم بل يتصرف كشخص آلى .

يقول فورسايث فى حديث طويل أجرته معه مجلة " لونوفيل اوبسرفاتور " - ٧ يناير ١٩٨٠ - كتبت " أبن أوى " لاننى كنت عاطلا عن العمل ، وقد رويت قصة تخيلتها بشكل غريزى ، وبأسلوب صحفى . وكى أكون شريفا ، فقد فكرت أنها قد تحقق مبيعات محددة ، ولكننى لم أتصور أنها يمكن ان تبيع ثمانية ملايين من النسخ .

"وبعد نشر الرواية ، عرفت من النقاد أن هناك حكاية حقيقية تشبهها . ولم أكن أصدق ذلك ".

وفى عام ١٩٧٢ نشر فورسايث روايته الثانية تحت عنوان " ملف اوديسا " وفى هذه الرواية كشف المؤلف عن تعاطفه مع الشعب اليهودى ، تدور أحداث الرواية حول صحفى المانى استطاع أن يحصل على سبق صحفى هام ، وهو نسخة من مسودة كتاب ليهودى عجوز دوّن مذكراته قبل أن ينتحر فى معسكرات الاعتقال . والمذكرات بمثابة يوميات اقرب الى يوميات الطفلة اليهودية المعروفة " آن فرانك " فقد عاش هذا العجوز داخل معسكرات الاعتقال وعانى كثيراً من قائد المعسكر روشان الذى قتل ، حسبما تقول الرواية ، ستين الف يهودى ، منهم زوجة صاحب هذه المذكرات ، وبعد ان انتهت الحرب بعشرين عاما ، حدث أن التقى به فى دار الاوبرا ، وعلى الفور قام بتبليغ رجال الشرطة ، وصدم عندما تعاملت الشرطة مع الامر بسلبية شديدة ، ولم يحتمل العجوز هذا الامر فانتحر .

وتصدم هذه المذكرات الصحفى الذى قرر أن يسلم المذكرات الى وكالة الاستخبارات الاسرائيلية (الموساد) التى تتولى مطاردة روشان والقبض عليه ومحاكمته . ويحكى فورسايث أن الموساد لم تتأخر فى أن ترسل عملاءها لمطاردة النازى السابق ، ويكشف مدى مهارتها فى معرفة مكان رجل فقدت أثاره منذ أعوام بعيدة حتى تتمكن فى النهاية من اصطياده ، والذهاب به الى اسرائيل .

وقد جمع المؤلف فى هذه الرواية بين الواقع والخيال ، مثلما حدث فى روايته الاولى .

فملفات الأودسا هى بالفعل مذكرات كتبها أحد اليهود الذي كانوا فى معسكرات الاعتقال ، وقامت شهرته على مارآه وعايشه هناك ودونه فى يومياته . أما الجزء التخيلى من الرواية فهو يتعلق بهذا الصحفى الامريكي الذى اختار أن يتعاون مع الاستخبارات الاسرائيلية ، ولم يشأ قط أن يخبر استخبارات بلاده بريطانيا بشئ عنها باعتبار أن الأمر لايهمها .

وقد استقى فورسايث أحداث هذه الرواية من الفترة التى كان يعمل فيها مراسلا صحفيا فى برلين الشرقية : " كنت وحدى فى المكتب أصنع القهوة وأقوم بالكتابة ، على مقربة امتار من جدار برلين وارى البائسات يريدن العبور كل ليلة . وعندما لاينجحن ، فأن جزاءهن هو الموت برصاصات الجنود الالمان . لقد تعرفت على الالمانيين الشرقيين هناك . واكتشفت أن البولنديين يكرهون الروس . وهؤلاء يكرهون التشيك الذين يكرهون الالمان الشرقيين وهؤلاء بدورهم يزدرون العالم .

وفى هذا الحديث الذى ادلى به فورسايث لمجلة " لونوفيل اويسرفاتور " - ٧ يناير ١٩٨٠ - كشف الكاتب مدى تعاونه مع الموساد : " على أن أحكى عمن ارسلوا رسائل مفخخة للعلماء النازيين الذين كانوا يصنعون الصواريخ لجمال عبد الناصر .

والجدير بالذكر أن فورسايث قد أرسلته وكالة الاستخبارات البريطانية الى افريقيا ليعمل مراسلا للإذاعة البريطانية لعدة سنوات فعاش بين نيجريا واقليم بيافرا وغينيا ، وقد استقى من هذه الرحلة وقائع رواية " كلاب الحرب " المنشورة عام ١٩٧٤ . حول الصراعات بين وكالات الاستخبارات المختلفة فى افريقيا ، ودور المرتزقة فى الصراعات الاقليمية بالقارة السوداء .

وتوقف فورسايث عن الكتابة ست سنوات عاد بعدها عام ١٩٨٠ ليقدم رواية متخيلة عن أسرار الكرملين تحت عنوان " بديل الشيطان " مؤكدا أنه ليس أمام الاتحاد السوفيتي من حل سوى أن يشارك الغرب أيدولوجيته . وتدور أحداث هذه الرواية فى عام ١٩٨٢ . أى بعد زمن كتابتها بعامين . وهى تنتمى الى أدب الخيال السياسى ، حيث تخيل أن سياسة الاتحاد السوفيتى آنذاك يمكن أن تقود العالم الى حرب عالمية ثالثة .

ويبدو أن ماتمناه فورسايث قد حدث ، فسرعان ماقامت البيروستركيا بل تفكك الاتحاد السوفيتي ، وقامت دويلات صغيرة في المنطقة ، وأصبحت روسيا حليفا مؤقتا للغرب ، ودفع الكاتب كثيرا مقابل هذا التغير الذى نادى به ، فما أن حدث ذلك حتى لم يجد مايكتب عنه ،

بعد أن قامت معاهدات سلام فى الشرق الاوسط وخفت الحروب الباردة بين الشرق والغرب ، ولذا فان فورسايث توقف عن الكتابة بعد روايته " المفاوض " المنشورة عام ١٩٨٩ . وفيها غير من رؤيته للصراع السابق . وهى رواية تنتمى الى الخيال السياسى منها الى رواية التجسس . فهو يتصور أن هناك قوى سياسية معارضة لجورباتشوف تحاول الاطاحة به فى وقت أصبحت العلاقة بالغة القوة بين القطبين العظميين ، وذات يوم يقوم الرئيس الامريكى بارسال ابنه الى الاتحاد السوفيتى . وهنا تحاول القوى المناهضة لجورباتشوف أن تغتال ابن الرئيس من أجل احراج الاتحاد السوفيتي امام حليفتها الجديدة " الولايات المتحدة " .

سبق أن أشرنا أن الكتاب البريطانيين الذين استفادوا من شعبية رواية التجسس قد ارتفع عددهم بشكل ملحوظ ، وكان ذلك على حساب جودة هذه الروايات ، ولاشك أن هذا ساعد على تهميش هذا النوع الأدبى مثلما حدث مع الرواية البوليسية . وقد جاء فى الكتاب الذى اعده جابريل فيرالدى أن قائمة الكتاب البريطانيين الذين استفادوا من شعبية رواية التجسس قد ارتفع عددهم بشكل ملحوظ ، وكان ذلك على حساب جودة هذه الروايات ، ولاشك أن هذا ساعد على تهميش هذا النوع الادبي مثلما حدث مع الرواية البوليسية . وقد جاء فى الكتاب الذى أعده جابريل فيرالدى أن قائمة الكتاب البريطانيين الذين يكتبون هذا النوع من الرواية تضم مائة شخص على الأقل .

وقد ذكرنا هنا بعض النماذج الشهيرة من هؤلاء الكتاب ، لانه لايمكن أن نرصد كل الكتاب الذين أسهموا فى هذا النوع من الروايات ، ولانه يجب أن نفرد مساحة للتعرف على روائيين من بلاد أخرى مثل الولايات المتحدة ، وفرنسا ، وروسيا ولكن لايمكن أن نكتب عن هذا الابداع البريطانى دون الوقوف عند كاتب من طراز " لين دايتون " . فهو الوحيد الذي حاول أن ينافس مواطنه ايان فلمنج ، فصنع جاسوسا على غراره يسمى هارى بالمر .

دايتون من مواليد عام ١٩٢٩ ، وهو ابن لسائق سيارة مدرسية ، كما عمل بالسكك الحديدية . درس الفن ، وخاصة الحفر على الجرافيك . ثم مالبث أن تحول الى الكتابة ، وقد بهره عالم الجواسيس . لكنه اكتشف أن هؤلاء الجواسيس متشابهون فى كل الروايات : كل الناس فى الروايات التي قرأتها يقولون الحقيقة دوما للقراء . يبدون كأنهم لم يقترفوا خطأ ذات يوم ، ولذا قررت أن أكتب حكاية شخص يكذب دائما على كل الناس . ولاشك أن كذباته تخدم أهدافه . لقد ارتكب مثل هذه الاخطاء كى يتصرف دائما على أنه شخص يؤمن

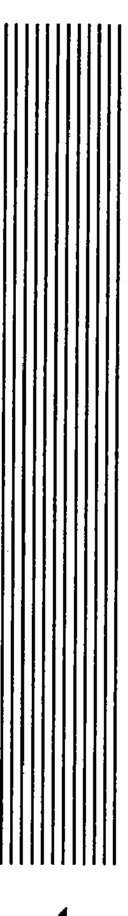
أن مايقوله يجعله غبيا ، أن له عوينات . وكرش . ولايتمتع بأي جاذبية جنسية .

وهذا الشخص لااسم له ، ولكن الناس اطلقوا عليه هاري بالمر عند تحويل روايات الكاتب الى افلام سينمائية لمنافسة افلام جيمس بوند . وقام بتجسيدها الممثل مايكل كين . من هذه الروايات " ملف ايبكرس : و " جنازتي في برلين " عام ١٩٦٤ . و " مخ بمليون دولار " (١٩٦٦) و " مكان غال للموت " عام ١٩٦٧ ، روايات اخرى منها " النازيون يحتلون بريطانيا " عام ١٩٧٨ . ثم تتابعت اعماله في الثمانينات والتسعينات منها " اصلاح جاسوس " عام ١٩٨٤ و " فانتازيا جاسوس" و" اختفاء جاسوس " عام ١٩٩٤ .

وقد اختلف شكل الجاسوس في روايات دايتون عن الصورة التي رآها الناس في السينما ، فهو لايحترم السلطات العليا كما أنه شخص فوضوي ، يعيش وحيدا : " انه بالغ الوحدة ، وبالغ العبثية مثلي " .

وفي ثلاثيته الاخيرة ، يتنبأ الكاتب بما حدث فعلا في العالم حيث رأى أن عصر الجواسيس سوف ينتهي الى الابد . وقد غير الكاتب بطله ، فأطلق عليه اسما هو برنارشمشون الذي ليس عليه مناضلة الاعداء . فما أسهل هذا الأمر ، ولكن مناهضة المؤسسات التي يعمل فيها ليست سهلة . فهذه الوكالات تفقد العاملين فيها هويتهم ويبدون كالموتى الاحياء . وهكذا فأننا أمام تغير واضح في موضوعات هذا النوع من الروايات ، ولاشك أن مثل هذه التحول قد ساعد في نقل الكثير من روايات النوع من الهامش الى الاضواء .





☆الفصل الرابع☆



اسمى بوند .. جيمس بوند

الفصل الرابع

اسمي بوند .. جيمس بوند

جيمس بوند ، هو الشخصية الشهيرة التى أعطت لروايات التجسس كل هذه الشهرة التى حظيت بها لأكثر من ثلاثين عاما . وقد أكسبت هذه الرواية شرعيتها ، وهويتها التى عرفت فيما بعد ، بعد أن حققت كل هذه الشعبية العالمية من خلال مجموعة الأفلام التى اقتبست عن روايات ايان فلمنج ، وغيرها .

وفى عالم الروايات لاتأتى أهمية جيمس بوند فقط من تفرده بمجموعة من الصفات الخارقة التى عرفت عنه ، ولكن لأن الكاتب فلمنج جعل فى كل رواية من أعماله القليلة العدد شخصية مشتركة ، يتكرر ظهورها من عمل لآخر ، وأعطاها رقما يتسمى به في الملفات هو " ٠٠٧ " .

ومؤلف هذه الروايات هو ايان لانكستر فلمنج الذى ولد فى ٢٨ مايو عام ١٩٠٨ لأب يعمل ضابطا فى الجيش ، تلقى تعليمه فى ايتون ، ثم قضى عامين فى الكلية العسكرية ، لكنه استقال من الخدمة عام ١٩٢٧ ، وسافر الى جنيف ، وقد تمتع فلمنج من بداية حياته بروح المغامرة ، عمل صحفيا وهو لايزال صغير السن ، وساهم فى انشاء بنك انجلترا قبل الحرب العالمية الثانية . وذلك بناء على قرار من محافظ بنك انجلترا الرسمى ، وأثناء الحرب عمل مساعدا شخصيا للاميرال جود فرى ، مدير الاستخبارات البحرية البريطانية ، وقد تعلم كيف يكون كتوما من خلال ما تمليه هذه الوظيفة الحساسة ، كما عرف الكثير عن الوثائق السرية البريطانية ، وسعى الى الاستفادة من القانون الذى يسمح بفض هذه الوثائق بعد مرور ثلاثين عاما من تحريرها ، ولانه عرف وشاهد الكثير من الأشياء التى عليه الا يتكلم عنها قط ، فقد ود أن يفصح عنها بطريقة أخرى من خلال تأليف الروايات .

ويقال أن رواية « الاصبع الذهبى » جولد فنجر - مأخوذة عن حادثة حقيقة لم يكشف عنها النقاب ، حين حاول أحد المجانين أن يسرق احتياطى الذهب الامريكى من بنك « فورت نوكس » فى عام ١٩٤١ ، ولذا لم تكن روايته من محض الخيال كما يعتقد البعض ، بل كان فى أكثرها خيط من الحقيقة ، ولذا سنحاول أن نركز على واحدة من هذه الروايات .

عاد فلمنج الى الصحافةمرة أخرى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وقد كان معجبا بالروائيين الذين يكتبون الرواية البوليسية ، فراح يعقد حوارات صحفية مع داشيل هاميت ، ورايموند شاندلر ، وتعلم كثيرا من الاحتكاك بهما : « كنت أحس كأننى صبى عليه أن يتعلم ممن حوله » .

وقد استفاد من الصحافة ، والتجسس حين أخذ يدون كل شئ يعرفه ، أو يقراء عنه فبدا معجبا بشخصية المفتش مارلو الذى يظهر فى أغلب أعمال شاندلر ، وتمنى أن يؤلف روايات على نفس النمط ، والملاحظ أن هناك تقاربا واضاحا بين بوند ومارلو . فكلاهما يتمتع بحيوية خاصة ، ويعيش وحيدا منتظرا دائما أن يطرق بابه شخص كى يوكل اليه مهمه جديدة.

وقد نشر فى جريدة « عمان » - ١٩ فبراير ١٩٨٦ - أن فلمنج ابتدع شخصية جيمس بوند من خلال جاسوس حقيقى عرفه فى عام ١٩٣٨ وهذا الجاسوس يدعى ايفار برايس ، وأنه بالفعل كان يحمل رقم « ٠٠٧ » ، وذكرت الجريدة أن ايفار عرض على فلمنج أن يعمل جاسوسا معه فى استخبارات البحرية البريطانية ، . وقد بدأت مغامرات ايفار حين تعرف على وزير المالية النازى الدكتور شافت ، ثم العديد من الشخصيات النازية ، وعرف كيف يخترق أسرارها ، ويحصل على معلومات منها لحساب الاستخبارات البريطانية .

وأغلب الظن أن هذا الخبر غير صحيح ، فحول هذه القصة لم يرد أي شئ فى الكتاب الذى أعده جون بيروسون حول ايان فلمنج ، وفى ٢٦ فبراير ١٩٧٢ نشرت جريدة الجمهورية القاهرية أن فلمنج استمد روايات جيمس بوند من حياة الجاسوس اليوغسلافى داسك بابان الذي التقاه خلال الحرب العالمية الثانية ، وقد تزامل الاثنان لفترة طويلة . وأحس فلمنج بمدى تفوق داسك عليه .

ولكن الثابت أن فلمنج استغرق وقتا طويلا قبل أن يكتب كلمة واحدة من أول رواية تجسس ، ويقول جابرييل فيرالدى - فى صفحة ٥٤ من كتاب « رواية التجسس » - أن فلمنج كان فى حاجة أن يبتعد عن التوتر العصبى الذى لحق به بعد فشله فى زواج انتهى



ايان فلمـــنج

بفضيحة دوت فى بريطانيا كلها . فقرر أن يكتب عن رجل يتسم بسمات خارقة ، لايغش الا قليلا ، وأطلق عليه اسم جيمس بوند ، وكتب رواية «الكازينو الملكى » ولم يجرؤ على نشرها . فقد تضمنت الرواية الكثير من الأسرار التى لم يكن يسمح بنشرها فى ذلك الحين . لذا فكر فى أن يوقعها تحت اسم مستعار . ثم توصل الى حل أمثل فقرر السفر الى جاميكا وأن ينشرها باسمه الحقيقى . وقوبلت الرواية باستحسان حين نشرها لأول مرة عام ١٩٥٣ .

ويقول مجدى نصيف فى مجلة « الدوحة » - أكتوبر ١٩٨٣ - أن الناقد دافيد كاندين قد لاحظ أن الرواية الأولى ظهرت بينما احتفالات تتويج الملكة اليزابيث ، وملكة بريطانيا تعيد التأكيد ، دون اقناع ، على استمرارية بريطانيا كقوة عظمى عالية مؤثرة فى مسرح الأحداث الدولية ، أما آخر رواية نشرت لايان فلمنج وهى « الرجل ذو المسدس الذهبى » عام ١٩٦٥ ، فقد ظهرت فى نفس الوقت الذى أقيمت فيه جنازة ونستون تشرشل ، التى عزف فيها البريطانيون لحن الوداع الأخير للامبراطورية البريطانية التى لم تكن الشمس تغرب عن أراضيها » .

أتخذ فلمنج من جاميكا مقرا له ليستقر هناك شهرين كل عام ، ليكتب رواية جديدة ، فنشر روايته الثانية « عش ، ودع الآخرين يموتون » عام ١٩٥٤ ، ثم « سارق القمر » عام

١٩٥٥ ، و« ماس الى الأبد » عام ١٩٥٦ ، و « تحيات من روسيا » عام ١٩٥٧ .

ومع كل رواية جديدة كان فلمنج يحقق المزيد من النجاح ، فقد باعت روايته « تحيا
من روسيا » ، حين نشرت لأول مرة ، نصف مليون نسخة ، وسرعان ماقامت صحيفة « الديل
اكسبريس » بتحويل هذه الرواية الى مسلسل يومى فى صورة حكايات مرسومة ، حيث ك
بوند - مجلة الدوحة أكتوبر ١٩٨٣ - فى مواجهة جهاز الجاسوسية السوفيتى « سميرش »
فقد كان بوند الخمسينات موظفا أساسا كبطل سياسى للطبقات الوسطى الصغيرة ، وكشخص
يمثل عصر الحرب الباردة . فقد جسد فضائل الفردية الغربية ، حيث يخرج منتصرا بلا مجهو
على اليد الثقيلة للبيروقراطية الشرقية . لقد جاءت هذه الرواية بعد هزيمة السويس الت
أخرجت بريطانيا من آخر وأهم معاقلها الامبراطورية . وبذلك فان جيمس بوند قدم في ه
الرواية رغبة دفينة لأن تعود بريطانيا لمجدها القومى .. كان هدف جيمس بوند هو دفع اذ
التهديد للسلام العالمى بمفرده .

وقد تتابعت روايات ايان فلمنج والتى منها أيضا « الاصبع الذهبى » و«الدكتور نو »
«كرة الرعد » ١٩٦١ ، و«أنت تعيش مرتين فقط » ١٩٦٤ . كما نشر مجموعة من القصص
القصيرة فى عام ١٩٦٣ . وكتب رواية للاطفال فى عام ١٩٦٤ تحت عنوان « شيتى . شيت
. بانج بانج » ، وقد مات فلمنج فى ١٢ أغسطس في نفس السنة .

وحول حياته يقول جون بيرسون فى كتابه عن سيرة الكاتب بأنه كان يشعر دائم
بالحرمان من شئ ما . وقد بدأ فلمنج ، بعد نجاح قصصه ، يسلك سلوكا مشابها لبوند . فكا
يشرب مثله سبعين سيجارة يوميا . وكان يقود السيارة بسرعة تصل الى ١٥٠ كم فى السا
كما كان يتزلج على جليد جبال الالب بسرعة غريبة ، مثلما فعل بوند فى روايته « فى خد
استخبارات صاحبة الجلالة » . ويبدو أن فلمنج قد آمن بجملة جاءت على لسان بوند فى احد
رواياته : «قبل أن يموت المغامر يبتسم له الحظ فجأة ، ويظهر عليه المرح والثراء والشباب .
يضرب القدر ضربته ». وقد مات فلمنج بسكتة قلبية وهو فى السادسة والخمسين من العمر
وعند رحيله لم يكن قد عرض سوى ثلاثة أفلام من رواياته هى « الدكتور نو » « تحيات م
روسيا » » و « الاصبع الذهبى» ، وكان مايمثله بوند حسب مجلة الدوحة - فى مجالا
التغيير الثقافى والفكرى ، قد ترسخ وتوحد ، وكانت شخصية جيمس بوند كبطل شعبى تنس
بين سلاسل من القضايا المغلقة فكريا ، والاهتمامات الثقافية التى تدور حول الوطن والأ

والعلاقات بين الشرق والغرب ، والتغيير فى نمط العلاقات بين الجنسين .

أصبحت موضوعات وحكايات وروايات فلمنج معروفة من خلال الافلام السينمائية وتغير الكثير من أحداث هذه الروايات خاصة فى الافلام التى تم انتاجها بعد عام ١٩٦٨ . ففى بداية الامر كان هناك تقارب واضح بين الروايات والأفلام مثلما حدث فى « الدكتور نو » ، و « تحيات من روسيا » . فقد جعل السينمائيون من بوند جاسوسا يحارب عصابة الشبح الدولية التى تريد السيطرة على العالم من خلال أسلحتها النووية أو امتلاك قواعد الفضاء . وعلى سبيل المثال فان فيلم «الجاسوسة التى أحبتنى» ليس من تأليف فلمنج ، بل هو مأخوذ عن عنوان قصة قصيرة كتبها فلمنج ، وقد تولى اثنان من كتاب السيناريو تأليف موضوع مختلف تماما عن النص الذى كتبه فلمنج تحت عنوان « الجاسوسة التى أحبتنى » ، وهذا نموذج لما تم من تغيرات واضافات على روايات فلمنج .

وليست هناك علاقة قط بين رواية « عش ودع الآخرين يموتون » وبين الفيلم الذى أنتجته هوليوود فى عام ١٩٧٣ سوى اسم المجرم الزنجى كاتنجا . ففى مقدمة الرواية يقول المؤلف : كثيرا ماتمر بالعميل السرى أوقات يعيش فيها عيشة مترفة . فهناك مهام يطلب اليه أن يؤديها ، ويلعب فيها دور الرجل الثرى الفاحش الثراء وهناك مناسبات يكفى فيها أن يعيش عيشة رغدة ، يعرض فيها نفسه للخطر ويداعب الموت ، وهناك أوقات يكون فيها ، كما هو الحال فى روايتنا ، ضيفا على هيئة استخبارات الحلفاء .

ويقصد فلمنج استخبارات الحلفاء بالطبع وكالات الاستخبارات الامريكية CIA ، فبوند فى هذه الرواية يسافر الى الولايات المتحدة ويتعاون مع العميل الامريكي لايتر ، الذى سيظهر بعد ذلك فى رواية « الدكتور نو » وبكل ذكاء يقعد فلمنج عميل الاستخبارات الامريكى عن العمل . ويترك المغامرة لبوند وحده ، فلايتر يتعرض لعملية تعذيب شديدة على أيدى رجال كاتنجا حيث يمزقون له ضلوعه « لقد مثلوا بالمسكين شر تمثيل ، فبتروا له ذراعه وساقه اليسرى ، أما الوجه ففى حال يرثى له ، ولست أدرى أى بشاعة أقدموا عليها . لايمكن أن يتأتى بهذا العمل الا حيوان شرس أو سمكة قرش . لقد مزقوه شر تمزيق » .

في هذه الرواية يشير فلمنج أن خصم بوند هو المنظمة الروسية الخطيرة التى تديرها هيئة سميرش ، وهى المنظمة التى ظهرت فى رواية «الدكتور نو » و «أنت تعيش مرتين فقط» و «تحيات من روسيا » وعندما تحولت الى أفلام تغير اسمها الى عصابة الشبح .

وفى « عش ودع الآخرين يموتون » يبتعد فلمنج عن هذه المنظمة ، ويطارد رجلا يشك في حد ذاته مؤسسة اجرامية ، فقد تم العثور على كنز القرصان مورجان الذى عاش فى القر السابع عشر . وهذا الكنز فى منظور الغرب لو تسرب الى السوق الامريكى لاستطاع أن يه الاقتصاد الامريكى مثلما يردد فى رواية أخرى للكاتب فلمنج . فى هذه الرواية ، يرس الكاتب عميله بوند من أجل انقاذ الاقتصاد الامريكى : لو أرادت الاستخبارات الدولية أ تعلن أن هذه العملات متاع مسروق ، ووضعت الامر بين أيدى الشرطة . فان المصدر الذ يغذى البلاد بها سوف يغير نشاطه فى الحال . وقد تصهر فى سبائك ذهبية وتعرض ف الصاغة ، وتفقد فى الحال ندرتها كعملات تاريخية ثمينة .

وفى هذه الرواية ، مثلما فى أغلب روايات فلمنج ، هناك مجرم عتيد يمثل مؤسس اجرامية شرسة ليس من السهل التغلب عليها ، ولكن نقطة الضعف لدى هذا المجرم هو امر تعمل فى مؤسسة ما ان ترتبط ببوند عاطفيا وحسيا ، حتى تتولى مساعدته ، وتحميه وتتولى الدفاع عنه ، وتمده بالكثير من المعلومات . هذه المرأة ، مثلا تدعى سوليتر فى روا « عش ودع الآخرين يموتون » ، وهى إمرأة بيضاء وقعت بين يدى العملاق الاسود وتحاو الفكاك منه . فيجئ بوند لينقذها ويستفيد منها . وهذه الفتاة كما يصورها الكاتب ، أشب بالحمل الذى يعيش بين براثن ذئب . « أنا بطبيعتى ذئب وأعيش بموجب قانون الذئاب » .

أما هذه الفتاة فلابد أن تكون جميلة ، بل أجمل فتاة فى خليج القرش ، وفى النها لابد لبوند أن ينال لحظات حب دافئة مع الفتاة ، بعد أن يتخلص من الدكتور كاتنجا ف معركة بالغة الاثارة ، وكأن هذه اللحظات مكافأة في المقام الأول للفتاة على ماقدم للجاسوس من خدمات .

وفى رواية «فى خدمة استخبارات صاحبة الجلالة » يبدو بوند رجلا بالغ البساطة . فه يحب مريضة نفسيا نتيجة لزيجة فاشلة فى حياتها . وعندما يرتبط بها يفاجئ أن أباه ه المجرم ماركو الذى يبحث عنه ، الا أن هذا الرجل يبدو مجرما رقيقا . فيطلب من بوند أ يساعده فى التخلص من المجرم بلوفيلد ، يردد ماركو ، على سبيل المثال ، عندما يلتقى ببون للمرة الأولى : « انا أعرفك جيدا . فأنت جيمس بوند ، رجل مهم فى الاستخبارات البريطاني ، أما أنا فأعمل فى المعسكر الآخر ، ضدك ».

وفى هذا اللقاء يحس بوند كم أن هذا الرجل الذى من المعسكر الآخر ، حزين وبائس فه



چيمس بوند السبعينات

إنسان يجمع بين الخير والشر معا ، وهو يتوسل الى بوند بضعف : هل لك أن تساعدنى فى انقاذها ، فأنت أملها الوحيد ؟ .

والمرأة فى هذه الرواية ضحية أيضا ، لكنها أكثر بؤسا من كل النساء فى روايات جيمس بوند . ويردد عنها قائلا : « منذ ولادتها وابنتي متوحشة مثل أمها . فشلت تماما فى تأديبها ، ومع ذلك كانت تريسى تكره نفسها لأنها تشبه أمها » .

ورغم هذا ، فان ماركو ، وتريسى لم يشتركا فى مغامرة بوند الرئيسية التى ذهب من أجلها الى جبال الالب السويسرية من أجل الايقاع بالمجرم بلوفيلد الذى ينتمى الى عصابة «سميرش » وبلوفيلد هذا يقيم فى قلعة حصينة فوق جبال الالب ، وهى أشبه بالقلاع التى تظهر فى أغلب روايات فلمنج . مثل قاعدة « كراب كى » فى رواية « الدكتور نو » ، ومثل قاعدة الدكتور كاتنجا فى « عش ودع الآخرين يموتون » وعلى بوند أن يدخل هذه القلعة بأسلوبه فهو إما أن يختفى تحت اسم مستعار ، أو يتم اقتياده عنوة بعد أن يكتشف أمره ،

ويؤكد فلمنج فى كل هذه الروايات أن بوند يحارب عصابة . ويحاول أن يبتعد عن السياسة قدر الامكان . فرغم أن سميرش عصابة روسية ، الا أن بوند يحارب بلوفيلد كشخص له جرائمه فى المقام الأول . فلمنج فى هذه الرواية ، مثلا يحاول أن ينتسب الى أسرة عريقة وأن يحمل لقب « الكونت » ويعود الى القلعة ، تحت ادعاء إنه من مصلحة السجلات المدنية والانساب .

وبلوفيلد محاط دوما برجال ، وأيضا نساء ، من محترفى القتل ، وعليه أن يستخدم ذكاءه للتصرف فى المواقف المختلفة ، وعلى سبيل المثال فهو يصعد الى الحصن دون أن تكون معه أسلحة يدافع بها عن نفسه عند الضرورة .

وتدور أغلب أحداث الرواية فى تلك القلعة الحصينة فى أعالى الجبال الجليدية ، حيث يحاول بوند فك أسرارها الغامضة ، فالحصن ملئ بالعديد من الفتيات الجميلات جميعهن مرضى ، وليست لهن أسماء ، ويأكلن الطعام بشراهة عجيبة .

وقد تعمدنا أن نسوق بعض تفصيلات هذه الرواية كى نكشف أن بعض روايات ايان فلمنج يمكن أن تنتمى الى الرواية البوليسية أكثر من انتمائها الى نوع التجسس ، فلو خلعنا عن جيمس بوند ، فى هاتين الروايتين ، صفته كعميل لمؤسسة الاستخبارات البريطانية ، لوجدنا أنفسنا أمام رواية بوليسية عادية ، فما قام به هنا يمكن أن يقوم به أى مفتش خاص فى أى رواية من هذا النوع ، وأن كان ماقام به قد يدخل فى صميم عمل المباحث .. إلا أن ماحدث فى رواية « الآصبع الذهبى » هو من صميم عمل الاستخبارات ، لانه يدخل فى اطار الأمن القومى ، وما إلى ذلك ، وكثيرا مااستخدم فلمنج لفظى « عصابة » و « مجرم » للتأكيد على الجهة التى يقال بوند من أجل اسقاطها . وقد بدت هذه السمة واضحة فى أولى روايات فلمنج « الكازينو الملكى » . باعتبار أننا أمام جاسوس كهل ، وليس شابا كما نتصور ، وعليه أن يكتشف مايجرى فى أحدى صالات القمار بغش الاوراق وهذه عملية بوليسية أكثر منها من صميم الجاسوسية .

اذن فنحن أمام روايات بوليسية فى المقام الأول ، قبل أن تكون روايات تجسس ، ولكننا لانجزم أن كل روايات فلمنج تحمل نفس المنظور ، بل أن هناك الكثير منها يدخل ضمن عمل وكالات الاستخبارات .

ويهمنا أن نقول أن جيمس بوند الذى ينتمى الى الخمسينات وهو تاريخ تأليف الروايات والى الاربعينات ، وهو تاريخ حوادث بعض هذه الروايات قد ارتدى فى السينما اقنعة مختلفة تماما . فهو رجل أكثر معاصرة ومرتبط بالمشاكل السياسية العالمية . وقد نجحت السينما فى أن تجعل بوند أسطورة تتكرر مع كل فيلم جديد تزداد حدة فى الايقاع ، وعناصر الابهار ، مما يجعل روايات ايان فلمنج بعيدة تماما عن الشخص الذى نراه على الشاشة ، فهو لم يعد يحمل منه سوى اسمه وبعض النقاط الهامشية .

فبينما بقى بوند بريطانياً فى كل الروايات ، فقد حاولت السينما أن تصبغه بالصبغة الأمريكية مهما ظل يعمل فى وكالة استخبارات صاحبة الجلالة ، وكما سبقت الاشارة فان الروايات البريطانية كتبت فى المملكة المتحدة ، وانتشرت فى الولايات المتحدة ، وسوف نرى فى فصل لاحق أن كل رجال الاستخبارات الامريكية الذين ظهروا فى روايات قد اختفوا بعد سنوات قليلة ، بينما بقى جيمس بوند ، تطبع رواياته بملايين النسخ فى شتى أنحاء العالم . مما دفع بعض الكتاب المحترفين الى كتابة قصص جديدة للعميل جيمس بوند ، تختلف تماما عن تلك التى كتبها فلمنج . ومن أشهر هؤلاء جورج ماكدونالد فى « الأخطبوط » وجون جاردنر فى « تصريح بالقتل » والغريب أن هذه الأفلام كانت أعادة للافلام القديمة لبوند ، أى أنها ليست اعادة للكتابة بقدر ماهى اعادة للافلام مثل « تصريح بالقتل » الاقرب الى « عش ودع الآخرين يموتون » .

*****

أصبح الكاتب البريطانى كين فوليت أحد أبرز الروائيين المعاصرين فى رواية التجسس منذ أن نشر روايته الأولى « ثقب الابرة » عام ١٩٧٨ ، وباعت فى طبعتها الانجليزية خمس ملايين نسخة وكان وقتها كاتبا مغمورا لايعرفه أحد . وقد أردنا أن نركز على فوليت مرتين . مرة كروائى فى النوع بشكل عام ، ومرة أخرى فى فصل لاحق كروائى أهتم فى العديد من أعماله بالصراع العربى الاسرائيلى ، وشكل حالة خاصة بين الروائيين البريطانيين الذين انحازوا فى أدبهم الى جانب أنشطة الموساد فيما تمارسه ضد العرب ، واذا كان فردريك فورسايث قد كتب رواية تجسس عن التعذيب فى معسكرات الاعتقال ، فان فوليت كما سنرى قد تعامل مباشرة مع ملفات الموساد فى وقائع محددة معروفة فى تاريخ الجاسوسية المعاصرة وحولها الى روايات .

ويهمنا ونحن بصدد الحديث بالتفصيل عن ثلاثة من الروائيين البريطانيين الذين تميزوا فى روايات التجسس أن نقدم فوليت رغم اختلافنا معه على الخط المستقيم ، وذلك ككاتب لمع فى تأليف هذه الروايات قبل نهاية الحرب الباردة .

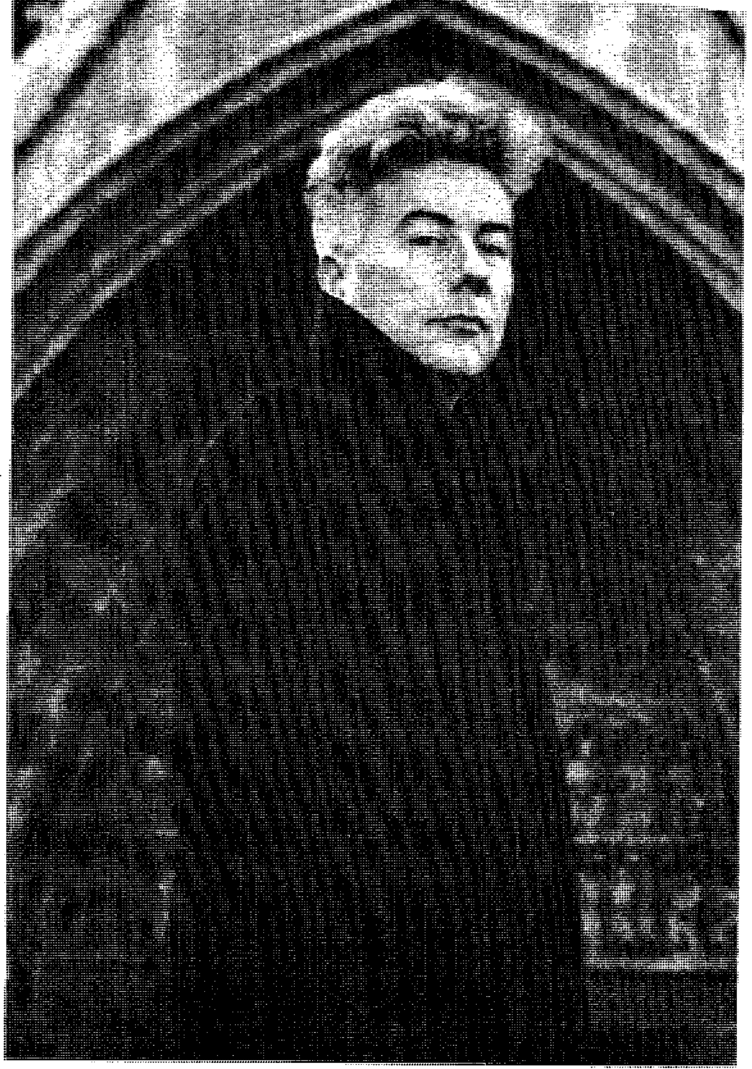
ولد كين فوليت عام ١٩٤٧ ، وقد عمل فى أول حياته كصحفى ، وموظف فى أحدى دور النشر البريطانية ، ثم نشر مجموعة من الروايات البوليسية باسم مستعار لم تلفت اليه الانظار . ثم نشر روايته الاولى « ثقب الابرة » عام ١٩٧٨ والتى سرعان ماحولتها السينما الامريكية الى فيلم قام ببطولته دونالد سوزرلاند وتتابعت رواياته فيما بعد من « العميل الثلاثى الاوجه» عام ١٩٧٩ ، و «المفتاح ربيكا» عام ١٩٨٠ . وهما الروايتان اللتان تدوران فى اطار الصراع العربى الاسرائيلى . ثم قدم رواية « كذبة الأسد » عام ١٩٨٣ عن التدخل السوفيتى فى افغانستان . و « رجل من سان بطرسبورج » و « تمويل آخر » عام ١٩٨٦ . ثم «فضيحة موديليانى » عام ١٩٨٧ .

وقد عاش فوليت فى مأزق ابداعى بعد عام ١٩٩٠ ، حيث عقدت معاهدات سلام فى الشرق الأوسط ، وتفكك الاتحاد السوفيتى ، فتوقف ، عن غير رضى ، عن كتابة رواية التجسس ، وكتب روايات أخرى بوليسية مثل « ثنايا الارض » عام ١٩٩٠ .

وتدور أحداث روايته « ثقب الابرة » بين عامّى ١٩٤٠ ، ١٩٤٤ ، بين المانيا وانجلترا ، وبطل روايته المعروف تحت اسم « ثقب الابرة » ينحدر من أصل روسى ، وهو من أسرة ثرية . وقد اعتاد أن يقتل كل عواطفه ، فهو فى مهام لاتتطلب منه أن يعرف أي شعور يتعلق بالرأفة والرحمة ، ولا المشاعر الانسانية الرقيقة . اذن فهو جاسوس يختلف عن الجواسيس البريطانيين الذين ترسلهم وكالة استخبارات صاحبة الجلالة من أجل مهام عديدة داخل البلاد .

والاسم الحقيقي لهذا الجاسوس هو هاينرش رودلف هانس ، وقد أطلق عليه اسم «ثقب الابرة » لقدرته الخارقة على الرصد والافلات من المخاطر بسهولة ، وعاش سنوات عديدة فى لندن قبل الحرب العالمية الثانية ، لذا فهو يتقن اللغة الانجليزية كالبريطانيين .

لقد وكلت اليه مهمة العودة مرة أخرى الى انجلترا من أجل معرفة المكان الذى ستهاجم منه قوات الحلفاء الساحل الفرنسى ، فقد عرف الالمان أن هناك نية للهجوم من ميناء كاليه ، وجاءت معلومات أخرى أن الهجوم سيتم من خلال ساحل نورماندى . وكى يتأكد هتلر من حقيقة المعلومات ، يتم اختيار ثقب الابرة لهذه المهمة . اذن فعليه ان يخترق كل الحواجز


كـين فولـيت

العسكرية ، وأن يضلل وكالة الاستخبارات البريطانية ، وحليفتها الامريكية ، ومن هنا يجئ التوتر الذى يصنعه الكاتب فى الرواية .

ومان يصل « ثقب الأبرة » الى بريطانيا حتي يحس بوجود رجال وكالة الاستخبارات البريطانية ، ويختفى الجاسوس وينجح فى الحصول على المعلومات التى يريدها ، ولانه رجل ميكافيلى فانه يستخدم العنف بكافة اشكاله من أجل النفاذ بجلده ، وتوصيل المعلومات التى جاء من أجل الحصول عليها .

ويهرب « ثقب الابرة » الى جنوب بريطانيا ، ويلجا الى بيت صغير يعانى العديد من المشاكل ، فالزوج قعيد ، والزوجة محرومة جنسيا وعاطفيا ، ويتمكن من السيطرة عليها ، ويقتل زوجها ويحل مكانه على فراشها . ثم يعد نفسه لقتلها ويهرب نحو الشاطئ حيث ينتظره قارب صغير .

وتؤدى المرأة دورا بالغ الحساسية ، فهى تتمكن من قتل الرجل لأنه تلاعب بعواطفها ، ولأنه قتل زوجها ، ثم لأنه جاسوس على بلادها .

هذه هى بعض ملامح الرواية الأولى التى كتبها فوليت ، أما روايته « كذبة الأسد » فهى حول عميل أمريكى يتسلل الى الأراضى الافغانية ، من أجل الحصول على رسالة سرية لتوصيلها الى زعماء حرب العصابات من أجل التغلب على القوات السوفيتية . وفى أفغانستان يعيش قصة حب تجعله يؤمن بقضية المجاهدين ضد الاحتلال الشيوعى للبلاد ، وكما هو واضح أن فكرة هذه الرواية كانت تتبنى وجهة النظر الغربية تجاه الصراع فى هذه المنطقة ، ليس دفاعا عن المجاهدين ، ولكن من أجل مناهضة النشاط الشيوعى الذى كان يمتد الى تلك المنطقة .

وقد تناول فوليت موضوعات تجسس أخرى دارت فى المنطقة العربية فى الأولى ذهب الى القاهرة ابان الحرب العالمية الأولى ، وفى الثانية الى البحر المتوسط فى الستينات ، وكلتاهما مأخوذتين عن أحداث حقيقة ، وسوف نتاولهما فى مكان آخر .

*****

يعد جون لوكاريه أهم كتاب رواية التجسس المعاصرين على الاطلاق ، فهو الذى أعطى هذه الرواية شخصيتها وأكسبها هوية خاصة ، وأخرجها من هامشية التصقت به دوما حتى من خلال الروايات التى كتبها أدباء لهم أهميتهم لم تكن أعمالهم حول الجاسوسية هى أفضل كتاباتهم ، بل ربما أكثرها سوءا ، وقد اكتسب لوكاريه أهمية خاصة لدينا فى العالم العربى لأنه أول كاتب عالمى استطاع أن يكشف عن الاساليب الوحشية للموساد ، كما أنه أول من كتب عن سور برلين ، وأهم من كتب عن سنوات البروستريكا ، وتفكك الاتحاد السوفيتى . وهو كاتب معطاء دائما فى هذه الرواية ، ليس غزير الانتاج ، كما أنه لم يبدع فى أى مجال آخر من مجالات الابداع عدا رواية التجسس ، لكنه نشر شبه سيرة ذاتية فى التسعينات ، فى تلك الفترة التى شهد فيها العالم كسادا فى عمليات التجسس بين الشرق والغرب .

ولوكاريه لايعتمد فى رواياته على عمليات تجسس حقيقية لها ملفات فى وكالات الاستخبارات ، ولكنه يتعامل مع الجاسوسية بمعناها الشامل حيث يهتم بقضية عامة، فيروح يجمع الكثير من المعلومات حولها . ثم يبدأ فى الكتابة ، مثل زيارته للمنطقة العربية على مدى خمس سنوات مرات عديدة قبل أن يكتب رواية « الطبالة الصغيرة » ، وقيامه بزيارة

الاتحاد السوفيتي مرتين قبل أن يؤلف رواية « المنزل روسي » .

وجون لوكاريه هو اسم مستعار اتخذه الكاتب لنفسه عند نشر الرواية الأولى في عام ١٩٦١ ، كان يعمل في تلك السنوات في مكتب العلاقات الخارجية الذي سبق أن عمل به كل من جراهام جرين وايان فلمنج وسومرست موم وآخرين من الذين كتبوا رواية التجسس . اسمه الحقيقي هو دافيد جون موركرونويل ، ولد في جنوب غرب انجلترا في ١٩ أكتوبر ١٩٣١ بمدينة بوول . ثم سافر الى سويسرا لدراسة اللغة الالمانية في جامعة بون ، وعقب انتهاء دراسته قام بأعمال التدريس في المدارس . وعمل سكرتيرا للسفارة البريطانية في بون ثم قنصلا في هامبورج . أي أنه كان على مقربة من برلين ، وشاهد التغيرات التي عاشتها المانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي المدينة التي استوحت منها روايته « الجاسوس الذي آتى من الصقيع » وقد اكتشف كرونويل أن السلك الدبلوماسي في العالم هو بؤرة عمليات التجسس حتى بين الدول الحليفة . ومن هذه التجربة استمد أحداث روايته « نداء الميت » عام ١٩٦١ . وفيها ابتدع شخصية الجاسوس جورج سمايلي الذي أصبح فيما بعد بطلا للعديد من رواياته ، وقد نشرها جميعا تحت اسم جون لوكاريه .

ويهمنا ، ونحن نتحدث عن حياة لوكاريه أن نتكلم عن والده ، لانه ظهر في العديد من أعماله بشكل أو بآخر ، حيث يقول عنه - انظر مجلة الثقافة العالمية العدد ٣١ - « كان رجلا يعيش حياة غريبة ، يتناول طعامه على الحساب بالأجل في أفخم المطاعم ، وتطالبه الفنادق في فينا وزيورخ بدفع فواتير حسابه التي لم يسددها نظير اقامته فيها . كان رجلا مبذرا ينفق بدون حساب ، ويتعاطى كل أشكال التهريب . يمتلك خيولا للسباق ويقيم السهرات الباذخة حتى وهو في أشد حالات الافلاس . كانت حياته مزخومه بالمغامرات الجنسية المذهلة حتى قبل وفاته . كان يدمن عقد الصفقات المشبوهة ، والقروض التي لم يكن يستطيع الوفاء بها للبنوك على الدوام . وان كان ذلك لم يثنه عن اقامة المزيد من الشركات التجارية التي سرعان ماتشهر الافلاس ، انه أحد هؤلاء المغامرين في المجال المالي . الذين جرتهم مغامراتهم كثيرا الى السجن . الى أن وافته المنية عام ١٩٧٥ أثر أزمة قلبية وعمره ٦٩ عاما . وكان من أقواله التي يكررها أنه لم يقرأ في حياته كتابا واحدا من كتبي ، أو كتب غيري » .

ومن الواضح أن شخصية الاب كرونويل أقرب الشخصيات التي تظهر بشكل عام في روايات التجسس ، والرواية البوليسية وهي شخصية ثرية دراميا ، ومهمة للاديب . مما دفع

لوكاريه أن يأخذ منها الكثير ، سوف نرى أنها موجودة بشكل مكثف فى روايات عديدة للكاتب خاصة « جاسوس عريق » .

فى عام ١٩٦٢ نشر روايته « الشمعدان الأسود » ، الا أن روايته « الجاسوس الذى آتى من الصقيع » قد حققت نجاحا على المستوى العالمى وترجمت الى اثنتى عشرة لغة فى ستة أشهر . وحصلت على جائزتين ادبيتين . وكل هذا النجاح كان دافعا أن يقدم لوكاريه استقالته من وظيفته الدبلوماسية كى يتفرغ للادب .

وقد نشر لوكاريه خلال خمسة وثلاثين عاما عددا قليلا من الروايات قياسا الى اقرانه من كتاب الروايات . منها « مرآة الجواسيس » عام ١٩٦٥، «مدينة صغيرة فى المانيا» ١٩٦٨، و « عاشق بسيط ورقيق » ١٩٧١ و « الجلد » - وهو جنس حيوان آكل للحشرات . و« تليمذ شريف» ١٩٧٧ ثم « عشيرة سمايلى » ١٩٨٠، « الطبالة الصغيرة » ١٩٨٣ و « جاسوس عريق » ١٩٨٦ و « المنزل روسى » ١٩٨٩ ثم « المسافر السرى » ١٩٩١ و « مدير الليل » عام ١٩٩٤.

رفض لوكاريه الوظيفة حتى لايسقط ، كما يقول ، فى أقبيه البيروقراطيه الادبية : «الحياة الفكرية تصيبنى بالملل بصورة مزعجة ، ففى اكسفورد فعلت كل مايجب أن أفعله كى أحصل على شهادة جيدة ، وكن أعد نفسى كباحث ومدرس وعميد . وكنت جادا كى أعد نفسى لحياة جامعية . ثم أحببت الكتابة ، ومعها التاريخ ».

وقد ظهرت شخصية الجاسوس سمايلى فى أربع روايات هى « نداء الميت » و « الجلد » و « عشيرة سمايلى » و « تلميذ شريف » ، كما عاود الظهور فى روايته « المسافر السرى » التى تبدو أقرب الى المذكرات . وهو رجل غير مهندم الزى ، يميل أن ينفث سيجارته حين يصعد السلم ، وأن يلمع نظارته برباط العنق . كما أنه متحذلق وغامض . ويتصرف كأنه أهم جواسيس عصره . ومع ذلك فهو جاسوس الحرب الباردة ، تلك الحرب التى لم تعد بريطانيا فيها تمثل الأسد ووحيد القرن ، بل البومة ، ولذا فـ « سمايلى » غير واضح ومتحذلق . هو اذن صورة مضادة لجواسيس آخرين ظهروا فى الرواية البريطانية كشخصيات لامعة تبرق وتنتفض اجساد النساء عند لمس اصابعهم .

وسمايلى جاسوس غامض يسير على نهجين متناقضين . فهو عميل للاستخبارات الامريكية ، الا أن الاستخبارات السوفيتية تمكنت من تجنيده فى فترة من الزمن . وهو انسان

له قلب رقيق مثل اغلب البشر . فهو يحب امرأته . عليه أن يخوض الحرب الضروس ضد الجاسوسة السوفيتية كارلا. لقد ماتت زوجته ، وعليه أن ينتقم لموتها . اذن فالامر لايتعلق بمهمة رسمية خاصة بالاستخبارات ، بل أنه أمر شخصي فى المقام الأول ، لقد ظل سمايلى يبحث عن الجاسوس السوفيتى بيل هايدون الذى كان يوما مازميله فى الاستخبارات البريطانية ، لكنه اكتشف فيما بعد أنه يعمل مسئولا فى استخبارات الاتحاد السوفيتى « K G B » . ويصوره الكاتب فى رباعيته على أنه عبقرى وشرير حاول اغراء زوجة سمايلى لمعرفة أسرار زوجها ، وهايدون معروف تحت اسم « الجلذ » أو التلميذ الشريف الذى سرعان مايتحول الى خائن .

اذن فسمايلى جاسوس جريح ، ومهنته محاربة الخيانة من أجل الحب . ورغم أن كارلا السوفيتية قد منحت قلبها يوما لسمايلى ، فانه لاينسى أنها كانت الصديقة الحميمة لخصمه ، رغم أنه يرى المباراة وقد انقلبت مفرادتها فيصبح صديق الأمس هو خصم اليوم .

وقد أكد لوكاريه - مجلة « لير » مايو ١٩٨٦ - أنه ابتدع شخصية سمايلى من أجل التخلص من شبح أبيه الذى يجثم عليه ، أما الناقدة والروائية الفرنسية نويل لوريد فقد كتبت فى مجلة الاكسبريس « ١٢ ديسمبر ١٩٧٧ - أن رواية « تلميذ شريف أو طالب الكلية » كما ترجمت الى الفرنسية - مكتوبة بالأسلوب البلزاكى الذى ينتمى الى القرن التاسع عشر - فقد جعل الكاتب ألعاب الجواسيس عملا جادا يجب أن يؤخذ فى الحسبان ، فهو مرسوم كأنه هيكل اجتماعى لعالم سينهار . فقد اختار الكاتب لرباعيته حقبة زمنية تناولت فيها بريطانيا العظمى عن آخر قلاعها فى آسيا وتقود فيها الولايات المتحدة حربها الاستعمارية الاخيرة .

وبعد عشر سنوات من هذا المقال الشهير الذى كتبته لوريو ، تحدث لوكاريه فى مجلة «ليـر » - مـايو ١٩٨٦ - عن بلزاك قـائلا : « ان اسلوبه المميـز فى بداية رواياته المليئ بالتفصيلات غير المباشرة التى لاتفضى الى استطراد معين فى الحدث الدرامى ، كاشارته الى اضطراب كاهن مدينة لاتور ، هذا الاسلوب يدفعنى أن أصنف بلزاك كواحد من ألمع كتابه الرواية . حيث تتفجر عبقريته فى مجال الوصف . سواء تناول هذا الوصف احدى الكنائس أو صالونا من صالونات الطبقة الوسطى أو البسطاء من عامة الناس ، كما تتجلى موهبته الفذة بجلاء أكيد فى تحليله للنقاد والمنافقين ، والواقع أنني أحس لدى بلزاك هذا الانطباع الذى يخرج به القارئ لروايته والشعور بأنه أديب يغوص فى أعماق الحياة . وينسج روايته من

خيوط الأحداث الواقعية الصادقة . إن إسلوبه فى الكتابة ينم عن أديب كأنما ولد نقطة الارتكاز من الجنس البشرى تماما . كم هو رائع » (انظر الثقافة العالمية العدد ٣١) .

ولقد شئنا أن نقتبس هذا النص من الحوار الذى أجرته معه مجلة « لير » كى نؤكد أن لوكاريه أراد أن يجعل من رواية التجسس أدبا . وذلك من خلال أسلوبه البلزاكى الذى تحدثت عنه نويل لوريو فقد تحدث الى مجلة « لوبوان » - ٥ ديسمبر ١٩٧٧ - أن رسائل القراء التى تصله تجعله يحس أن الناس فى الشارع يتعاملون مع كتبه كنصوص أدبية بصرف النظر أن كانت مكتوبة عن وكالات الاستخبارات أم لا » .

وقد صدم لوكاريه الأوساط الادبية بشخصية الجاسوس سمايلى لانه خان وكالة الاستخبارات البريطانية ، وعمل مع الاستخبارات السوفيتية . وكانت الصدمة في أن سمايلى شخص ناجح لايميل الى الأهواء العابرة . وقد جاءت هذه الصدمة أن الغربيين قد تذكروا على التو الجواسيس المعاصرين الذين خانوا وكالات الاستخبارات فى بلادهم مثل كيم فيلبى وانتونى بلونت . وقد لوحظ أن الأحاديث الصحفية التى تجرى مع لوكاريه حول سمايلى تتطرق دائما لهؤلاء الجواسيس الذين احدثوا ثقبا لدى وكالات الاستخبارات الغربية وأيضا الجاسوس الامريكى الذى تم القبض عليه وزوجته فى عام ١٩٩٤ ، أى بعد نهاية الحرب الباردة بسنوات.

وكان على الكاتب أن يتحدث دائما كى يهون من الصدمة . فهو يرى أن فيلبى « كان لديه بالتحديد شئ يود اثباته ، كان أبوه شخصا فيه بساطة محببة عفوية ، وكان عمله بيع العربات . ومن المؤمنين بالاشتراكية وأصبح من المستكشفين . واعتنق الاسلام فى المملكة العربية السعودية التى أصبح فيها مستشارا للملك عبد العزيز آل سعود . وكان كيم فيلبى طوال حياته نقيضا لابيه ، وتجاوزه على الدوام . فلكون أبيه اشتراكيا ، حرص هو أن يكون شيوعيا واذا كان أبوه ممن أولعوا بغواية الآخرين ، فقد بزه فى هذا الممكن بمحاولاته المثابرة لاغواء كل عملاء المخابرات البريطانية دون استثناء .

وعن بلونت يقول فى مجلة « لوبوان» - ١٠ مارس ١٩٨٠ أنه كان حالة مختلفة وهامشية، فهو جزء من مجموعة شاذة جنسيا قرر أن ينتمى اليها كأنها النخبة وكانت ذات تأثير عليه . لقد نسينا اليوم الذى ارتبط الشذوذ الجنسى بوكالات الاستخبارات . نحن نعرف جيدا ، رغم أنهم ليسوا شواذا ، أن هناك بعض الرجال المنغلقين فى المكاتب المليئة بالدخان

ينتهون بتبنى مشاريع مجنونة تماما . ولكن هؤلاء الرجال ليسوا مبدعين . ولكن الأمر يتلخص فى أنهم منفصلون أسريا عن العالم .

يهمنا أن نشير الى رواية « الجاسوس الذى آتى من الصقيع » التى تحكى كيف استطاع عميل لوكالة الاستخبارات البريطانية أن يعد سيناريو خاصا لاختراق وكالة الاستخبارات فى المانيا الشرقية ، انه شخص مخمور يدعى اليك لاماس . وقد نجح فى تنفيذ السيناريو من خلال أمينة مكتبة شيوعية تدعى « نان » استطاع أن يوقعها فى حبائله ، ويعرف ، وهو ينفذ السيناريو أن رؤساءه قد ألغوا مهمته من أجل حماية عميل مزدوج . والعميل المزدوج هو ذلك الشخص الذى يعمل فى نفس الوقت لصالح جهتين متنافستين . وهناك العديد من أنواع الجواسيس المزدوجين . وعادة مايتم التعامل معهم من كلا الطرفين كخائن . والعميل الذى فى رواية لوكاريه هو نازى قديم أصبح رئيسا لوكالة الاستخبارات فى المانيا الشرقية يساعده رجل يدعى فيدلر ، وهو يهودى يكن كراهية شديدة للنازين بطبيعة الحال .

ويلعب فيدلر دورا كبيرا فى كشف رئيسه ، ودوره فى مساندة استخبارات بريطانيا حتى يراه مقتولا عند جدار برلين . ويتم القبض على « اليك » الذى جاء الى المانيا عبر هولندا ويدعى أنه جاسوس شيوعى ، أو أنه انسان مخلص خاصة أنه ساعد فيدلر فى الايقاع بغريمه، النازى السابق .

وتعمل « نان » الفتاة الشيوعية على مساعدة حبيبها للهروب من برلين الشرقية الى برلين الغربية ، وذلك عبر جدار برلين المحاط بحراسة مشددة للغاية . ففى هذا المكان قتل العميل المزدوج ورغم أن جدار برلين لم يتم اختراقه قط ، فى الواقع ، فان الجاسوس فى هذه الرواية قد استطاع أن يفعل ذلك .

ويقول جابربيل فيرالدى فى كتابه عن « رواية التجسس » (ص ٥٧) أن هناك جملة فى هذه الرواية أصبحت قولا مأثورا لدى المفكرين الغربيين ، جاءت على لسان اليك لاماس ، وهى : ماذا تعتقد أن يكون الجواسيس ؟ قساوسة ، قديسين ، أم شهداء . إنهم يشكلون حالة صلدة من المخلوقات المغرورة الخائنة . أجل . حالات سادية ومخمورة ، وأشخاص يلعبون دور الشرطى ، واللص ، كى يجعلوا حياتهم مليئة بالدعابات .

واذا كان البعض يرى أن الرواية اكتسبت أهميتها فى أنها محاولة لاختراق سور برلين

الذى تم تحطيمه بعد نشرها بربع قرن ، فان هذه الرواية جاءت فى فترة كانت الحرب الباردة على أشدها بين المعسكرين . وفى صفحات الرواية هناك تأكيد على هوية الشخص الذى يؤدى دوره بنجاح ، انه اليهودي الذي يكن الكراهية للنازين . بينما نرى الجاسوس البريطانى ضائعاً يحاول أن يجد لنفسه ظلا فوق هذه الأرض . أما الشيوعى فهو الانسان البغيض والكريه الذى يحاكم الجاسوس البريطانى . والذى يطلق الرصاص على كل من يحاول عبور السور .

فى عام ١٩٨٦ نشر لوكاريه روايته « جاسوس عريق » وفيها يبدو الكاتب مهموما بمسألة التجسس والصراع الايدولوجى بين الغرب والشيوعية ، فالدبلوماسى ماجنوس بيم المستشار فى السفارة البريطانية فى فيننا ، يختفى فجأة بعد عودته الى بريطانيا لحضور جنازة أبيه وكتابة مذكراته فيتم استجواب زوجته ، وتكون الأسئلة تقليدية وسخيفة مثل : ماذا فعل حين سمع خبر وفاة أبيه ؟ .

فيكون الرد : ذهب ليتنزه

– وحده .. الم يكن يحمل شيئا خاصا ؟

– جريدته .

– أي جريدة . وكيف كان يطبقها .. ؟

– لم يطبقها .. بل أخذها دون أن يطبقها .

– وماتاريخ الجريدة ؟

– لاأعرف .

لقد كان الاب ماجنوس يعمل فى خدمة استخبارات المعسكرين الشرقي والغربى معا . واكتشف الابن أن والده لم يكن له اسم حقيقى . وأن كل الاسماء التى عرف بها مستعارة . اذن فالى أى اسم ينتمى . أنه يبحث عن زمن ضائع عرفه أبطال روايات الأديب مارسيل بروست فيما قبل . أب مجهول بلا هوية ومدرسة لاتنتهى من الكذبات . وموهبته فى التخفى ورثها الابن عن أبيه . ويصبح هو بالتالى جاسوسا مجانيا ، عليه أن يزيد احتمالات خطر الاشياء وأمنها . ويقول لوكاريه – مجلة « لير » مايو ١٩٨٦ – أننا فى هذه الرواية نجد كل شئ مزدوجا ، فان الذى دمر « بيم » فى النهاية ، ربما كانت وطأة كونه بريطانيا . إضافة الى

نفاقه والشعور الكامن فينا جميعا بصورة غامضة عميقة . وأعنى به الشعور بالواجب . وحتى شعوره هو بالتواجد كان مزدوجا . مما دفعه للعمل لكلا المعسكرين المتنازعين بوحى من ضمير ممزق . بحيث أصبح نموذجا حيا للعميل المزدوج القابع فى أعماق كل واحد منا جميعا . فكل انسان ، لاشك ، أنه يمس جانبا من اسرار حياته .

وحول نفس الرواية تحدث لوكاريه أيضا « أن الكاتب المتمكن لابد أن تجد لديه القدرة على الوصف الذى يعنى فى نفس الوقت الاحساس الصادق المرهف ، وعلى سبيل المثال ، أن يكون متمكنا من نقل مشاعره التى قاسى مرارتها خلال عملية جراحية خطيرة استغرقت خمس ساعات لدى جراح الاسنان ، حتى وان اقتصرت تلك العملية على مجرد اقتلاع واحد لاأكثر من أسنانه فى حياته كلها . وهذه الخاصية - فى تقديرى - هى بمثابة الحد الأدنى من صفات أى كاتب وخبرته ، التى تمكنه من تعزيز أوهن المشاعر أو الرغبات تأثيرا ، ليحولها الى عواطف جياشه مدوية . وأرى أن الكاتب يستطيع السيطرة على عنصر « التضخم » أو التعظيم الذى ذكرته لتوى .

كان لابد لكاتب من طراز لوكاريه أرقته الشيوعية دوما ، وهاجم رجالها فى رواياته ، أن يقدم عملا ابداعيا فى ظل التغيرات التى شهدها الاتحاد السوفيتى - سابقا - فى السنوات الأخيرة . وفى روايته « المنزل روسى » سعى لوكاريه أن يعبر عن وجهة نظره بشكل واضح فيما يمكن أن يحدث بين المعسكرين . ويرى الكاتب أنه أثناء زيارته لمعرض الكتاب فى موسكو فى العالم الأول من البيروستريكا ، التقى بأمراة بريطانية ذات أصل روسى . وقدمت له مسودة كتابها ، عن عالم فيزياء سوفيتى كانت وظيفته هى الدفاع عن النظام السوفيتى .

ويقول لوكاريه أنه أحب موسكو كثيرا ، الا انه خاف أكثر من ليننجراد - سان بطرسبورج حاليا - ولكنه لم ير هناك السوفيتى الشرير الذى صوره فى بعض رواياته .

وبطلة الرواية تدعى كاتيا ، وهى فنانة تشكيلية طليعية ، تقرأ كافكا ، ومعجبة بالممثل الفرنسى جان بول بلموندو فى أفلامه الأولى . وهى تريد أن تتعرف على ناشر بريطانى ، يعزف على آلة الساكس فون يدعى بارلى كى يقدم له مسودة كتبها فزيائى روسى اتخذ لنفسه اسما مستعارا هو « جوته » ، وهذه المسودة تتضمن أسرارا عن أشياء تهم الغرب . يقرر بارلى السفر الى الاتحاد السوفيتى موفدا من وكالة الاستخبارات البريطانية ، كى يعرف الحقيقة من موطنها . وهناك يكتشف الحب وأن الشخص الذى أعجب به طوال حياته ليس

سوى خصم عنيد ، وهو الجاسوس الشهير جيمس بوند الذى ضخم العداء بين الشرق والغرب.

وبارلى هو اسم مستعار لجاسوس غير معروف وغير محترف يدعى بارتولومى سكوت بلير ، وهو رجل متقدم فى السن ، وبينما هو يبحث عن الحقيقة فى المسودة التى لديه ، يقترب أكثر من الناس ، ويختفى فجأة ، مما يثير قلق وكالة الاستخبارات البريطانية التى ترصد سفره الى موسكو . لقد دخل بارلى الى المنزل الروسى وفى هذا المنزل تعرف بارلى على « فيد » الذى سعى بدوره الى تجنيده ، وحوله الى شخص آخر اسمه المستعار جوته . و « المنزل الروسى » فى الرواية ليس موجودا فى الاتحاد السوفيتى . بل فى لندن ، انه مكان تؤسسه وكالة الاستخبارات يمكن منه معرفة تأثير النظام السوفيتى الجديد على العملاء من طراز بارلى .

ولكن المنزل الروسى المقلد لايمكن أن يكون أشبه بالواقعى ، فعندما يرتبط بارلى بالفتاة الروسية كاتيا يتغير تدريجيا ، وذلك مثلما غيرت البيروسترويكا من أقدار الناس ومشاعرهم . ليس فى الاتحاد السوفيتى فقط . بل فى العالم كله . فالجاسوس هنا يتزوج وتصبح المرآة ظلا حقيقيا له . فلايحتاج الى ظل آخر . انها امرأة هشة رقيقة تعيش على هامش المجتمع . ولاتتمتع بطموح ملحوظ .

إذن ، فلقد تغيرت مفاهيم لوكاريه بدرجة كبيرة أن لم تكن وجهات النظر قد انقلبت رأسا على عقب . وفى حديث طويل مع لوكاريه فى مجلة « لوبوان » - ٣٠ أكتوبر ١٩٨٩ - يقول : « فى وسط الحرب الباردة كان الخوف أعم . ومع الجلاسنوست تحول العدو ، وأصبح صديقا ، والنتيجة : أصبح من الصعب فعلا معرفة كيف يفكر السوفيت . لقد قابلت رئيس اتحاد الكتاب ، وشربنا معا وتسامرنا ، وقال لى أشياء عن اسباب البيروسترويكا . وأشياء عن الحنين الى الحرب الباردة ، أو الرغبة فى اغتصابها . وقال أنه : قبل جورباتشوف ، كنا نرى أن على هذا القذر لوكاريه الا يضع قدميه قط في ارضنا . واليوم انا مضطر ان ابتسم له . وأن أرغم أننى معجب بعمله . الآن أصبح كل الابناء العاقين ملائكة .

وبينما الاتحاد السوفيتى يتفكك ، راح لوكاريه يكتب روايته « المسافر السرى » وهى بمثابة مذكرات للجاسوس سمايلى . وفى هذه الرواية يلتقى خصوم الأمس مرة أخرى فى موسكو ، باعتبارهم أصدقاء اليوم ، فذات يوم من شتاء عام ١٩٨٩ . يصل سيرك بريطانى الى العاصمة الروسية ، وتكون هذه الزيارة محط اهتمام وكالات الاستخبارات ، حيث أن هناك

رجلا يدعى « فيد » كان فيما قبل عميلا ، يلتقى هذا الرجل بغريم قديم ، يتبادلان النظر والابتسام . أما الرجل الآخر فهو سمايلى الذى عمل لمصلحة السوفيت فى روايات الكاتب السابقة ، وتدور أحداث الرواية على لسان « فيد » الذى عليه أن يسمع الكثير مما لدى سمايلى الذى يقول « لقد جاء الوقت الذى نحصد فيه دعايتنا » . ثم يتساءل فى خبث : ترى هل الجاسوسية عمل خالد ؟. ويخبره سمايلى أن الحكومات دائما ماتحاول أن تصنع لنفسها الخصوم من أجل أن تكون مستنفرة . ويعلق « فيد » أنه رأى فى عينى سمايلى ايمانا بأن كل البشر أغبياء ، وخاصة الجواسيس .

ومن الواضح أن لوكاريه لم يجد جديدا فى مسألة التجسس ، فبدأ يعيد حساباته مع الزمن القديم . وكان من الصعب على لوكاريه أن يجد موضوعا جديدا ، ولذا فان آخر رواياته لم ترتبط بحدث فى العالم ، بل هى رواية تجسس تدور أحداثها بين أماكن عديدة فى العالم ، وهى تحت عنوان « مدير الليل » والجاسوس هنا يدعى يوناثان بين ، يخفى سراً دفينا ، وهو رجل ينتقل بين المدن ، من زيورخ الى القاهرة حيث يلتقى بالمرآة الوحيدة التى أحبها والتى ماتت فى ظروف غامضة . ولذا فانه يقرر أن يعتزل المهنة . ولكنه لاينسى قط أنه كان مسئولا عن كل العمليات التى قام بها وانتهت بوفاة حبيبته . ولكن بعض الاصدقاء يقومون باقناعه أن يستأنف نشاطه ضد تجار السلاح ، والمخدرات فيوجه نفسه وجهة جديدة نحو أمريكا اللاتينية حيث يعيش أباطرة المخدرات . ويتعرف على الحسناء « جى » عشيقة زعيم عصابة التهريب ، والتى يكتشف أنها اسيرة فى اليخت الذى يملكه الرجل ، وتطلب منه أن يساعدها فى الهرب .

ومن حشايا الرواية ، نكتشف أن هناك موضوعات جديدة على كتاب رواية التجسس أن يخوضها فى ظل النظام الدولى الجديد وهى نفس الموضوعات التى بدأ بكتاباتها إيان فلمنج ، حيث رأى هذا الأخير أن كاتنجا أكثر خطورة على الأمن القومى من الصراعات الدولية ، وخصص له رواية ، والان فان هناك موضوعات تبدو أكثر اثارة وتمس الأمن العالمى . ولاشك أن الخوض فيها سوف يغير تماما من موضوعات رواية التجسس .

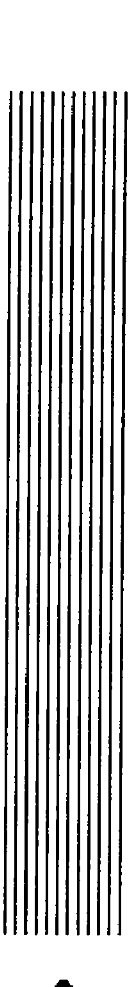
يقول لوكاريه فى حديث نشرته مجلة « حدث الخميس » - ٢ مايو ١٩٩١ - بمناسبة ترجمة رواية « المسافر السرى » : فى الحقيقة فان الكاتب جاسوس . ومايفعله الكاتب هو أن يعيش خارج المجتمع مثل أبى ذلك الشخص الغريب . ومثل أمى التى كانت غائبة دوما .

أنها حياة مثيرة ، من مدرسة الى مدرسة ، ومن مكان الى آخر . لقد وجدت مآواى فى الجاسوسية . ثم خاب أملى . فكطفل منحاز ، لجأت الى الاستخبارات ، بعيدا عن المجتمع . ثم انحزت من جديد الى البنويه ، وهربت .

« كانت تجارب « فيد » آخر ابطالى بمثابة سيرة ذاتية لطموحاته ، وزمنه البطولى حيث تصور أنه سينقذ العالم . ثم خاب أمله . فعندما تصبح بطلا ، تحس أنك فى حاجة الى أن تعثر على خصم » .

وكان لوكاريه قد كتب مقالا فى مجلة « لوبوان » - ٢ يونيه ١٩٨٧ - قال فيه أن « كتاب التجسس يقول لنا بعض الاشياء عن الاستخبارات .هو انسان مصاب بجنون العظمة . ترى هل هذا عصرنا ؟ حيث تباع فيه القرارات السياسية المعقدة مثلما يباع مسحوق الغسيل ، أو أمزجة البشر التي يمكن أن تثير الحقيقة الساكنة فى الضواحى . هل هذا العصر ملائم لكاتب التجسس ؟

هذا هو بعض من عالم ثلاثة أدباء بريطانيين ازدهرت أعمالهم ولمعت اسمائهم فى أزمنة الحرب الباردة ، واذا كان فلمنج قد مات فى قمة هذه الحرب ، فان فوليت ولوكاريه أمامهما سنوات آخرى للابداع ، والأرجح انهما سوف يغيران من رواياتهما فى السنوات القادمة بشكل واضح .

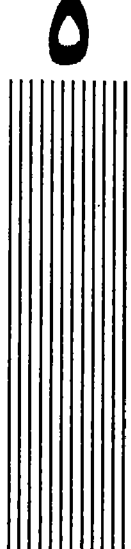




☆الفصل الخامس☆

٥

جواسيس ..
فى كل مكان



الفصل الخامس

جواسيس ..
في كل مكان

ترى هل هناك علاقة بين قوة جهاز الاستخبارات فى دولة ما ، وبين أهمية أدب الجاسوسية فى نفس الدولة ؟

ليست هناك إجابة شافية فى هذا المضمار . فرغم أن جهاز الاستخبارات الأمريكى أكثر نشاطا من مثيله البريطانى ، فان رواية التجسس هى فى المقام الأول صناعة بريطانية ، بينما راحت الولايات المتحدة بأجهزتها الاعلامية والثقافية تستورد هذا الادب وتنسبه الى نشاطها ، بمعنى أن يقال ان الاستخبارات البريطانية والامريكية تعملان فى نفس الخندق ، وأن المصالح واحدة لكلا الطرفين . وقد راح المؤلفون البريطانيون يبدعون ، بينما عمل الأمريكيون على انتشار هذه الكتب وتوزيعها من خلال دور النشر الامريكية ، ثم تحويل الكثير منها الى افلام سينمائية ومسلسلات تليفزيونية تعرض فى شاشات العالم كله .

وقد تعمد البريطانيون الا يغفلوا فى رواياتهم دور الاستخبارات الامريكية ، فكان العميل البريطانى . « لايتر » على سبيل المثال يتعاون مع البريطانى جيمس بوند فى العمليات التي تتم فى أرض أمريكية ، أو فى بلاد تحوطها مثلما حدث فى « عش ودع الآخرين يموتون» و « الدكتور نو »

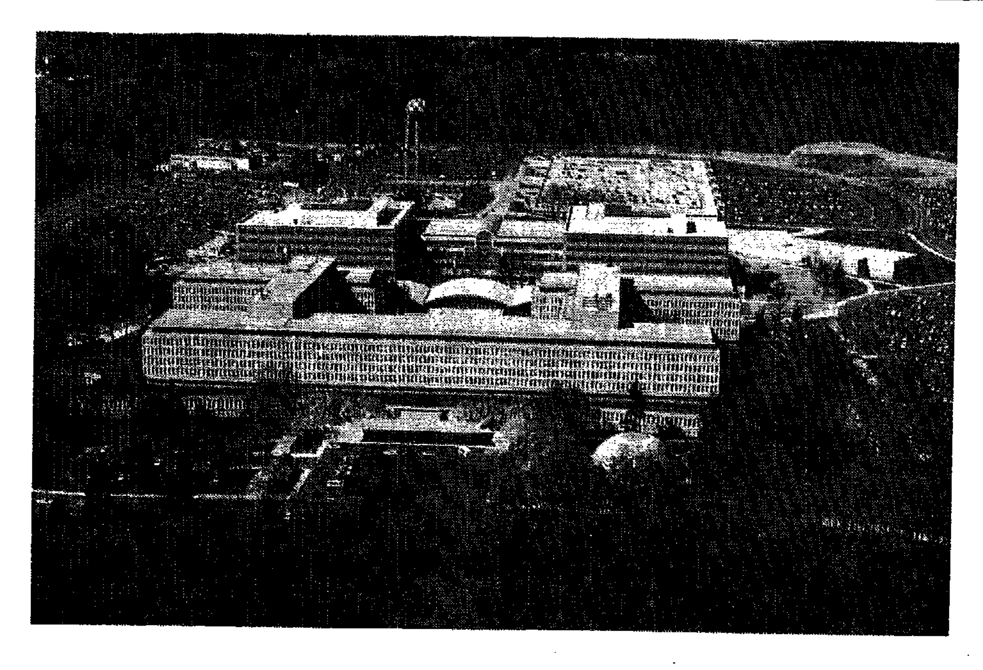
وفى البداية ، عندما حاول الامريكيون أن يؤلفوا روايات تجسس كانت موضوعاتهم باهته ، وشخصياتهم خالية تقريبا من الحياة ، وبدت الشخصيات الامريكية التى تظهر فى روايات التجسس بمثابة نماذج ممسوخة من مثيلتها البريطانية ، فقد حاول الامريكيون اثبات أن لهم عميلا سريا يدعى « مات هيلم » وأنه يقوم بمغامرات شبيهة بمغامرات جيمس بوند ، ورغم كل الابهار الذى أحيط ب « هيلم » سواء فى الروايات أو فى السينما ، فانه سرعان ماختفى،

بينما بقى النموذج البريطانى يتجدد دون منازع ، ورغم ان الامريكيين قدموا جواسيسهم فى العديد من الافلام ، ومسلسلات التلفاز ، وفى قصص الحواديت المصورة ، الا أن كل هذه الوسائل لم تنجح فى صناعة شئ حى من هيكل ميت . وهذا دليل أن وسائل الاعلام مهما كانت قوتها وسطوتها لاتستطيع أن تبعث الحياة فى الفنون الميتة . بل لابد أن تتوافر عناصر جذب أخرى ، فنية ، خاصة فى صناعة الأدب ، وعلى سبيل المثال فان السينما الامريكية اسندت دور « مات هيلم » الى ممثل كان يتمتع فى نهاية الستينات بشعبية هو دين مارتن ، واشتركت أمامه نجمات معروفات ذوات جاذبية خاصة مثل « آن مرجريت » والاسرائيلية داليا ليفى وسنتابرجر وأخريات . الا أن « مات هيلم » سرعان ماتبخر ، بينما بقى العميل البريطانى بوند رغم أن وجهة قد تغير من شون كونرى الى جورج لازنبى ، وروجر مور ، وتيموثى دالتون ، وبروسنان بيرس .

ورغم أن مؤسسة الاستخبارات الامريكية أكثر ضخامة من أى مؤسسة أخرى فى العالم . بمعنى أن أنشطتها ممتدة فى شتات متفرقة من العالم ، فان الأمريكيين ، لم يتفوقوا كثيرا فى هذا النوع . ومن المعروف أن هناك مجالات أخرى تفوق فيها أدباء الولايات المتحدة مثل « روايات الرعب » ، و« الظواهر الخفية » و « الكوارث » ، وهذه أيضا تقلصت بعضها فى عقد الثمانينات والتسعينات .

ولايعنى هذا أن الامريكيين ليس لهم كتابهم الذين برزوا فى هذا الميدان ، خاصة فى السنوات الأخيرة ، حيث لمع كل من روبرت لودلم ، ولارى كولينز ، وبيل جرانجر ، بالاضافة الى جيمس جرادى . وقد تغيرت مسيرة القراءة بشكل واضح لدى الامريكيين ، فى العقدين الأخيرين ، ففى الكتاب الذى أعده جون سورزلاند ، فى لندن عام ١٩٨١ ، عن أكثر الكتب الامريكية مبيعا داخل الولايات المتحدة وخارجها ، اختار عشرة كتب فى أعلى هذه القائمة ، وكانت هناك رواية واحدة تنتمى الى روايات التجسس وهى « أيام الكوندور الستة » التى نشرها جيمس جرادي عام ١٩٧٤ .

وفى كتاب The World Allmanac لعام ١٩٩٤ أن أعلى المبيعات كانت عام ١٩٩٢ من الروايات البوليسية ، وروايات الرعب ، وقد حصل ستيفن كنج على الترتيبين الأول والثالث ، بينما حصل روبرت لودلم علي الترتيب الرابع عشر ، بينما كانت الغلبة البائعة للروايات البوليسية .



مبنى الاستخبارات الامريكية (صورة سرية)

وجيمس جرادى هو الكاتب الأكثر جرأة بين أقرانه ، حيث كشف عن خبايا الـ (CIA) وان يجتاز نواميسه ، وقد فعل ذلك فى روايتين شهيرتين ، هما « ايام الكوندور الستة » ، ثم «نهر الظلام » المنشورة عام ١٩٩٢ .

وبطل روايته الأولى هو الكاتب الشاب جوتيرنر المكلف من قبل وكالة الاستخبارات الامريكية بقراءة مجموعة من روايات التجسس من أجل كتابة تقرير عنها ، ثم يقرر أن يهرب ، بعد أن استطاع معرفة أسرار هامة من خلال قراءة أحد الكتب التى جاءته عن طريق الخطأ ، وهذا الكاتب الذى يعيش فى واشنطن لاينحاز لأى أفكار . يحب شكسبير وفان جوخ . ، وموتسارت ، فهو انسانى النزعة ، ولايجد أى غضاضة فى التعاون مع الاستخبارات مقابل أجر ، رغم انه لايعرف ماذا يمكن أن تشكلها الاستخبارات من خطورة وجسامة . فاذا به يكتشف كل هذا . ويقرر أن يبلغ احدى الصحف بماعرفه ، ويجد نفسه مطاردا من قبل رجال الاستخبارات من أجل الحصول على الوثائق التى فى حوزته . ويكتشف تيرنر ان رجال الاستخبارات هم أنفسهم رجال وموظفى المؤسسات الاحتكارية الكبرى فى الولايات المتحدة التى تعمل فى مجال البريد والنظافة والتأمين بالاضافة الى المثقفين وقراء الكتب العاديين

أمثاله ، وزملاء فى الجمعية الأدبية التاريخية الامريكية . وتجئ أهمية الصراع هنا فى آن واحد من رجال الاستخبارات ، رغم هامشية علاقته بها ، يقرر أن يكشفها .

وقد تغير تيرنر بعد هذا الاكتشاف ، وأصبح مثقفا ذا موقف ، ويرفض غاضبا دعوة أحد رجال الاستخبارات حين يقدم له عرضا ماليا ضخما من أجل سد احتياجاته الحياتية الملحة.

وفى رواية « نهر الظلام » هناك أيضا رجل من داخل الوكالة يجد نفسه مطاردا من زملائه .انه « جو ستيورات » الذى أصبح الآن عجوزا هرما . يعيش فى وحدة . لاصديق له الا كأسه محاولا النسيان . فهناك ماضيه يطارده . وذات ليلة أحد ، وبينما هو ينظر الى المرآة فهم أن رجلا مثله لابد أن يكون هدفا للتخلص منه ، وذلك لانه يعرف الكثير .

ويحس أنه مطارد بالفعل من أشياء مجهولة ، فتلاحقه الوساوس والهواجس . ويكتشف أنه قد قام بأقذر العمليات طوال عشرين عاما . من ايران الى شيلى وفيتنام ، وحتى فضيحة ووترجيت ، انه نهر أسود طويل من العمليات القذرة عليه أن ينبش عنها فى ذاكرته ، وتختلط ببعضها البعض . فيها القتلة والمتآمرون . وأمام كل هذا يحس أن الموت ينتظره عند منحنى الطريق . ويقرر أن يبلغ أحدى الصحف بكل مايعرفه ، طالما أن النتيجة واحدة .

والجدير بالذكر أن السينما الامريكية حولت الرواية الاولى الى فيلم يحمل عنوان « أيام الكوندور الثلاثة » قام ببطولتها روبرت ردفورد وفاى دوناواى عام ١٩٧٦ ، وأخرجه سيدنى بولاك .

أما الكاتب الثانى فهو روبرت لودلم ، والذى تقول مجلة الاكسبريس - ١٥ يوليو ١٩٩٣ - أن رواياته باعت ١٩٥ مليون نسخة فى عشرين عاما ، أى ١٨٫٥ نسخة كل دقيقة . وأعماله منشورة فى ٢٨ دولة ، وترجمت الى ٣٢ لغة .

ولودلم من مواليد مدينة نيوجيرسى عام ١٩٢٨ فى أسرة بسيطة قرر أن يكون ممثلا وهو فى الرابعة عشرة من عمره . ثم التحق بالبحرية الامريكية وهو فى سن السابعة عشرة ثم دخل الجامعة بعد نهاية الحرب . وفى الجامعة عرف بشغفه للمسرح ، فعمل ممثلا لمسرحيات شكسبير . ثم مارس الاخراج . وراح يرحل من نيوجيرسى الى برودواى ، وعاش حياة المتشردين . وعمل فى الاعلانات . وظل يتنقل بين مهن عديدة . ويقول لودلم عن علاقته


لارى كولينز

بالكتابة فى مجلة الاكسبريس - ١٥ يوليو ١٩٩٣ - : « فى سن الاربعين قلت لزوجتى » : كنت دوما كاتبا متشردا ، واليوم أود أن أكون مؤلفا . كنت أمتلك فى منزلى مجموعات من مجلات أمريكية مرسومة ، ورأيت فى إحداها صورة تعود الى عام ١٩٢٥ . رأيت فيها صورة رجل عجوز من برلين ليس لديه مايملك ليشترى به كسرة خبز . وقرأت الاوراق وقررت أن أكتب عنه رواية .

وهكذا جاءت روايته الأولى « ميراث سكارليتى » . ورغم نجاح الرواية ، فان لودلم لم يتوقف عن العمل بالمسرح . ولكنه سرعان ماأحس بالاختلاف بين عالم المسرح وعالم الأدب . ففى المسرح يكون محاطا بالناس ، وعند التأليف يكون وحده .

ولودلم نموذج يختلف بين كتاب روايات التجسس ، حيث أن مسودة روايته الأولى قد وصلت الى ٣٨ صفحة . ويقول فى مجلة « سكانوراما » - ديسمبر ١٩٩٠ - أن الرواية قد باعت نسخا أكثر مما كان يتصور . كما لايخفى أنه أراد أن يحقق نفس الاعجاب الذى حققه كُتاب من طراز لوكاريه وفوليت . ثم تتابعت أعماله مثل «هوية بون » عام ١٩٨٢ » . و « حصار جيمنى » ١٩٨٣ ، و« الذاكرة فى الجلد » عام ١٩٨١ . و «طريق أوماها» ١٩٩٠ .

وقد تحولت بعض روايات الكاتب الى أفلام مثل « عطلة اوسترمان » و « دير هولكروفت » .

أما روايته « أجندة ايكاروس » المنشورة عام ١٩٨٩ فتدور أحداثها بين مناطق عديدة فى العالم ، منها سلطنة عمان ، وكولورادو . ويتخيل أنه فى سفارة احدى الدول تقوم عصابة من الارهابيين بالقبض على ٢٣٦ شخصا من الرهائن . وهذا الامر يؤرق ايفان كندريك السفير السابق الذى يعد نفسه كى يكون رئيسا للولايات المتحدة . ولذا فانه يتعاون مع وكالة الاستخبارات من أجل اطلاق سراح الرهائن . فيرسلون عميلا سريا يحمل اسما عربيا مستعارا هو « خالد » ، ويعمل على التفاوض مع الارهابيين قبل أن يتخلص منهم .

ويعتبر لارى كولينز أحد الكتاب الذين يمزجون بين الاحداث الواقعية . وبين الاسلوب الروائى ، ولذا فانه لايمكن حتي لما يكتبه أن يصل الى مرتبة الرواية ، لكنه يصر أن ماكتبه هو من فن الرواية ، فقد كون كولينز ثنائيا مع دومنيك لابيير فألفا مجموعة من الكتب مثل "هل تحترق باريس" و " الحرية هذه الليلة" ، وهما عن تحرر باريس من قوات الاحتلال النازى على أيدى الحلفاء ثم ألف كتابا عن العقيد معمر القذافى تحت عنوان "الفارس الخامس" ، ومن أعماله الأخيرة التى ألفها وحده "النسور السوداء" والتى تدور أحداثها بين أمريكا الجنوبية، وفيتنام، ويقول المؤلف أن فى هذه الرواية شخصيات متخيلة مثل كيفن جرادى ضابط وكالة الاستخبارات المكلف بمناهضة الارهاب داخل الولايات المتحدة الأمريكية . ويكتشف أن مانويل نوريبجا عميل الاستخبارات الامريكية، كما أنه تاجر مخدرات وهو يحاول الايقاع به. وكما ترى فاننا أمام حدث عالمى شهير يمزج بين الخيال والواقع "لا شك أن مزج الواقع بالخيال نوع من التقنية الكتابية . ولقد استخدمت هذه الوسيلة مع دومنيك لابيير فى كتابى "الفارس الخامس" والذى بدا لى هاما".

وهكذا فان كُتاب رواية التجسس المعاصرين قد وجهوا أنشطتهم نحو موضوعات أخرى عالمية مثل المخدرات ، ومحاولة القضاء على أباطرة التهريب فى العالم . ويعتبر هذا من موضوعات التجسس البالغة السخونة . سواء من حيث التوصل إلى هذه القلاع الأكثراثارة من قلاع الدول وحصونه .

ومن المهم الاشارة الي كاتب أمريكى آخر هو "ليون ايريس" ، وهو ليس متخصصا فى تأليف رواية التجسس ، لكنّ روايته "طوباز" كشفت عن أفكاره الصهونية ، ليس فقط ضد العرب ، بل تجاه الغرب نفسه ، وايريس مولود عام ١٩٢٤ ، ومعروف بعدائه الشديد للعرب ، وهو صاحب رواية " الخروج" التى تدور أحداثها فوق سفينة تحمل مجموعة من المهاجرين اليهود متجهة الى اسرائيل ، كما كتب رواية ضد الشعب الفلسطينى تحت عنوان "الحاج" عام ١٩٨٢.

وقد نشرت رواية "طوباز" عام ١٩٦٧ وحاول فيها الكاتب أن يهاجم فرنسا الديجولية ، وذلك لموقف الجنرال ديجول من اسرائيل ، فهناك عميل فرنسى موكل من قبل الاستخبارات الأمريكية لكتابة رواية يهاجم فيها حكومة ديجول ويتهمها أنها اتجهت نحو موسكو ، ويحاول العميل الذى أرسلته الولايات المتحدة أن يكتب عن عميل سوفيتى يدعى كوزنوف ، وهو

عميل مزدوج ترك السفارة السوفيتية فى كوبنهاجن من أجل الاقامة فى الدنمارك مع زوجته وابنته ، وتحاول الزوجة "تمارا" أن تلجأ الى السفارة الأمريكية اعتقادا منها أن زوجها قد تغير ، وأصبح يحمل ميولا نحو المعسكر الغربى ، ويتلقون مساعدة من العميل الذى كتب كتابا عن فرنسا ،، فيصحب الاسرة الى واشنطن ، وهناك فى انتظارهم رجل استخبارات أمريكى يقوم باستجوابهم فى السفارة بالمدينة ، ويستلم السفير الفرنسى رسالة حول استعادة الجاسوس المزدوج بأى ثمن .

اذن ، فأهمية الرواية فى أنها تكشف أن الفرنسيين ليسوا فى نفس السلة مع الأمريكيين وأن هناك صراعا بين استخبارات الدولتين . أما من الناحية الأهم بالنسبة لدراستنا عن رواية التجسس والصراع العربى الاسرائيلى فهى أن ايريس راح يهاجم الحكومة الفرنسية التى ابدت موقفا متشددا من اسرائيل وايدت العرب . ونعتقد أن التهمة التى قدمها بأن فرنسا قد اتجهت نحو موسكو كانت واهية فى روايته . وقد علق الكاتب على هذه الرواية قائلا :"كتابى يقدم الحقيقة والتفسير الوحيد للموقف الحالى لفرنسا فى السياسة الدولية ، هذا الموقف يثير الصدمة ، لدرجة أن الناشر الفرنسى لا يريد طبع كتابى . ولانه من الأهمية للسلام العالمى (!!!) أن نعلم الناشر الفرنسى ، فأننى أطلب بشكل ملح من كل السائحين الأمريكيين الذين يذهبون الى فرنسا أن يتركوا نسخا من كتابى حتى يتمكن الفرنسيون من معرفة الحقيقة"

ويقول جابرييل فيرالدى فى كتابه "رواية التجسس" حول هذا التصريح ، انه لمن الغريب أن يتعامل ديجول مع القضية باحتقار ، ولكن الفريد هيتشكوك لم يقابل أى مشاكل وهو يصور الرواية فى باريس ، ولكن الناشرين الفرنسيين رفضوا نشر "طوباز" لانهم وجدوها عملا سخيفا . ومع ذلك قام أحد الناشرين بطبعها ، ولم تصادر فى باريس .

فرنســــا

لم تكن رواية التجسس غريبة على الفرنسيين ، فهم الذين ابتدعوا الرواية الشعبية ، كما نجحوا فى تقديم نماذج جيدة من الروية البوليسية . وقد ارتبط التجسس لدى الفرنسيين بسمعة سيئة لدرجة أن الجيش قد حرم استعمال هذه الكلمة على رجاله فى أواخر القرن التاسع عشر . واستخدم بدلا منها تعبير "المعلومات والأمن" ، وهى نفس المصطلاحات التى تستخدم حتى الآن . وفيما بعد تخفف القيد على استعمال لفظة الجاسوسية فكان النظارة فى المسارح

الفرنسية يسمعونها تتردد على ألسنة الممثلين مع بداية القرن العشرين ، وبدأت باريس تقرأ كتبا عديدة عن التجسس مترجمة من لغات أخرى ، وعلى رأسها كتاب يحمل عنوان "التجسس العسكرى فى زمن السلم والحرب" ، و "التجسس والخيانة"

وفى الرواية البوليسية ، وروايات المغامرات ، كان يمكن ظهور الجواسيس ، مثل روايات بول ديفو (١٨٥٦ - ١٩١٥) ، ففى رواية "آل مافارو" يحكى قصة المنافسة بين الفرنسيين والبريطانيين أثناء الاحتلال البريطانى لمصر ، فقد عمل الفرنسيون ، كما يرى المؤلف على تحرير مصر من الاحتلال البريطانى . وقد صورت الرواية شخصية المحافظ البريطانى لمصر على أنه شخص غبى يمكن للعميل الفرنسى أن يخدعه بعض الوقت .

ويقول جابرييل فيرالدى ، أنه مع بداية القرن العشرين لم تكن الاستخبارات الفرنسية ، أو وكالة الأعمال السرية فى أحسن حالاتها ، فقد ضاعت هيبتها ، وأن الفرنسيين رأوا أن كرامتهم تسترد من خلال سيرانودى برجراك ، الشاعر والفارس المعروف .

وفى مثل هذه الحالة ، لابد أن تكون رواية التجسس هزيلة ، وأقل أهمية ، وقد ظل الحال لا يتغير الى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، حيث أعاد رئيس الجمهورية ريمون بوانكاريه الهيبة لجهاز الاستخبارات فى عام ١٩٢٦ . وظهرت دراسات حول عمل الجهاز من الناحية التقنية ، وقد انتشرت ظاهرة كتب التجسس ، وتسابقت دور النشر على تقديمها ، مع هذا فلم يظهر كاتب فرنسى مميز فى هذه الحقبة . وفى الثلاثينات حاول شارل روبيرتوماس تقديم بعض الروايات مثل "المكتب الثانى" ، الا أنها لم تلفت الأنظار قياسا الى الكتب الشعبية التى عرفت فى مرحلة سابقة ، وفى الاربعينات برز أندريه بروبار ، وهو أحد أشهر الجواسيس القدامى ، حيث تم القبض عليه عام ١٩١٦ ، وهو فى السادسة عشرة من عمره بتهمة التجسس لحساب القوات الالمانية وبعد الحرب درس العلوم السياسية ، والتحق باحدى الوحدات العسكرية التى كانت تعسكر فى الغرب وقد تم القبض عليه فاستطاع أن يهرب .

وفى أثناء الاحتلال النازى لالمانيا ، تزعم العديد من أعمال المقاومة وظل متعاونا مع الاستخبارات الفرنسية بعد أن أنتهت الحرب . ثم بدأ فى نشر روايات تحت اسم مستعار هو بييرفورد ، ومن أهم رواياته "مات أصدقائى" عام ١٩٤٧ . و "أرض المعاناة" ، و "يوميات حرب سرية " ، و "جريمة مزدوجة عند خط ماجينو" و "فتاة من بوخارست" ، وفى هذه الرواية يذهب الكاتب الى أحد معسكرات الاعتقال فى رومانيا من أجل انقاذ فتاة من براثن

الشيوعيين .

وفى تاريخ أدب التجسس هناك أيضا جان بومار (١٨٩٤ - ١٩٧٩) وجان بريس (١٩٢١ - ١٩٦٣) وانطوان دومنيك (١٩١٧ - ١٩٨٦) أما دومنيك بوانكاريه المولود عام ١٩١٧ ، فقد كان أحد شباب المقاومة الفرنسية أثناء الاحتلال النازى لفرنسا ، كما عمل ضابطا فى الجيش الفرنسى بعد الحرب وأصبح عضوا فى الحزب الديجولى . وفى الفترة بين عامى ١٩٥٤ - ١٩٦٠ نشر مجموعة من القصص تحمل عنوان "غوريللا " ويشكل دومنيك وجها كئيبا لنا كعرب ، فقد كان أحد الضباط الذين أرسلهم ديجول لمقاومة الجزائريين ، وفيما بعد ، عين سفيرا لبلاده فى بوليفيا ثم محافظا للاستعمار الفرنسى فى الصومال .

وفى عام ١٩٦٧ قرر أن يعاود الكتابة فى مسلسل رواياته التى تحمل عنوان "غوريللا" وهو اسم مستعار لجاسوس فرنسى ترأس وكالة الاستخبارات ، وله عضلات مكتنزة ، ويقوم بمهام توكل اليه . ومن بين هذه الروايات هناك : "الغوريللا الموشومة" ، و"الغوريللا فى الوعاء الاسود" ، وقد عرف عن دومنيك أنه كان سفاحا أثناء حرب الجزائر ، وحاول أن يكشف عن العنف الذى يتسم به على صفحات رواياته ، فامتلأت بالدم . وهو كاتب لا أهمية له مطلقا ، ولم يضف شيئا ذا بال الى رواية التجسس .

ولعل جابرييل فيرالدى ، المولود عام ١٩٢٦ أحد الذين تفرغوا لكتابة دراسات عن أدب التجسس ، بالاضافة الى رواياته القليلة وقد شهد مرحلتين منفصلتين من الكتابة ، الف فى الاولى خمس روايات من أدب التجسس بدأت عام ١٩٥٣ برواية " الى ذاكرة ملاك" . ثم "الآلة الانسانية " عام ١٩٥٤، و" الصائد الجذاب " ١٩٥٦ و "المهمة " ١٩٦١ و "جاسوس حسن النيه"١٩٦٦ ، أما المرحلة الثانية فقد كتب فيها دراسات فى علوم الانسان ، الاقتصاد ، وأعد موسوعة عن العالم السرى والجاسوسية ، كما كتب دراسة "رواية التجسس " التى اعتبرناها مرجعا أساسيا فى كثير من سطور هذا الكتاب ."

أما الكاتب الذى يراهن عليه الفرنسيون فى التجسس فهو جيرادروفيلييه ، المولود عام ١٩٢٩ ، وهو كاتب بدأ بتأليف الروايات البوليسية ، ثم اتجه الى رواية التجسس ، وقد عرف بغزارة الانتاج مثلما يفعل كتاب الرواية البوليسية ، فقد نشر فى الثلاثين عاما الماضية ما يزيد عن المائتين وخمسين رواية ، حيث نشرت روايته الاولى فى هذا النوع عام ١٩٦٥ . والتاريخ هنا بالغ الدلالة ، فقد بدأ فى النشر وجيمس بوند نجما فى عالم التجسس الأدبى ،

بل كانت هناك العشرات من السلاسل الروائية تحاول أن تسير فى ركبه .

فى الفترة بين عامى ١٩٦٣ و ١٩٦٥ ، كان الكاتب قد نشر ست من الروايات البوليسية التى لم تلفت اليه أى انتباه على مستوى المبيعات ، ولذا قرر أن يبتدع سلسلة روائيه تحمل اسم (SAS) ظهرت لاول مرة فى عام ١٩٦٥ . والجاسوس فى الرويات الاولى من هذه السلسة ليس جاسوسا بالمعنى المتعارف عليه ، فهو لا يذهب الى مهمة توكله بها وكالة الاستخبارات ، بل هو صحفى ترسله جريدته من أجل اكتشاف ما يدور فى بقعة ما من العالم ، لأن هناك بقعا كثيرة من الدنيا مليئة بالسخونة والأحداث . حيث ذهب الرجل الى لبنان وكمبوديا وايرلندا وافريقيا وبولندا ، والى أحياء الزنوج فى نيويورك والسلفادور ، والامارات ، ومصر ، والعراق ، وليبيا ، وفى كل هذه المهام كان يتعاون مع رجال الاستخبارات الامريكيين أو الفرنسيين أو أحدى الدول الغربية : "رواياتى تجد فى الأحداث مادتها وشخصياتها وعقدتها" .

ومن الصعب حصر أسماء روايات دوفيلييه ، ولكننا سنذكر أسماء رواياته التى دارت أحداثها فى المنطقة العربية مثل "غرب القدس" و "شقى بغداد" و "مذبحة فى عمان" و "موت فى بيروت" و "مهمة مستحيلة فى الصومال" و "حراس اسرائيل" و "مهمة فى أبو ظبى" و "مؤامرة فى القاهرة" و "أسلحة الخرطوم" و "عملية كوماندو فى تونس" و "مجانين بعلبك" و "أرملة آيات الله" و "انقلاب فى اليمن " و "خطة ناصر " و "رهينة عمان" و "مدفع بغداد" و "انتقام صدام حسين" و " انقلاب فى طرابلس" . ومن عناوين هذه الروايات يتضح مدى اهتمام الكاتب بالمنطقة ، وكيف كانت أحداثها المتتالية بمثابة مادة خصبة لابداعه ، وفى أغلبها فان الكاتب يلجأ الى الخيال السياسى حيث تخيل أنه قد استولى على الكويت قبل هذا الحادث بسنوات فى رواية "انتقام صدام حسين" . كما تخيل أن الاستخبارات الأمريكية سترسل رجالها من تونس من أجل عمل انقلاب ضد العقيد معمر القذافى عشية الحظر الدولى وتخيل اغتيال أنور السادات قبل حادث المنصة بسنوات .

وقد اعتاد دوفلييه أن يؤلف كتاباً كل ثلاثة أشهر . وفى هذه الروايات ، يظهر مالكو ، الارستقراطى النمساوى ، وهو ساحر نساء . وكما جاء فى حديث للكاتب الى مجلة "كل العرب" . فهو يرى أن كتبه : "تجمع بين التغرب والمغامرات والقصص الواقعية والجنس والعنف ، وذلك فى قالب خاص يتضمن رؤية معينة للعالم ، إنها كتب تلتقى مع ما تحتاجه المخيلة ،

واللاوعى الجماعى عند الناس ، وعلى الأقل عند من يشاركوننى هذه الرؤية ، لهذا فكتبى تشبه الطبخ ، يمكن تقليدى ، ولكن "شيئا" سينقص دوما ، مثل "الشىء" الذى نجده فى الطبق الذى أعده الطباخ الاصيل ، ولا نجده فى طبق الطباخ المقلد . رغم انهما أعدا الوجبة ذاتها"

وقد صور الكاتب العالم بشكل سوداوى خاصة العالم الثالث الذى كتب عنه ثلث ابداعه . هذا العالم فى منظوره ملىء بالسادية ، والمويقات ، والجنس ، والخونة ، والجبناء ، والنساء المهووسات بالمال والرجال ، ويرى دوفيلييه أن هذا يضيف على الروايات النكهة أو المذاق الذى أشار اليه آنفا . وقد صور الشخصية العربية ، على سبيل المثال ، خاملة كسولة وتحب أن تكون مرتشية دوما ، وقد علق الكاتب على هذا فى نفس الحديث الذى أجرته معه مجلة "كل العرب" قائلا : "الفساد والرشاوى تؤلف جزءا من العالم الثالث ، ومن العالم العربى . . انها طريقة العيش ، كما هو الحال فى مصر ، أنا لم أبتكر طريقة "البقشيش" . والتعبير يعود اليكم أصلا ، مثلما ابتكرت زائير تعبير "مانتابيش" الذى يدل على المعنى نفسه ".(سوف نفرد حديثا خاصا لرواية "مؤامرة القاهرة" فى فصل قادم) .

من الواضح أن التجربة الفرنسية فى رواية التجسس بالغة السوء ، وأنها لا تستحق الوقوف عندها طويلا ، لكن يهمنا أن تقدم تجربة فرنسية لها أهميتها ، وهى تجربة الروائى فلاديمير فولكوف ، الروسى الاصل ، من خلال "التحول" التى فازت بجائزة الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٨١ .

وفولكوف ليس كاتبا متخصصا فى رواية التجسس مثل دوفيلييه ، الذى يفخر أنه أحد الأغنياء العشرة بين الكتاب العالميين ، ورواية "التحول" تدخل من أوسع أبواب الأدب ، فهى رواية عن الجواسيس أكثر منها رواية تجسس ، وهى الكتاب الوحيد للمؤلف فى هذه النوعية . ولد فولكوف فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٣٢ ، ثم هاجرت أسرته الى فرنسا : "قضيت طفولتى فى نورماندى ، أثناء الحرب عشت فى خطوط المواجهة الأولى ، وشاهدت عملية الانزال ، ورأيت الأمريكيين ينزلون بمدافعهم الى قريتى التى احتلها الالمان ثلاث مرات، وقد درست بعد ذلك فى ليسية كلودبرنار بباريس ، وأكملت دراسة الأدب فى السوربون ، وبعد أن حصلت على شهادتى التحقت عامين بمدرسة اليوسوعيين ، ثم سافرت الى الجزائر من أجل تأدية الخدمة العسكرية .

نشر فولكوف أولى رواياته عام ١٩٦٢ ، ثم قام بترجمة الكاتب الروسى اليا اهرنبرج

الى اللغة الفرنسية . وتعرف فى هذه الفترة على ناتالى شارلنبرج أشهر من كتب قصص الخيال العلمى فى فرنسا ، وهى أيضا من أصل روسى ، وقد نصحته أن يكتب قصص الخيال العلمى التى لم يكن قد قرأ عنها من قبل ، فأعارته بعض الكتب قام بعد أن قرأها بتأليف رواية "مترو من أجل طفل" التى فازت بجائزة جول فيرن عام ١٩٦٣ . الا أنه لم يكرر هذه التجربة وقرر أن يرحل الى بلاد العالم ، فانتقل بين كندا ، واسبانيا ، والولايات المتحدة .

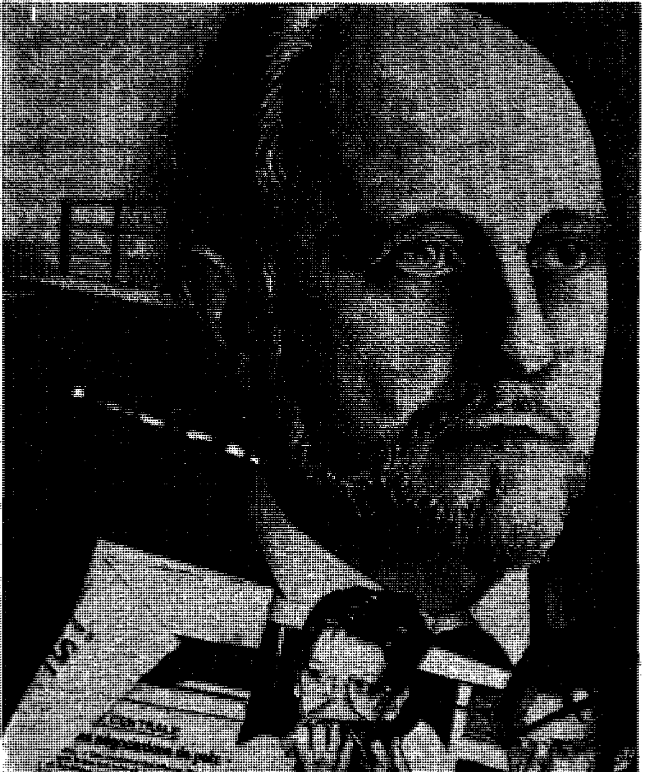
كما عاش فولكوف فى شمال افريقيا ، بين تونس والجزائر عام ١٩٥٨ ، حين كان ضابطا فى الجيش الفرنسى ، وأشارة فى أحاديثه الصحفية أنه لم يشترك فى فظائع جيش بلاده ضد الثوار الجزائريين ، لأن مهمته كانت ادارية فى المقام الأول .

ولفولكوف مجموعة من الروايات الهامة منها : رباعية "أمزجة البحر" الا أن آهم أعماله على الاطلاق هى رواية "التحول" التى تدور أحداثها ابان حكم شارل ديجول .

والراوية هنا سيريل فولسكلى ، ضابط وعميل مهدد بالبطالة ، مما يدفع بالشاب الفرنسى ذى الاصل الروسى أن يخلق لنفسه مهمة يكون مسئول عنها . ومن هنا تتولد عملية "المدفع القديم " . أما الماجور ايجور بوبوف فيعمل مستشارا لسفارة الاتحاد السوفيتى فى باريس. ويعمل لحساب الاستخبارات البريطانية ، وقد اكتشف سيريل نقطة ضعف بوبوف ، وهى "حب التلصص على النساء " ، وخاصة بعد أن ماتت زوجته ، فأصبح يعانى من شبقة وحرمانه الجنسى ، لذا لم يكن تجنيده صعبا ، فقد أرسل له الحزب احدى الشقراوات ، وهى ذات مواهب حسية متميزة ، كى تستطيع أن تثير داخل بوبوف كل شهواته ، وتعمل على حل عقده .

المشكلة هى : أين يمكن لسيريل أن يجد امرأة تتمتع بهذه الصفات ؟ يمكنها أن توقع الماجور فى حبائلها ثم تورطه . وعندما يعثر على ممثلة حسناء ذات أصل روسى أيضا ، يفاجىء أنها تكرهه ، وسرعان ما يرتب لقاء بينها وبين بوبوف فى منزل أحد الشيوعيين الفرنسيين . لكن بوبوف سرعان ما يفهم نية سيريل ، ويتعامل على أن الامر لا يعدو أن يكون تسلية ، ومن هنا يحدث التحول فى حياته ، وقرر أن يذهب الى الكنيسة كى يعترف بكل ذنوبه السابقة .

ويقول المؤلف فلاديمير فولكوف : "لم أضع قدمى قط فى الاتحاد السوفيتى ، وأنا لا أعرف جيدا ماذا يدور هناك . ولكننى كنت اقرأ عنه فى احدى المجلات التى توقفت عن



فلادمـــير فولكـــوف

الصـدور . كـمـا أنني قـابلت أثناء عـمـلي كـمـدرس في الولايات المتـحـدة أحـد الدبلوماسيين السـوفـييت . ودعوته لالقاء عدة محاضرات في الكليـة التي أدرس بهـا ، كما زارني كثيرا في منزلي . وكان بالنسبة لي بمثابة مصدر معـرفـة " وقـد أبدى فـولكوف تعـاطفـا شـديدا مع بطله ، فالانسان لا يمكن أن يسقط الى الأبد بين يديّ الشيطان ، فهو ، حتمـا ، سيـثـوب الى رشده ، ولهذا فان الجاسوس يتراجع عن قبـول أي مهـمـة تجسس مهـما كانت الاغراءات .

ويهمنا في هذا الصدد أن نذكر أن رواية التجسس لم تكن دائما عملا مثيرا ، مليئا بالغموض ، بل أن بعض الكتاب قد قاموا بتحويلها الى حكايات كوميدية طريفة مثلما فعل الروائي الفرنسي سان انطوان ، وهو اسم مستعار للكاتب فرديك وار . كما أن انطوان قد كتب روايات عديدة تتناول موضوع التجسس الصناعي ، ورغم ذلك فان مجمل أعماله اقرب الى الروايات البوليسية ، وسان انطوان كاتب من طراز دوفيلييه ، فهو غزير الانتاج ، وكتب بعض الروايات عن المنطقة العربية ، مثل "جلباب اسود في طنجة " المنشورة عام ١٩٨١ .

روســـــيا

لكن ماذا عن الطرف الآخر ، في روسيا (الاتحاد السوفيتي سابقا) ؟ لا شك أن ما لدينا من معلومات حول هذا الموضوع هو المكتوب بلغات الغرب ، سواء المنشور منها قبل البيروستريكا ، أو بعد تفكك كل الاتحاد السوفيتي . وحول هذا الموضوع تحدث جون لوكاريه

فى الحوار الذى نشرته مجلة لير - مايو ١٩٨٦ - قائلا : "حتى عهد قريب ، لم يكن مصرحا للكتاب السوفييت أن يتناولوا موضوع الجاسوسية فى أعمالهم . وأن كانت قد صدرت عدة روايات محدودة فى الآونه الأخيرة أبرزاها مجموعة جوليان سيمينوف التى تعد من أفضل ما كتب فى هذا المجال . وبداهة . فكلها تهاجم وكالة الاستخبارات الأمريكية بكل ضراوة ، وتقدم عملاء الاستخبارات السوفيتية على أنهم أبطال لا يشق لهم غبار ، واعتقد شخصيا أن السوفييت لن تكون لهم مكانة تذكر فى رواية التجسس قبل التخفيف من غلوائهم الوطنى المبالغ فيه . واذا ترك المجال فى الاتحاد السوفيتى لازدهار رواية التجسس بنفس المستوى المتوفر فى الغرب ، وخفت القبضة البوليسية الصارمة قليلا ، فلن تلبث روايات التجسس التى قد ترى النور أن تكون بمثابة القنابل الشديدة الانفجار والمفعول"

وقد كتب فلاديمير سميرتشاستنى ، الذى كان رئيسا للاسستخبارات فى عام ١٩٦١ مقالا فى جريدة "الازفستيا" حول الكتاب الاشتراكيين الذين ناضلوا ضد الدعاية المبالغ فيها عن أمجاد ونجاح العميل البريطانى جيمس بوند مؤكدا أن الاتحاد السوفيتى قد عرف روائيين يكتبون فى هذا المجال بنفس الجودة التى تحدث فى بريطانيا .

وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى ، ظهرت فى الغرب سعرة لترجمة أو نشر مذكرات رجال الاستخبارات الروسية باعتبار أن ترجمة هذا الأدب ، لا يستهوى القارىء الاوربى ، وفى عام ١٩٩٤ على سبيل المثال نشر بافل سودوبلانوف مذكراته . وقد اعتبرت مجلة "لوبوان" فى عددها الصادر فى ٢٣ ابريل من نفس السنة أن هذه المذكرات تنتمى الى أدب الخيال العلمى . والكاتب هنا هو أحد المسئولين عن قتل تروتسكى . كما كان مسئولا عن جهاز الشرطة الخاص فى عصرستالين من عام ١٩٣٩ وحتى١٩٥٣ . وقد ظل دوره غامضا في جهاز الاستخبارات السوفيتى . وهو من مواليد عام ١٩٠٩ ، وفى مذاكراته اعترف بخطته في اغتيال تروتسكى عام ١٩٤٠ ، التى حدثت فى منفى المفكر السياسى بالمكسيك . وبُعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية كان مسئولا عما أسماه بالتجسس العلمى واستطاع أن يحصل على سر القنبلة الذرية من العلماء الامريكيين . لكن برحيل ستالين وجد نفسه خارج اللعبة ، وتعرض للمحاكمات ثم خرج من السجن عام ١٩٦٨ .

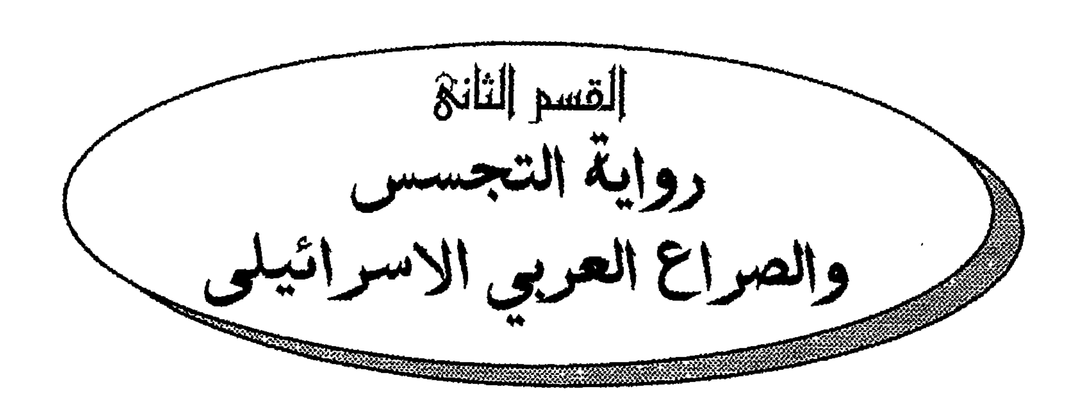
والمذكرات أملاها سودوبلانوف على الباحث الامريكى روبرت كونكست ، ولا شك أن نشر هذه المذكرات ، ايا كان شكلها يتناسب مع فكر الغرب فى الانتقام من الخصوم القدامى ،

ايا كان نشاطهم الآن . وقد كشف الفصل الخاص بالتجسس النووى عن اسلوب المؤسسة العسكرية السوفيتية . وتقول مجلة لوبوان - فى العدد المشار اليه - أن هذا الكتاب كشف عن التقنية البارعة التى استخدمها الكرملين فى مواجهة خصومه . ويؤكد الكاتب أن "الجرائم الستالينية لم تبلغ حد الجنون التى يعتقدها الكثيرون".

وقد كشف هذا الكتاب أيضا أسباب قيام خمسة من أهم جواسيس الغرب ، بالعمل لصالح السوفييت ، وأن ثلاثة من هؤلاء الخمسة قد أصبحوا مواطنين سوفييت . وهم كيم فيلبى ، بيرجيس ، وبلونت ، وماكلين ، وكرن كروس . وحول هذا الموضوع نشر الكاتب الآن دورويب كتابا يحمل عنوان "جاسوسى الطيب" وفيه يقول أن هناك لحظة ما يحس فيها الجاسوس أنه منقسم على نفسه وأن الامور تتساوى بالنسبة له . وانه مع وضد الآخرين فى نفس اللحظة . كما أن صورة الجاسوس كما تظهر فى الروايات والأفلام كثيرا ما يكون مبالغا فيها . ولذا فانه يتوق الى نوع جديدة من الحياة .

ويرى المؤلف أن منظور التاريخ للجاسوس قد تغير ، ففى القرن الثامن عشر ، كان يعتبر رجلا كريها باعتباره يتدخل فى الحياة الخاصة للبشر . أما القرن التاسع عشر ، فقد انفصلت فيه القيم الروحية عن القيم الحياتية الخاصة التى تسمح للجاسوس أن يكون بطلا . ،منذ تلك الآونة ، أصبحت أعماله الكريهة مشروعة ، خاصة من قبل وكالات الاستخبارات التى يتبعها ، ويعمل لخدمتها .

وفى نفس العام ١٩٩٤ تمت ترجمة العديد من الروايات التى تتناسب مع الفكر الغربى، مثل "الكلمة المبعوثة فى أرشيف الاستخبارات السوفيتية" التى ألفها فيتالى شنتالينسكى والتى اخترق فيها الكاتب حصن وكالة الاستخبارات فى الاتحاد السوفيتى .


القسم الثاني
رواية التجسس
والصراع العربي الاسرائيلى

القسم الثانى

رواية التجسس
والصراع العربي الاسرائيلي

ارتبط ظهور رواية التجسس فى أى بلد من بلدان العالم بعدة ظواهر ، أولها وجود صراعات سياسية بين هذه الدولة وبين دول أخرى ، مما يدفع كل طرف الى التعرف على أسرار الدولة الأخرى عسكريا فى المقام الأول . فيزرع جواسيسه من أجل الحصول على المزيد من المعلومات الهامة .

وأغلب روايات التجسس ، على درجات أهميتها ، مرتبط بالصراعات العسكرية والسياسية ، خاصة ابان الحروب . مثل الحرب العالمية الأولى التى أفرزت جاسوسة من طراز ماتاهاري التى أستوحى من حياتها عشرات الروايات والافلام . ثم الحرب العالمية الثانية التي برع فى أروقتها جواسيس من طراز جون آبلر . وايدى تشابمان . والحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى التى أفرزت كل من بلونت بيرجيس وكيم فيلبى . ثم الصراع العربى الاسرائيلى الذى أفرز رأفت الهجان ، وعبلة كامل ، وآخرين .

وقد ترك أغلب الجواسيس خلفهم قصصا مثيرة للغاية يمكنها أن تلهب مشاعر الوطنية لدى الشعوب التى ينتمون اليها . ولذا راح الروائيون يستخرجون من ملفات الاستخبارات أهم حكايات التجسس وأكثر الملفات اثارة ، وراحوا يقدمونها الى القراء ، والدوافع متعددة فى هذا الامر ، فاما أن يكون بدافع الوطنية مثلما فعل كل من صالح مرسى وابراهيم مسعود فى ابداعهما . ثم بدافع البحث عن الحقيقة مثلما فعل جون لوكاريه وهو يكتب روايته عن "الطبالة الصغيرة " .

تعددت الاطراف فى الصراع العربى الاسرائيلى ، ولعبت أكثر من وكالة استخبارات دورا فى عملية أو أكثر ، لصالح طرف ضد آخر . وبشكل عام فان هناك طرفين : العرب

وقضيتهم ، ثم اسرائيل ووكالات الاستخبارات الغربية ، خاصة فى الولايات المتحدة وبريطانيا

وقد اخترنا أن نتحدث عن مجموعة من النماذج الروائية التى تناولت الصراع العربى الاسرائيلى . اخترنا للكاتب البريطانى جون لوكاريه روايته "الطبالة الصغيرة " ، ثم روايتين لكاتب بريطانى آخر هو كين فوليت ، ورواية لكاتبين اسرائيليين هما بن بورات ويورى دان . كما سنقدم نماذج فلسطينية وفرنسية . ثم تقدم صفحات خاصة حول صالح مرسى باعتباره أهم من كتب روايات النوع فى اللغة العربية .

كان لابد لروائى مثل جون لوكاريه أن يطرق مسألة الصراع العربى الاسرائيلى باعتباره خصص بعض رواياته عن المناطق الساخنة فى العالم . وقد بدا الحذر أن يتناول الكاتب هذا الصراع من منظور منحاز تماما للصهيونية ، حيث كشف فى بعض رواياته عن تعاطفه مع اليهود . خاصة دور الضابط فيدلر فى روايته " الجاسوس الذى أتى من الصقيع ". فهو يعانى كثيرا من الضابط النازى ويسعى للايقاع به . وينجح فى أن يجعله يموت عند جدار برلين على أيدى الجنود الشيوعيين . وهو يساعد الجاسوس البريطانى اليك لاماس فى الهروب عبر جدار برلين مع حبيبته الشيوعية .

وقد صدم لوكاريه العديد من الاوساط السياسية والادبية فى الغرب حين طلع عليهم برواية "الطبالة الصغيرة" عام ١٩٨٣ ، وكان قد سبق له أن سافر الى جنوب لبنان عدة مرات . ومنها زيارات بعد الغزو الاسرائيلى للبنان فى عام ١٩٨٢ . وبينما هو يدفع روايته الى الناشر البريطانى ، راح يكتب مقالات في بعض المجلات منها ما ترجمته مجلة "لوبوان" – فى ٢ يونيو ١٩٨٢ – أى فى قمة الغزو الاسرائيلى للبنان ، قائلا تحت عنوان : " لبنان ، ائيل ، أشياء مرئية " أن السيد ياسر عرفات قال له : " نحن منفيون ، ولم يبق لنا سوى ، وطننا ، لكن اليهود سرقوه منا وليس وراءهم سوى الاساءة الينا ، انهم قوم لا يملكون وعى الهادىء ، لذا يفكرون فى قتلنا " .

ورواية "الطبالة الصغيرة" هي بلا منازع أهم رواية جاسوسية مكتوبة باللغة الانجليزية حول الصراع العربى الاسرائيلى . وقد أثارت الرواية غضب الاوساط الصهيونية . والمؤيدين لها عقب صدورها . وبدأت علاقة لوكاريه مع المنظمة فى عام ١٩٧٧ عقب الانتهاء من روايته "تلميذ شريف" ، فراح يزور لبنان والاردن وسوريا واسرائيل ، ثم عاد الى بلاده وكتب رواية "عشيرة سمايلى " . وفى عام ١٩٨٠ عاد لوكاريه مرة أخرى الي المنطقة . والتقى – كما

ذكرنا - بالزعيم الفلسطيني ياسر عرفات ، وتجول كثيرا في المعسكرات الفلسطينية بلبنان ، ثم توجه الى اسرائيل ، وراح يسأل ضباط المعلومات الاسرائيليين عن طبيعة النزاع ، ثم انتقل الى الأراضى الفلسطينية المحتلة . وكان كلما التقي بشخصيات جديدة يجد الآفاق تتفتح أمامه أكثر . ثم سافر الى بون ، وتجول في حى الدبلوماسيين بالمدينة ، والذى أصبح مسرحا للفصل الاول من روايته وهناك تعرف على بعض العملاء الاسرائيلين ، وعرف أن هناك محاولة من رجال الموساد لاصطياد فدائى فلسطينى .

وبدأت خيوط الرواية فى نسج نفسها بمخيلة الكاتب ، فراح يمزج حكاية المناضل خليل مع ما عرفه عن الفلسطينين من صلاح الغمرى ، قائد الاشبال NPG فقد علم أن اسرائيل قامت باعتقاله ،ووضعه فى معسكر اعتقال ، ولحسن الحظ ، ظل لوكاريه قريبا من صلاح عدة اسابيع ، أقام خلالها في بيته . ومن ملامح صلاح استقى لوكاريه شخصية خليل فى روايته "الطبالة الصغيرة " .

تبدأ الرواية فى الحى الدبلوماسى بألمانيا الغربية ، حيث تقف فتاة بريئة أمام باب منزل الملحق التجارى الاسرائيلى ، وهى تحمل جيتارا وتسأل عن المربية ، وتخبر الملحق أنها تحمل للمرأة حقيبة تضم مجموعة اسطوانات مفضلة . ولان المربية في اجازة فان الملحق التجارى يأخذ الحقيبة من الفتاة ، ويضعها فى غرفة المرأة لحين عودتها . لكن الحقيبة تنفجر فور انصراف الفتاة صاحبة الجيتار . ويموت طفل صغير هو ابن الملحق التجارى .

وعلى الفور ترسل الموساد عميلها كيرتز من أجل التحرى .ويعرف أن وراء العملية مناضل فلسطينى يدعى سالم ، ويطلق على نفسه اسم ميشيل ، وصور لوكاريه هذا المناضل أنه متمرد ، وأرعن ، ولا يستمع الى أوامر رؤسائه . لذا سرعان ما وقع بين أيدى عملاء الموساد الذين اختطفوه فوق أحد الطرق السريعة ، وسرعان ما ينكشف أن "سالم" ليس هو هدف الموساد ، بل هناك خطة للايقاع بأخيه المناضل خليل .

وقد رسمت الموساد خطتها بدقة ، فسعت أولا الى تجنيد ممثلة انجليزية تعمل فى مسارح لندن من أجل أن تساعدهم فى الايقاع بخليل ، هذه المرأة تنتمى الى الطبقة المتوسطة فى بريطانيا ، ذات قلب نبيل ، وهى امرأة مثقفة ومتمردة ، كما أنها متحررة ، حيث ارتبطت بعلاقات عديدة مع رجال آخرهم اليستر . ومن أجل ابعاد هذا الرجل عنها دفعت الموساد رجلا منها يدعى يوسف . يتسم بأنه غامض ، ووسيم ، ومنعزل وواثق فى نفسه . وفى احدى الجزر

تتعرف شارلى على الرجل ، وتفاجأ أن صديقها اليستر قد تلقى برقية تطلب منه العودة الى بريطانيا من أجل توقيع عقد فيلم قد يكون سببا فى انتقاله من صفوف الدرجة الثانية الى النجومية .

ويتحدث لوكاريه أن كل هذا من تدبير رجال الموساد . ومن خلال مجموعة من المواقف تقترب شارلى من الرجل الغامض الذى يحوط نفسه بهالة من الأسرار : " أنا متقاعد ولدىّ من المال الذى ورثته ما يكفينى طوال حياتى : . وتكتشف أن للرجل أسماء عديدة ، شأن كل الجواسيس ، وأنه يتعمد أن يضع حول نفسه هالة تزيد من جاذبيته لها لتعرف مكنونه . فتحول الى كائن مطيع له . ويحكم سيطرته عليها ، ويحدثها عن التمثيل الذى تحبه . ثم يطلب منها أن تؤدى دور حياتها فى تمثيلية حقيقية تذهب من خلالها الى بيروت ، لتتعرف على أسرة فلسطينية بوصفها حبيبة ابنها المناضل سالم . من هناك يمكنها أن تنضم الي المقاومة ، وتبلغ أخبارها الى رجال الموساد .وعندما تتمرد تشارلى على هذا الدوريصحبها يوسف الى كيرتز ، فتحس أنها وقعت فى مصيدة ليس من السهل الخروج منها ، وتكتشف أن لدى هذا التنظيم الكثير من المعلومات عنها ، فلقد سرقوا القصاصات الصحفية الخاصة بها ، وراحو يعملون على تضييق الخناق حولها . متهمين اياها بأنها ذات ميول يسارية ، ويمكن لهذا أن يقلب كل الامور ضدها .

يسألها كيرتز : هل تكرهين اليهود ؟ وهل تظنين أنهم أشرار بطبعهم ؟ أو أن لهم رائحة خاصة ؟

قالت: من قال ذلك ؟ . أنا لست عنصرية .

سأل كيرتز : هل تعتقدين أنه يجب القاء اسرائيل فى البحر ؟وأننا نحن سكان اسرائيل من اليهود يجب أن نعود الى المجر ، بولندا ، والاتحاد السوفيتى ؟ أن نعود من حيث أتينا لنبدأ حياتنا هناك من جديد ؟ اننا نعرض عليك أن تقومى بعمل لمساعدتنا . لمساعدة الاطفال والنساء لمساعدة الابرياء من كل سن ومن كل جنس ، واذا كنت لا تريدين فيمكنك الانصراف الآن . أما اذا كنت موافقة فسوف نعرض عليك تفاصيل ذلك العمل بكل وضوح ، ما رأيك يا تشارلى . الوقوف بجانبنا لايعنى ذلك أنك ستكونين مقيدة وملتزمة فى تلك الحالة بترتيب حياتك ، ثم نتركك لتعيشى حياتك ، أو نتحفظ عليك فترة قبل اطلاق سراحك .

" جلست تشارلى تصغى اليه ، وكيرتز يعلم أن مجرد اصغاء المرأة يعنى موافقة ضمنية



الطبالة الصغيرة

سألها كيرتز :

- هل التقيت بشخص اسرائيلى قبل اليوم ؟

- لم أقابل أحدا عُرف عنه أنه اسرائيلى .

- هل نثير اشمئزازك لأننا يهود ؟

- لا تكن سخيفا . فلست أنا التى تؤمن بأفكار كهذه .

- اذن ، أخبرينى ، يا تشارلى ، هل أنت من مؤيدى القضاء على اسرائيل ؟ هل تفضلين بأن يأخذ اليهود قطعة فى وسط افريقيا ؟ هل ترين أننا يجب أن نقيم فى أورجواى ؟ لا تقترحى علينا أن نستوطن مصر ، شكرا جزيلا ، لا نريد ذلك . . فقد حاولنا ذلك مرة وفشلنا ، أم رأيك هو أن نوزع أنفسنا على الجيتو اليهودى فى مختلف بلدان أوربا وآسيا انتظار للمذبحة الآتية ؟ ما رأيك يا تشارلى ، قولى شيئا .

"وتكلمت تشارلى :

- كل ما أريده هو أن تتركوا العرب التعساء وشأنهم .

- ابتهج كيرتز لأن مجرد الرد يعنى أنه قبلت الحوار معه :

- عظيم . . . وكيف تفعل ذلك بالتحديد ؟

" قالت تشارلى :

- توقفوا عن قصف معسكراتهم بالقنابل ، وعن طردهم من أرضيهم ، ونسف قراهم ثم تسويتها بالجرارات ، قفوا عن تعذيبهم فى السجون الاسرائيلية (انظر روايات الهلال فى يوليو ١٩٩٤)

بعد حوار طويل بين الطرفين اخترنا منه هذا المقطع الذى يتم فيه تجنيد المرأة ، وتستعد للسفر الى لبنان بوصفها صديقة سالم . وقبل أن يبدأ التنفيذ يتم اصطحابها لرؤية الفدائى الفلسطينى ، لقد حبسوه عاريا فى غرفة ضيقة .. وجعلوها تتأمل جسده بدقة . ثم يتم تدريبها وسط الضغط على أعصابها . لكنها لا تستسلم بسهولة تردد : « لقد قتلت اسرائيل عددا كافيا من العرب .. انتم جميعا سفلة أليس كذلك ؟ أنت أكبر سافل، لأنك تمثل دور الانسان الحزين .. ثم تتقمص بعد دقيقة واحدة دور المحارب الشرس ، والحقيقة أن أى واحد منكم ليس سوى يهودى ضئيل متعطش للدماء ، ولتلك الأرض ..

وتمكنت تشارلى من اتقان لعبتها . فانضمت الى صفوف اليساريين المؤيدين للثورة الفلسطينية فى أوروبا ، ثم سافرت الى لبنان وتتعرف على فاطمة شقيقة سالم . وعاشت مع الفلسطينيين فى المخيمات . وأرسلت الى الاسرائيليين معلومات مفصلة عن كل ما رأته وسمعته.

تتعرف على خليل ، شقيق سالم ، وتكتسب ثقته الى أن يقوم بتكليفها بعملية فدائية فى أوروبا ، أعطاها قنبلة فى حقيبة ، وطلب منها أن تضعها فى مقر اقامة أستاذ جامعى معروف بتأييده للصهيونية .

وتولى رجال الموساد الأمر ، حيث قاموا بأداء تمثيلية وكأن العملية نجحت ، وتعود الى خليل الذى يباركها على ما حققته فيذهبان الى مسكن بعيد للاحتفال بهذه المناسبة ، وعلى شاشة التلفاز تذيع نشرة الاخبار فقرة عن القنبلة التى تفجرت ، يقول لها : سنكون الليلة بمأمن ، وغدا نهربك الى برلين . ثم نرسلك الى وطنك

تساءلت : أى وطن ؟

- أنت واحدة منا . فاطمة تقول أنك أخت لنا . أنت الآن بلا أهل . لكنك معنا جزء كبير من أسرة كبيرة . سنعد لك أوراقا شخصية جديدة

لكنه يشعر فى كلامها أن هناك شيئا خطأ . خاصة حين يلاحظ أن هناك حجارة جديدة فى المنبه، يحس أن رجال الموساد يقتربون من المكان . ويحاولون تضييق الخناق عليه .. يسألها :

- هل أنت يهودية ؟

- لا ..

- هل تؤمنين أن اسرئيل هى هدفك .. من أنت ؟

- أنا لاشىء .. أنا لا أحد .

- هل أنت مسيحية ترين فيهم مؤسسين لدينكم العظيم ؟

تهز رأسها نفيا .

- هل من أجل النقود .. ؟ هل رشوك ؟ هل ابتزوك ؟

وتبدأ فى البكاء ..

ويقول : أنت من نفس صنف الانجليز الذين سلموا بلادى للصهيونية.

ويدخل يوسف ورجاله ليطلقوا عليه النيران ، وتصرخ شارلى بينما يعلن فى وسائل الاعلام عن مقتل ارهابى أثناء اختطافه رهينة بريطانية .

وتعود تشارلى الى بريطانيا . كيان محطم ، وتفشل فى الوقوف على المسرح ، وتكتشف أن يوسف قد انهار مثلها عقب هذه العملية ، وهذه نقطة ضعف فى الرواية . فيوسف يعتقد دوما أنه قتل العديد من الفلسطينيين ، وكان السبب فى تحوله عن الموساد ضعيفا ، وغير مبرر .

تجىء أهمية هذه الرواية فى اطار « الصراع العربى الاسرائيلى » أنها كانت على قمة المبيعات منذ صدورها . ولم يمض سوى عدة أشهر الا وقدمتها السينما الامريكية فى فيلم لم يحقق نفس نجاح الرواية قامت ببطولته ديانا كيتون مع كلاوس كينسكى وسامى فراى . وقد حاول المخرج جورج روى هيل مغازلة الأوساط الصهيونية ، فجاء الفيلم بنتيجة معاكسة . أما

لوكارية فيقول : « كنت متأكداً أننى سأتعرض لكمية كبيرة من نيران المدافع المضادة ، خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، لمجرد القول أن هناك أى حق بجانب الفلسطينيين لكننى فى ست من رواياتى التسع ، التى كتبتها ، تناولت اليهود بتعاطف تام ، واذا كان لانسان غير يهودى أن يقول أن الحق ليس مع الاسرائيليين ، وأن زمام الأمر قد أفلت من أيديهم ، وأنهم فقدوا السيطرة على الموقف ، فأفترض أننى اكتسبت هذا الحق » .

وقد بدا أن لوكاريه يريد تقديم صورة المناضل الفلسطينى بوجهها الحقيقى . فهو ليس ذلك الارهابى الذى تصوره وسائل الاعلام الغربية .. ولكنه الباحث عن الحق فى أن يعود الى أرضه التى طُرد منها ، واذا كانت الموساد قد نجحت فى اغتيال خليل وتنفيذ خطتها ، فان المؤلف قد كشف عن الوسائل التى يتم بها تلفيق الأخبار فى وسائل الاعلام أن ارهابيا اختطف فتاة . رواية لوكاريه اذن « مهما قيل حول مضمونها وبراعة كاتبها فى السير بين النقاط .. الا أنها ذات بنية روائية متماسكة . وأسلوب أخاذ وتماسك ملحوظ تضعها فى مرتبة مرتفعة لروايات من صنفها . لكن الفيلم الذى حاول أن يكون أمينا من ناحية السرد ، فاق الرواية فى تصوير شخصياتها الفلسطينية وجعل من البطل الشريف الذكى ، النبيل ، انسانا بشعا يتصنع الذكاء و النبل . لكن بالرغم من كل التملق للاعلام الصهيونى ، بقى الفيلم محلولة صغيرة خانقة ويائسه بالرغم من الامكانيات التى سُخرت له ». (مجلة جديدة مونت كارلو . يونيه ١٩٨٥) .

والجدير بالذكر أن عنوان الرواية مستمد من أغنية تراثية مسيحية تغنى فى الضفة الغربية أثناء أعياد الميلاد . ورغم أن الرواية غير مستوحاة مباشرة من ملفات أى وكالة ستخبارات لكنها تبدو وكأنها قراءة فى ملفات الموساد ، وتعكس بعضا من صور الصراع ربى الاسرائيلى فى مجال الاستخبارات والنضال العربى. خاصة فيما يدور فى أروقة أوروبا وهى لا تنحاز لوكالة استخبارات ، بل تدين الموساد رغم نجاح العملية ظاهريا . وتؤكد أن باح العملية قائم فى المقام الأول على ممارسات قذرة .

وهذه الرواية هى العمل الأدبى الوحيد للكاتب الذى تمت ترجمته الى اللغة العربية ، حيث نشرت فى روايات الهلال فى عدد يوليو عام ١٩٩٤ .

*****

الكاتب الثانى الذى خص جزءا من ابداعه حول الصراع العربى الأسرائيلى هو كين

فوليت الذى بدا متأثرا بمواطنه البريطانى ، ولكنه يختلف فى أنه استعان فى الروايتين اللتين كتبهما عن الصراع العربى الاسرائيلى بملفات المخابرات البريطانية والاسرائيلية ، ورغم أن روايته « المفتاح ربيكا » أو « كلمة السر ربيكا » المنشورة عام ١٩٨١ تدور أحداثها ابان الحرب العالمية الثانية ، فان المؤلف قد كشف عن دور الوكالة اليهودية فى القاهرة ، فى القبض على جون آبلر ، الجاسوس الألمانى الذى عاش سنوات فى المدينة ينقل أخبار الحلفاء الى المانيا .. وهو اسم حقيقى لشخص عُرف ايضا تحت حسين جعفر ، ورغم أن المؤلف قد تعمد الالتزام بالواقع ، فانه اختار اسما روائيا لهذا الجاسوس هو اليكس فولف .

ولد آبلر فى مدينة الاسكندرية عام ١٩١٤ وسجلته أمه السيدة آبلر فى القنصلية الالمانية كطفل المانى . ولكنه ما ان إجتاز مرحلة الطفولة حتى أدرك أن أباه مات . أو اختفى وأنه يعيش فى بيت مصرى . فقد تزوجت أمه من محامى مصرى يدعى صالح جعفر أطلق تسمية حسين جعفر على الصغير . وحول قصة هذا الجاسوس قدم ليونارد موسلى الضخم «القط والفأر » . وقد قام العديد من المجلات العربية بنشر مقالات عنه ، منها لصالح مرسى فى مجلة « الهلال » - عدد شهر أكتوبر ١٩٨٧ - ردا على كاتب هذه السطور . ثم مقال فى مجلة « آفاق عربية » سبتمبر ١٩٨٧ - وهى أكثر شمولا . كما أن صالح مرسى تناول حياة هذه الشخصية عرضا فى حديثه عن « رأفت الهجان » فى روايته التى تحمل نفس الاسم ، كما تحدث عنها مجددا فى كتابه « نساء فى قطار الجاسوسية » ، وكتب عنها أيضا حسين عيد كتابا ، واستمد بشير الديك قصة حياتها من عدة مصادر وحولها عام ١٩٩٤ الى فيلم قامت ببطولته نادية الجندى وأخرجه حسام الدين مصطفى تحت عنوان « حكمت فهمى » .

تبدأ رواية فوليت فى عام ١٩٤٣ ، حيث وصلت قوات روميل الى مدينة طبرق على الساحل الليبى ، وها هى بضع كيلو مترات ويمكن للقائد الالمانى أن يدخل مصر ، وأن ينتصر علي القوات البريطانية ، وقد أحس الانجليز بهذا الخطر فعلا ، فقاموا باحراق وثائقهم الهامة لدرجة يقال عنها أن سماء القاهرة تحولت الى كتلة من الرماد الاسود لكثرة ما احترق من وثائق . ومن أجل الحصول على هذه المستندات قبل أن تحرق ، أرسل الالمان جاسوسهم اليكس فولف الذى جاء الى القاهرة من الصحراء . ولم يدخلها من خلال الموانىء أو المطارات . جاء حاملا حقيبة صغيرة بها جهاز ارسال ونسخة من رواية « ربيكا » للكاتبة الانجليزية دافنى دى موريه (١٩٠٧ - ١٩٨٩) ، والتى على صفحاتها سُجلت شفرة الاتصال للعملية التى جاء من أجلها .

وفى القاهرة يقيم فولف عند راقصة مصرية تنقل له يوميا البيانات الى روميل . ويحدث أن يختفى قائد كبير فى الاستخبارات البريطانية بسبب عاطفى ، الا أن حبيبته اليهودية تقرر أن تستخدم أنوثتها للانتقام لحبيبها ، وللايقاع بالرجل الذى كان السبب . وهذه المرأة المصرية عضو فى الوكالة اليهودية ، تدعى « ايفيت » ، وهى كما تزعم - من أصل لبنانى فرنسى . وقد دعاها فولف إلى عوامته حيث كان هناك صديق ثالث . وبعد ليلة حب منح كل من الرجلين للفتاة عشرين جنيها استرلينياً ، مما جعلها تشك فى مصدر هذا المبلغ الكبير . و «هنا يجب أن نتوقف قليلا كى نتأمل الى أى مدى كانت أجهزة الاستخبارات الاسرائيلية ، وكانت الوكالة اليهودية واحدة منها - على درجة عالية من التدريب فى نفس الوقت (مجلة الهلال ، أكتوبر ١٩٨٧) .

ويروى فوليت سببا آخر أخطأ فيه فولف . فقد وصل السفير الالمانى فى القاهرة الى احدى المكتبات واشترى نسخة من رواية « ربيكا » ، وبعد أيام جاءت زوجته واشترت نسخة أخرى . فقام صاحب المكتبة بابلاغ وكالة الاستخبارات البريطانية ، ولم يستطع أحد حل هذا اللغز ، الى أن تم اعتقال بعض الجنود الالمان الذين تاهوا فى الصحراء ، فعثر معهم على أجهزة لاسلكية ونسخة من نفس الرواية ، وهكذا تم حل الشفرة . عادت المرأة اليهودية للظهور من أجل الايقاع بالجاسوس فولف .

وايفيت امرأة يهودية لا يهمها أن تكون لبنانية أو فرنسية . المهم أنها تعمل لمصلحة الصهيونية العالمية للوقوف بجانب الحلفاء من أجل القضاء على الالمان أو النازية . وليست هذه هى المرأة اليهودية اللبنانية فى رواية لنفس الكاتب . ففى روايته الثانية عن الصراع العربى الاسرائيلى « العميل ذو الوجوه الثلاثة» TRINAGL سوف نرى امرأة لبنانية تخون زوجها ووطنها من أجل جاسوس اسرائيلى .

وهذه الرواية مأخوذة عن حدث حقيقى أضفى عليه الكاتب الكثير من خيالاته ، فقد ارسلت وكالة الاستخبارات الاسرائيلية (الموساد) عميلها عبر البحر المتوسط من أجل أن يستولى لبلاده على شحنة ضخمة من اليورانيوم . وتقول مجلة (لوبوان) - ٤ يوليو ١٩٨٣ - أن فوليت استمد أحداث هذه الرواية من واقعة حدثت عام ١٩٨٦ ، حين ارادت اسرائيل أن تجلب طنا من اليورانيوم فى سرية شديدة . ودون أن تحوم الشكوك حول هذه العملية ، فأرسلت أحد عملائها الي أعالى البحر ، واستطاع تهريب شحنة من اليورانيوم كانت متجهة الى

الاتحاد السوفيتى .

وقد أحيط هذا الحادث بسرية تامة ، حتى أسفر النقاب عنه عام ١٩٧٧ حيث أذيع أن اسرائيل استطاعت أن تصنع قنبلة ذرية تحتفظ بها فى صحراء النقب .

ويرى فوليت فى روايته أن العميل الاسرائيلى ناثان قد تعرض لمصاعب عديدة ، حين وجد نفسه يواجه ثلاثة من العملاء المنافسين . أحدهم روسى يداعى دافيد روستوف ، والثانى فلسطينى يدعى واصف حسان . وهو يعتبر عميلا ثلاثى الوجوه ، حيث يعمل لمصلحة منظمة التحرير الفلسطينية ووكالة الاستخبارات المصرية ولمصلحة الاتحاد السوفيتى . أما العميل الثالث فهو مصرى .

أما ناثان ديستنيتين ، فهو يهودى هاجر الي اسرائيل واكتسب شهرته لتبنيه أشهر عمليات الموساد . وقد استعان ناثان فى عمليته برجل من منظمة المافيا الايطالية للتخلص من العملاء المنافسين .. يلتقى الجميع على المائدة فى منزل ستيفن آشفورد مدرس الادب وزوجته اللبنانية وابنتهما الصغيرة سوزا ، كل منهم يخفى هويته عن الآخرين . لكن موضوعا واحدا يجمعهم للنقاش . وهو أن مصر تبحث فى شأن بناء مفاعل نووى فى الصحراء الغربية ، يدلى كل منهم برأيه فى هذه المسألة دون أن يكشف أحد نيته الحقيقية . فكل منهم يعرف حقيقة الآخر ويريد التخلص منه . الا أن ناثان عرف كيف يدخل الى قلب الأسرة ، فيتقرب الى الصغيرة سوزا . ومنها يدخل الى قلب الزوجة التى يمكن أن تنقل له الكثير من الاسرار عن زوجها الذى يعرف سر الشحنة التى يتم نقلها سرا. ويتمكن ناثان بالفعل من الحصول على معلومات حساسة قبل منافسيه. وينجح فى نقلها الى وكالته التى تتولي نقل شحنة اليورانيوم فوق سفينة بضائع اسرائيلية .

وتقول مجلة لوبوان – فى العدد المشار اليه – أن فوليت قد صاغ هذه الرواية من خلال وثائق بالغة الدقة . وأنه مثل كل كتاب هذا النوع من الأدب ، قد صاغ خيوطه من الحقائق ، وهو يسن قوانين الصراع فوق البحر . وتقول المجلة أن كين فوليت ليس جراهام جرين حيث يفتقد الى الابعاد الميتافيزيقية اللازمة للاشخاص . الذين يتصرفون بلا دافع . ويهتم الكاتب بالاحداث من الخارج . وهو يكثر من تساؤلاته عما سيحدث غدا لابطاله مما يزيد من اللهاث خلف شمس لا يمكن لأحد أن يعرف متى ستشرق من مرقدها ، ولا متى ستنام فى مغربها.

ومن الملاحظ أن الانجليزى فوليت ، قد استقى روايته من ملفات الموساد مباشرة .

وليس من وكالة الاستخبارات البريطانية ISIS التى لم تتدخل فى هذه العملية من قريب أو بعيد . وهكذا كانت بقية روايات الكاتب بمثابة تمجيد لعمليات الاستخبارات الغربية مثل روايته « كذبة الأسد » التى تكشف عن دور الاستخبارات الغربية فى افغانستان .

وقد راح العديد من الكتاب يحاولون لمس موضوع الصراع العربى الاسرائيلى من خلال العديد من روايات التجسس ، فالى جانب جون لوكاريه وكين فوليت ، دخل فى الحلبة أدباء آخرون أقل أهمية بروايات تنتمى الى حرف «ب» ومن بين هذه الروايات « الدور على عرفات » للكاتب البريطانى ليونيل بلاك التى كتبها عام ١٩٧٩ فى الفترة التى راح الاعلام الغربى يصور الفلسطينيين على أنهم قوم ارهاب .

ويعتمد هذا النوع من الروايات على وضع الحقائق التاريخية ، الي جانب حكاية متخيلة مليئة بأسباب الاثارة . تبدأ الرواية بشاب يدخل مكتب شركة تجارية اسرائيلية فى لندن ، وقبل أن تسأله الموظفة عم يريد ، يكون قد رمى بحقيبته تحت قدميها ، ويسرع بالفرار هاربا ويثير هذا الموقف هلع الموجودين بالشركة . الا أن أحد الموظفين بسرع بالتقاط الحقيبة . وينزل السلالم مسرعا متوجها نحو الحديقة القريبة وكانت خالية من الناس في هذا الوقت من النهار ، ولكن نتيجة لسرعته ارتباكه . يصطدم برجل ، فتسقط الحقيبة وتنفجر ، ويموت الرجل، وهو انجليزى يدعى انطونى دانتون ، أما الموظف الاسرائيلى فيصاب أيضا فى الانفجار .

فى صباح اليوم التالى تعلن احدى المنظمات مسئوليها عن الحادث ، ويتم تشييع انطونى دانتون فى جنازة بسيطة ، وعقب الجنازة يعلن شقيق القتيل لأخيه التوأم أنه لابد من الانتقام ، فيرد شقيقه : سنحاول القبض على واضع القنبلة ، ثم نسلمه للشرطة .

يعلن جايلز الشقيق : هل سنفعل ذلك لكى تقوم جماعة من اصداقائه باختطاف طائرة . وتهديد الحكومة من أجل اطلاق سراحه ؟

– فيم تفكر اذن ؟ هل نقبض عليه نحن ونقتله ؟

– لا . لن نقتله هو ، بل نقتل ياسر عرفات ، رئيس الفلسطينيين وقائدهم .

فيرد شقيقه :

– اسمع ياجايلز ، لقد كنت فى المنطقة منذ فترة قريبة . وأعرف الكثير من الثوار

العرب ، عرفات ليس ارهابيا . انه رجل مثقف وصاحب حق عنيد . جرت عدة محاولات لاغتياله فشلت جميعها .

- لكنه لن يفلت منى .

كلام فارغ ، وأريد أن أخبرك أن عرفات هو الشخص الوحيد العاقل فيهم . وهو ليس وراء الارهاب بل يحاول أن يمنعه . واذا ذهب عرفات فستكون فرصة لمجموعة من المتوحشين ليدبروا الأمور .

وأثناء الجنازة ، تتدخل وكالة الاستخبارات البريطانية في الأمر ، فهناك ضابط يدعى كينارد حاول أن يعرض خدماته على الاخوين دانتون ، فيرد جايلز :

- ليس هذا عمل ادارة الاستخبارات .

ويؤرق هذا الرد الضابط كينارد . ويقلبه فى ذهنه ، وسرعات ما يفهم أن جايلز يود أن يتصرف على هواه فى هذا الامر . ويتجه الى ادارته ، ويطالب بفتح ملفات الاخوين ويعرف أن جايلز قد عاش بضع سنوات فى منطقة الشرق الاوسط أثناء الحرب العالمية الثانية ، بين القاهرة والاردن وسوريا وفلسطين . حيث اختار أن يستقر بعد انتهاء الحرب . ونتيجة لاجادته اللغة العربية فقد كان يتنكر فى الزى العربى . ويندس وسط العرب ويزود البريطانيين بالمعلومات ، ثم تقاعد بعد انتهاء الانتداب البريطانى فى فلسطين .

أما الشقيق الثانى ، فقد كان يخدم فى عدن حتى انسحاب الانجليز منها فى عام ١٩٦٧ . وهو على معرفة جيدة بالحركات الثورية العربية .

اذن ، فمن المعلومات ، وهذه الخبرة ، يمكن للاخوين دانتون أن يتدبرا ، أو يفعلا شيئا ، فيرفع الامر الى رؤسائه ، ويأخذ اذنا بمتابعهما . ثم يبدأ في مراقبتهما .

وتظل هناك فجوة زمنية فى هذه الملاحقة بين تحركات الاخوين وحركة الاستخبارات فى بريطانيا ، الى ايرلندا وفرنسا ، ثم بيروت وسوريا والاردن وسط مقابلات مع عملاء ووسطاء واعداء الفلسطينيين والثورة الفلسطينية . جواسيس وخونة . ويتنكر الشقيقان دانتون عند وصولهما الي بيروت كاثنين من الفدائيين الفلسطينيين ويتحركان علي هذا الاساس ببطاقات مزورة بين لبنان وسوريا والاردن .

ويقول الكاتب الفلسطينى أحمد عمر شاهين فى سياق عرضه لهذه الرواية أن المؤلف

لونيل بلاك قد أصر منذ البداية على ادانة الفلسطينيين رغم أن جايلز قد مات وهو يتسلق أحد الجبال فى لبنان فى نهاية الرواية ، نجد أن المؤلف قد استعرض لنا أحداث المنطقة الساخنة فى تلك الفترة من وجهة نظر كاتب انجليزى متعاطف مع الصهيونية ساهمت دولته فى انشاء الكيان الصهيونى » .

*****

راح كتاب رواية التجسس الفرنسيين أيضا يدلون بدلوهم فى مسألة الصراع العربى الاسرائيلى ، ولأن جيرار دوفيلييه هو أبرز هؤلاء الكتاب المعاصرين فى فرنسا ، فقد قدم روايات عديدة تدور أحداثها فى منطقة الشرق الأوسط . مثل الروايات التى ذكرناها فى فصل سابق . وقد اخترنا أن نقدم نموذجا واحدا من هذه الروايات المتعددة وهى رواية « مؤامرة القاهرة » والتى نشرها فى منتصف عام ١٩٨١ ، أى قبل اغتيال أنور السادات ، وتجىء حساسية هذه الرواية أن الكاتب قد تصور أن عملية ارهابية فى فندق شيراتون بالقاهرة ، يمكن أن تجعل أربعة من رجال الاستخبارات يجتمعون لحل هذا اللغز . واحد منهم من الاستخبارات العسكرية المصرية ، والثانى من الاستخبارات الامريكية ، أما الثالث فمن الاستخبارات الاسرائيلية ، والرابع من وكالة الاستخبارات العامة المصرية .

لقد اجتمع هؤلاء العملاء الاربعة من أجل التوصل الى الرجل الذى وراء انفجار قنبلة صالة الرقص بالفندق ، مات فيه خمسه من السائحين العرب ، وأنقسم جسد الراقصة التى لقنبلة فى ملابسها الى قسمين ، ويرى دوفيلييه أن الاستخبارات الاسرائيلية والمصرية ن فيما بينهما تعاونا وثيقا منذ اللحظة الاولى .

ضابط المصرى هو محمد رياض ، وهو الرجل الثالث فى جهاز الاستخبارات المصرية . ء فى الرواية ، أما الضابط الامريكى جون وارد فأنه يعيش فى مصر منذ عدة سنوات .

وتجىء حساسية هذه العملية التخريبية فى أنها دارت فى مكان قريب من مسكن ت ، كما أنها قريبة من منزل السفير السوفييتى فى القاهرة.

ولا يعرف أحد من الثلاثة المجتمعين فى غرفة بفندق شيراتون الكثير من المعلومات ضابط الاستخبارات الأسرائيلى ، فاسمه الذى يعرفونه عنه مايك ، لكن ليس هذا سوى مستعار ، وهو رجل بطىء الحركة ، ويميل الا يسقط الضوء على وجهه اثناء الحوار، كما صديق السفير الأسرائيلى الجديد . انه موجود فى القاهرة في مهمة لمكافحة الارهاب ،.

ورغم أن رواية دوفيلييـه تبرز هذا اللقاء الرباعي في احدى غرف شيراتون وكأنه سيكون الحدث الأكبر في الرواية ، بمعنى أن الأربعة سوف يتكاتفون من أجل الوصول الى حقيقة عملية مقتل الراقصة فى صالة الفندق ، فان الكاتب يختار عميله الخاص مالكو الذى يتكرر ظهوره من رواية لاخرى ، هو نموذج العميل الغربى ، باعتبار أن مالكو قد تحول من صحفى فى الروايات الأخيرة الى رجل استخبارات . فلا اشارة واضحة فى هذه الرواية ، هل هو أمريكى أو فرنسى لكنه يتعامل مع سميث التابع لوكالة الاستخبارات الامريكية ، كما يتعاون مع موظفة مصرية تدعى ماجدة بطرس . وفى أغلب احداث الرواية ، فان هناك تعمدا واضحا فى تقليص دور رجال الاستخبارات المصرية والامريكية والأسرائيلية ، فى تتبع الاحداث ، ويقوم مالكو وحده بكشف نقابها . والتخلص من الرجال الذين جاءوا لقتل أنور السادات .

وقد راح المؤلف يتصور أن قوى عديدة قد تكاتفت من أجل التخلص من السادات . أول هذه القوى هى التيار الدينى المتطرف متمثلا فى شخص يدعى منصور قارون . وهذا الرجل يسكن فى بيت فقير . لكنه فى نفس الوقت ، يمتلك استراحة فى منطقة الهرم.وفيها يخفى صاروخ « سام ٧ » يمكن اطلاقه يدويا من أجل التخلص من السادات .ومن أجل قلب نظام الحكم . وسعيا أن يتولى التيار الاسلامى مقاليد الحكم في مصر. ويستعين قارون فى عمليته بضابط متقاعد هو أشرف بطرس ، وهو مسلم مستنير يهمه أن يتعامل مع رجال التيار الاسلامى . لانهم ، فى حالة الاستيلاء على الحكم ، سوف يعيدونه مرة أخرى الى الجيش الذى طرده منه السادات . وأشرف هو أحد الضباط الذين كانت لهم مكانتهم فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر . لذا فانه رغم الاختلاف الجذرى بينه وبين منصور قارون الا أنه يقبل التعامل معه من أجل هدف مشترك .

ويقول دوفيلييه أن «ابو سعيد» الذى فخخ جسد الراقصة فى فندق شيراتون ليس سوى شاب فلسطينى ، يعمل لحساب الاستخبارات فى طرابلس ، وقد جاء إلى مصر بدافع من نفسه دون التعاون مع الأطراف الأخرى للتخلص من السادات من ناحية ، ولاثارة البلبلة داخل القاهرة من ناحية أخرى . ومن أجل استخدام الصاروخ "سام ٧" في العملية ، أرسلت طرابلس أيضاً ، كما يرى الكاتب ، اثنين من الالمانيين الشرقيين الخبراء فى الاسلحة . ولكنهما يلقيان مصرعهما فى أحد المطاردات التى يحاولان فيها التخلص من مالكو .

وهـنـاك علاقات متشابكة فى الرواية . فالمرأة التى لاتعمل دليلا لمالكو هي في نفس الوقت زوجة وفية لاشرف أحد الاطراف الرئيسية المشتركة فى العملية . أما السادات فإنه لايظهر قط فى الرواية .

أنور السادات

هناك فقط طائرة مروحية تطير فوق مدينة القاهرة ولها لون الرمل ، انها طائرته التى يعرفها الناس . ومن أجل هذه الطائرة فانه ممنوع على أى طائرة مروحية خاصة أن تحلق فوق المدينة بل وفوق مصر كلها . سوف تكون هذه الطائرة المروحية هى الهدف المنشود فى العملية التى يسعى فيها كل الاطراف للتخلص من السادات .

ومنصور قارون ، على سبيل المثال ، يحلم بقيام جمهورية اسلامية فى مصر على غرار ماحدث فى ايران ، وهو ايضا ضابط قديم فى جيش عبد الناصر ويتمنى أن يعود الى الجيش من خلال النظام الجديد الذى يمكن أن يأتى بعد اغتيال السادات . وهذا الرجل محط أنظار دائمة من قبل رجال الاستخبارات . لذا فهو يغير المكان الذى يقيم فيه من وقت لآخر . وفى الفترة الزمنية التى تدور فيها الاحداث المرواة فانه يؤجر فيلا صغيرة ، فى صحراء الهرم ، وفيها يقوم بتخزين الصاروخ الروسي .. الذى سوف يستخدمه فى العملية التى سيضرب فيها طائرة الرئيس . وقد استطاع الحصول على هذا السلاح من خلال ضابط متقاعد برتبة عميد يدعى مصطفى . أى أن عملية مقتل السادات ، يمكن أن تأتى فى منظور دوفيلييه . من داخل الجيش .

ومن أجل تشغيل الصاروخ واطلاقه نحو الطائرة المروحية ، جاء الالمانيان هيلد جارد ،

وزوجها اوتو من قبل وكالة استخبارات طرابلس الغرب . أما الشخص الموكول اليه مهمة اثارة البلبلة فهو الفلسطينى ابو سعيد الذى سيقوم بتفجير مجموعة من حيوانات الجمال اثناء سيرها متدفقة فى شارع الجيزة أمام منزل السادات ، وقد صورت الرواية « أبو سعيد » على أنه شخص لا قلب له ولا مشاعر . فقد قتل امرأتين بأسلوب بشع . المرأة الأولى راقصة عشقته لمدة عشرين يوما وكان جزاءوها هو أن فخخ جسدها . أما المرأة الثانية وهى أيضا راقصة . كادت أن تتعرف عليه ، وتخبر رجال الاستخبارات بشأنه، فقد استطاع ان يتسلل الى منزلها فى شارع القصر العينى ، ثم قتلها بوحشية .

وأمام تعدد الشخصيات التى تتعاون معا لابد أن تكون هناك علاقة قوية ، فيما بينها ، أى أن كل شخص يمكنه أن يعمل ممثلا لاحدى الجهات . أو الدول العربية المعادية للسادات ، فان هناك تعددا للشخصيات التى تمثل أجهزة الاستخبارات التى تطارد كل هؤلاء المتآمرين . ويرى الكاتب . فى صفحة ٦٠ من الطبعة التى صدرت فى منتصف عام ١٩٨١ من روايته - أن القاهرة هي وكر للجواسيس ، لذا فلدينا محمد رياض الرجل الثالث فى الاستخبارات المصرية وهناك أيضا رجل الاستخبارات العسكرية ، ورجل الاستخبارات الامريكى ، أما الأسرائيلى فقد اختفى تماما طيلة أحداث الرواية بعد أن ظهر فى اجتماع الغرفة الواقعة فى الطابق الثالث والعشرين من فندق شيراتون ، أما مالكو فهو يقوم بدور رجل الاستخبارات ، أى أنه ليس موجودا فى القاهرة ممثلا للوكالة التى يعمل بها . بل هو فى زيارة سياحية يجد نفسه مشتركا فى البحث عن الخطوط العامة للمؤامرة التى تدور فى القاهرة ، ولانه لا يمثل جهة رسمية ، فان مالكو يبتعد دوما عن طريق الاستخبارات العسكرية ، أو العامة فى مصر . وفى الحقيقة فان الكاتب يصور هذه الاستخبارات على أنها جهاز يقظ لا يتسم بأى غفلة . ويساعده فى ذلك أن نهاية الاشخاص الذين يشتركون فى هذه العمليات قد جاءت من علاقتهم بالطبيعة . ولم تنطلق من المؤسسات الرسمية طلقة واحدة . الا فى أضيق الحدود .

فعلى سبيل المثال ، فان منصور قارون يموت فى مطاردة عبر صحراء الفيوم ، حينما حاول اصطياد مالكو وزميلته ماجدة التى ترشده فى مهمته وتأتيه بالمعلومات من وقت لآخر ، أما أشرف زوج ماجدة ، ومعه العميلان الالمانيان فيموتان فى صحراء مصر الغربية أثناء محاولتهم الهرب فى طائرة مروحية سرعان ما ينفد وقودها ، فيكون العطش هو القاتل الوحيد لأشخاص استخدموا الصواريخ والبنادق من أجل قتل الأخرين .

أما خطة اغتيال السادات فى الرواية ، فقد تركزت على أساس اثارة البلبلة لدى حرسه الخاص فى بيته بالجيزة . ذلك البيت الذى لم يكن السادات يقضى به من أوقاته الا القليل . مثلما جاء على لسان المؤلف . فالرئيس السابق لم يكن ينام فى نفس المكان ليلتين متتاليتين ، وذلك بدافع الأمن ، الا أن الأشخاص الذين سعوا لاغتياله كانوا يعرفون وقتا معينا بالذات لوجوده فى البيت ، ودبروا خطتهم لاغتياله .

وفى هذا الوقت ، اندفعت فى شارع الجيزة مجموعة كبيرة من الجمال المفخخة ، أمام بيت السادات ، وتفجرت القنابل المحشورة فى بطن الجمال ، وتساقطت ، واثارت الرعب ، فما كان من الرئيس الا أن ركب طائرته المروحية من أجل الهروب . وفى تلك اللحظة انطلق صاروخ « سام ٧ » من أجل تفجير الطائرة . ولكن السادات كان قد هرب بطريقة أخرى وترك رجاله يواجهون خصومه ، والطريف أن كلا الطرفين : حرس السادات ، والمهاجيمن كانوا يحملون الاسلحة الروسية .

وخرج الرئيس السادات من بيته محاطا بالعشرات من الحرس المسلحين ، والذين راحوا يلفون أنفسهم حوله ، وصعد الطائرة المروحية مع بعض الحرس . وأغلقت الابواب ، لقد حاول منذ عشر دقائق أن يلحق بنائب الرئيس مبارك المكلف بمهمة أمنية ، والذى بدا أن هاتفة مشغول طوال الوقت .

الجدير بالذكر . أن المؤلف قد كتب فى هذه الرواية التفاصيل الدقيقة لجغرافية مصر ، والقاهرة بشكل خاص ، بشكل يجعل المرء يعتقد أنه قد عاش فترة طويلة فى البلد ، وأنه خبير بها وبأهلها ، ورغم أن أحداث الرواية دارت فى فنادق القاهرة ، الا أن الوقائع السياسية والاجتماعية المذكورة فى الرواية ، تؤكد أن المؤلف قد عرف جزءا من القاهرة بدرجة لا يعرفها بعض أهلها . وقد وددنا أن نؤكد على هذه النقطة لأن دوفيلييه يكتب سنويا ما لايقل عن ثلاث روايات يسافر فيها الى بلاد متعددة عليه أن يكتب عنها بنفس الصورة .

وقد تعمد المؤلف أن يتحدث عن الكثير من العلاقات الجنسية بوضوح شديد . ورغم الحسية الشديدة التى تعمدها فى رواية « مؤامرة القاهرة » بين مالكو وماجدة ، وبين أشرف والالمانية هيلد جارد وأيضا بين « أبو سعيد » والراقصة فيفى . فان حرارة الاحداث السياسية والمزيج الذى يصنعه كانت أشد سخونة من كل الحرارة التى تندلع بين شخصيتين تمارسان الحب بكل هذه الاساليب الملتهبة .

*****

رغم أن كين فوليت قد أشار فى روايته « العميل الثلاثى الأوجه » أن هناك شخصا يعمل لثلاث جهات منها وكالة الاستخبارات البريطانية ، فان الروايات الفلسطينية التى وقعت بين ايدينا عن التجسس لم تكن حول عمليات تجسس فلسطينية داخل أعماق اسرائيل ، أو خارج الأرض المحتلة وانما كانت محاولات أشخاص للتصدى لانشطة الموساد ، أى أنها كانت روايات دفاعية ، بمعنى أن أبطال هذه الروايات كانوا يدافعون عن وجودهم وحياتهم ضد ما يفعله الموساد ، سواء داخل اسرائيل أو خارجها .

والغريب أن الروايتين اللتين بين ايدينا لا تنتميان الى التجسس بمعناه المتعارف عليه والذى تعرضنا له كثيرا . فالكتاب الأول « المجموعة ٧٧٨ » لتوفيق فياض هو بمثابة تسجيل روائى لعمليات فدائية يقوم بها فلسطينيون انضموا الى أنشطة منظمة التحرير الفلسطينية داخل الارض المحتلة ، بمعنى أن أحداث هذه الرواية حقيقية ، ومثل هؤلاء الأشخاص الذين يقومون بأعمال فدائية داخل الأرض المحتلة لابد أن يكونوا حذرين من أنشطة الموساد ، ومن رجال الشرطة داخل اسرائيل .

من هؤلاء الاشخاص ، مثلا ، محمد غريفات الذى انضم الى الجيش الاسرائيلى من أجل خدمة القضية وليس ضدها : « راح يشرح لى كيف أنه حين يكون فى كمين ليلى . ينبه الفدائيين لوجود الكمين بشتى الطرق غير المباشرة ، كما يجنبهم الوقوع فى شراكه . وكيف أنه حال اشتباك فرقته بمجموعة فدائية يوجه جنوده فى المعركة لموقف دفاعى فقط ينسحب بهم بعدها . بينما يطلق النار من رشاشه الثقيل فى الهواء ، رغم ما ينطوى عليه ذلك من خطر .

أما مكتب « الشين - بيت » الاسرائيلى فهو يتحرى عن الأشخاص ومنهم الراوية ، ويروح الكاتب يجرى محاولاته من أجل استقطاب أعضاء جدد الى أنشطته ، « طلب منى مباشرة ، وبدون مواربة أن اتعاون مع الشين بيت الاسرائيلية مستغلا زواجى من يهودية الأمر الذى يجعله يعتبرنى واحدا ممن يتحتم عليهم خدمة الدولة ، والسهر على سلامتها ، على حد تعبيره ،، واضعا بين يدى كل الامكانيات المادية وتلبية كل ما أطلبه من مبالغ ، واعدا بأنه سيجعلنى واحدا من أثرياء عكا » .

ومن أجل ابعاد أي شبهات ، فان فوزى يتصل من وقت لآخر بالاستخبارات الأسرائيلية للتحدث معهم فى موضوعات تساعد على ابعاد الشبهة عنه « اطمأننت لاعتقالهما عشرات آخرين مما جعلنى اؤكد أن الاستخبارات تعتقد بأن العملية قد نفذت عن طريق البحر ، فتبعا

للعمليات العسكرية التى يقوم بها الفدائيون فى الارض المحتلة ، فان الصراع الحقيقى هو بين الفدائيين وبين رجال الاستخبارات ».

وقد كشفت هذه الرواية التسجيلية عن الدور الاعلامى للشين - بيت ، وللاستخبارات داخل اسرائيل ، فقد أعلن راديو اسرائيل أن الشين - بيت استطاع أن يلقى القبض على منفذى عملية فدائية رغم أن هذا لم يحدث فى الواقع ، فرفعت كأسى مخاطبا الشرطى بأن يرفع الجميع كئوسهم لنشرب نخب الشين - بيت الاسرائيلى ، والشرطة الاسرائيلية ، اللذين استطاعا القبض على المجرمين بهذه السرعة ، وهنا صعد الجميع ثم رفعوا كئوسهم ، فنظرت الى الرفاق جميعا وغمزتهم نخب جلوسنا بين ضباط الجيش الاسرائيلى وشرطتها ،،

وفوزى يركب عادة سيارة أشبه بتلك التى يركبها رجال الاستخبارات فى اسرائيل ، مما يعنى مدى ما يتمتع به من مكانة لديهم ، وأنه بالفعل فوق مستوى الشبهات ، فبينما هو يدبر العملية الفدائية وينفذها ويسمع الاخبار الملفقة حولها ، فانه فى نفس الليلة يسهر مع رجال الاستخبارات ، « فى يوم الجمعه سافرت الى طرابلس، واتصلت بأفراد المجموعة هناك ، حيث سلمتهم تقريرا عن مقابلتى مع الاستخبارات الاسرائيلية يتصورنه هاما بالنسبة لعملية الكيشون »

وفى مكان آخر من الرواية ، يقول أنه ذهب الى مقر الشين بيت فى حيفا « وأعلمتهم أننى لم أستطع سماع أية اخبار بالنسبة لعملية كيشون ، فانفجر محدثى قائلا أن هؤلاء اللقطاء يأتون عن طريق البحر » .

وقد كانت عينا الفدائى دائما متجهتين الى ناحيتين : الأولى ناحية تنفيذ العمليات الفدائية ، والعين الأخرى متجهة ناحية الاستخبارات ، و«أنا أفكر فى طريقى اذا ما كانت أسئلتهم بالنسبة لافراد المجموعة مجرد صدفة كباقى الشباب الذين سألونى عنهم ، وقد ظلت هذه العلاقة ماثلة فى ذهن هذه المجموعة طيلة أحداث الرواية حتى الكلمة الأخيرة فيها . فهناك دائما حالات استدعاء عاجلة من رجال الموساد ، من أجل معرفة الجديد من الاخبار . « فى مقر الشين - بيت ، وجدت الياهوموز فى انتظارى . وقد بدا عليه التعب البالغ . فنهض وهو يقول : أعرف أنك لم تستطع معرفة أي شىء لأن الجهاز كله ، والشرطة كلها لم تستطع ذلك . وأعرف أنك لم تنم البارحة وانك تتسكع فى الشوارع والمقاهى » .

وكما أشرنا ، فهذه رواية تسجيلية ، مكتوبة باسلوب بالغ الاثارة . وقد أضفنا تعبير


ياسر عرفات

« تسجيلية » الى هذه الرواية ، لانها بمثابة أحداث حقيقية راح صاحبها يمليها على الأديب الفلسطينى توفيق فياض ، أو لعل الكاتب قد استقى معلوماته عن مناضل فلسطينى هو فوزى عز أحمد وزملائه »

*****

أما رواية « الآخر » لأحمد عمر شاهين فهمى عمل أدبى جيد، وهى من الأعمال التى يمكن أن تقرب روايات التجسس من الأدب الجاد ، فهى مكتوبة بأسلوب رصين ، ولا تقوم على إحداث الاثارة لدى القارىء من خلال التوتر المصطنع الموجود فى الكثير من الروايات البوليسية .

وبطل هذه الرواية ، المنشورة فى عام ١٩٨٩ ، من الفلسطينيين الذين طردوا من الأرض المحتلة . وقد عاش فى الخيام سنوات الطفولة التى تعرف فيها على العديد من جنود وضباط قوات الطوارىء الدولية ، وارتبط بهم كطفل ، وشاب مثقف يقرأ الادب العالمى . ويطالع أحدث اصداراته . ومن هؤلاء الاشخاص الكندى جون جاردنر الذى التقاه بعد سنوات فى مدينة باريس .

فقد ذهب محمد الى باريس كى يعمل فى الملحقية الاعلامية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وجاء الى المدينة أيضا جاردنر كى يعمل ملحقا عسكريا لبلاده كندا . ويلتقى الرجلان من جديد فى احدى الحفلات الدبلوماسية فتتجدد مشاعر المودة والمحبة فيما بينهما .

وفى باريس ، يفاجىء محمد أن الموساد تمارس أنشطة متعددة من أجل تصفية الفلسطينيين خاصة ذوى الانشطة الوطنية والسياسية ، وعقب مقتل أحد الرجال البارزين فى المنطقة ، يشعر الملحق الاعلامى بالشكوك فى كل من حوله ، خاصة فيشرمان الذى يتعرف عليه ، من خلال جاردنر ، كصاحب دار نشر .

إذن ، فنحن أمام رواية ذات صبغة خاصة عن التجسس ، فالشاب يتعرف على فتاة فرنسية تأتيه بين وقت وآخر ، لزيارة عابرة يتلقيان فيها الحب وهى لاتعرف اسمه ، كما أنه

يتعمد الا يجعلها تعرف جنسيته وهويته الحقيقية . فهو فى بعض الأحيان يشك فى أنها قد تكون مدسوسة من قبل الموساد للايقاع به . فالفتاة صغيرة وجميلة وتعجبه ، وهى فى أول لقاء تساومه ، « ساعة واحدة بمائه فرانك » .. ثم تأتيه بعد ذلك عدة مرات . إنها فتاة تلتقط الرجال غير الفرنسيين من وقت لآخر ، وهى تجد فى ذلك متعة . وقد يكون ذلك سببا لأن يساور الشك بعض العاملين فى مكتب المنظمة بباريس . وعقب اغتيال شخصية كبيرة بعد قدومها الى باريس بقليل ، يصدر قرار بنقل محمد الى القاهرة ، وتكون العلاقة بين الرجل والفتاة قد تطورت الى أعلى مدى لها . ومن خلال تطور هذه العلاقة من الحسية الى الحب الرقيق تؤمن به وبانسانيته وبقضيته . « قد يعرف الانسان ألف أمرأة ، لكنه لا يستريح ولا يجد نفسه الا مع امرأة واحدة .واذا افتقدها قد يظل العمر يبحث عنها ولايجدها . لا أعتقد أننى كنت أجد عند غيرك ما أجده عندك » .

ومع نمو العلاقة بين محمد وناتالى ، تنمو وقائع المطاردة بين الموساد وهم هنا مخلوقات شبحية لا نراها عن قرب ، وبين محمد الذى يروى الاحداث على لسانه ، فهناك ترقب ، ومطاردة غير مباشرة من جانب رجال الموساد ، وحذر من جانب الفلسطينى : « انتهيت من مراجعة تقرير أعده العاملون فى المكتب عن النشاط الصهيونى فى أوروبا . كان آخر أعمالهم فى باريس نسف المكتبة الفلسطينية واغتيال محمود الهمشرى ثم باسل الكبيسى ، نشاط مكثف بعث على الخوف والحذر ، أشرت بطبع عدة صور منه ، ورفعه الى مدير المكتب » .

ووسط هذه الحالات من الرصد والترقب ، كان لابد للراوية أن يشك فى أشخاص عديدين ، وراح يرى من حوله الآخرين دائما بعيون قلقة ، وكأنهم عملاء للموساد ، بدءاً من جون جاردنر ، وانتهاء بفيشر مان وسكرتيرته ، وقد لعب جاردنر دور الصديق الدائم للفلسطينيين ، فهو الذى مده بالكثير من الكتب الجيدة فى صباه ، ثم يروح يخبره بمعلومات هامة عن عميل الموساد « كلامك صحيح فيشرمان الحقيقى يعيش فى استراليا حينما عملت معه فى بداية الأمر سألت من أثق بهم كما أثق بك » .

وتدفع ناتالى حياتها البريئة فى لحظة بالغة المأساوية ، حين تستلم مظروفا مفخخا باسم حبيبها الذى كان فى تلك اللحظات فى الحمام . وعقب اغتيال ناتالى تمتزج القضية العامة بالقضية الخاصة لدى محمد الفلسطينى ، الذى يقرر أن يسافر الى أسبانيا بالقطار من أجل مطاردة عميل الموساد واغتياله بعد أن غير من هويته ، وجواز سفره . هناك التقى بخصمه :

« لم يبد عليه أنه فوجىء برؤيتى ، اما أن اعصابه من حديد أو أنه يعلم بحضورى . لمحت عينيه تبرقان ، وقفت قربه ، ظل جالسا . لم يبد عليه أنه يريد محادثتى ، أهناك كلمة سر لابد من البوح بها »

ولأول مرة يتحول المثقف الفلسطينى الى مناضل ، يستخدم نفس السلاح الذى يستخدمه خصمه ، ثم يسعى للافلات دون أن يتمكن منه أحد .

نحن اذن لسنا أمام جاسوس فلسطينى ، بل هى محاولة لمواجهة جواسيس الموساد ، والجاسوس هنا شخص يمثل وكالة استخبارات أما الفلسطينى فهو يمثل الشخص التائه . الذى ما أن وجد انسانة يحبها ويرتبط بها حتى يفتقدها ، وتضيع منه على أيدى الصهيانة الذين سبق أن سلبوه أرضه ، ويسعون لتصفية جسده .

****

هناك كاتبان اسرائيليان يؤلفان رواية التجسس باللغة الانجليزية هما بن بورات يورى دان . وقد عمل هذان الكاتبان معا ، كما سبقت الاشارة ، فى كتابة أكثر من رواية من أدب النوع . وبن بورات عمل لفترة رئيسا لتحرير صحيفة « تل أبيب » اليومية . كما عمل مراسلا لمجلة « حدث الخميس » ، وهى مجلة فرنسية معروفة بميولها الصهيونية ، نشر بالتعاون مع يورى دان - تحت اسم مستعار هو بن دان . رواية « الجاسوس الذى آتى من اسرائيل » . وهو عنوان مقتبس من رواية « الجاسوس الذى أتى من الصقيع » لجون لوكاريه ، ثم رواية «لعبة جاسوس » و « الميراج ضد الميج » و « يوم الكيبور» و«عملية بابليون » .

ويقول عن روايته « عنتيبى » : كانت لدىّ وسائلى لاكشف جزءاً من الواقع من خلال بعض المعلومات التى استطعت الحصول عليها (مجلة لير - مايو ١٩٨٠) . وقد اشترك بورات مع كاتبين آخرين فى تأليف عنتيبى « المنشورة عام ١٩٧٦ ، وهو نفس العام الذى قامت فيه القوات الاسرائيلية بمساعدة الموساد بالهجوم على مطار عنتيبى ، لانقاذ مجموعة من الرهائن من احدى العمليات الفدائية الفلسطينية فى الرابع من يوليو عام ١٩٧٦ ، وقد كتب اسحاق رابين مقدمة قصيرة لهذه الرواية ذات الشكل الغريب ، قال فيها : « لقد إتجهت معركة اسرائيل ، فى معركة عنتيبى ، قبل كل شىء ، ضد عقرب الساعة ، فالقرار العسكرى والسياسى قد تم اتخاذه تحت وطأة الوقت ، آخذين فى الاعتبار الخطر المميت الذى يهدد مجموعة من الاسرائيليين ، كانت ساعة حاسمة للشعب الاسرائيلى ، ومهما كان القرار

السياسى الذى تم اتخاذه ، فبعد ساعة سمعت الامة بصوت عال فى الأخبار بأنه لا يجب التفاوض مع الارهابيين ، والا نمتثل للحل الذى يمثل تحديا « (انظر رواية عنتيبى » (الطبعة الفرنسية المنشورة عام ١٩٧٢ ، صفحة ٥)

وتجيء غرابة الشكل الروائى هنا فى العملية التسجيلية لاحداث عنتيبى ، فقد استفاد المؤلفون الثلاثة من الشكل الروائى الذى عرف فى تلك الفترة بما يسعى برواية الكوارث خاصة رواية « المطار » من تأليف آرثر هيلى ، حيث يختار فى الرواية العديد من النماذج الانسانية التى ركبت الطائرة قبل الاختطاف مثل دور بلوش التى رفضت ركوب الطائرة الى الولايات المتحدة لحضور حفل زفاف ابنها وهى تردد : « أنا امرأة عجوز ، ولا أحتمل السفر بالطائرة » ، ويحاول أبناؤها اقناعها بالسفر بالطائرة فتقبل بعد الحاح ، كذلك هناك يوسف ، وليزيت حداد ، اللذان يريدان السفر الى باريس فى مهمة عمل رسمية . هناك أيضا اسحاق دافيد القادم من احدى المستعمرات القريبة من حيفا وهو مسافر الى أوروبا من أجل عقد اتفاقات عمل كالعادة .

ويصف المؤلفون ما حدث فى اسرائيل فى يوم الاحد ٢٧ يونيه ١٩٧٦ ، فالجو حار . وهناك اجتماع لمجلس الوزراء الاسرائيلى ، والصحف التى تبحث عن اختفاء المطران كابوتشى ، والرحلة الجوية رقم ١٣٩ التى يقودها الطيار موشيل باكوس ، وعرض بانورامى لبعض ما يمكن أن يحدث فوق الطائرة . وكما أشرنا فى غرابة الشكل ، فان الرواية يمكن أن تكون تحقيقا روائيا . ففيها الحوار الروائى .كما أنها تتضمن أسلوب التحقيق الصحفى ، بالاضافة الى طرح التساؤلات المتكررة من أجل معرفة ماذا يمكن أن يحدث فى الفصول التالية .

« وبعد دقيقة أو دقيقتين من تحويل مسار الطائرة ، بدا الأرتباك فى منتهاه ، واستسلم الاطفال والنساء ، فجأة صدر أمر بالاتجاه نحو مقدمة الجهاز ، خافت روثى على ابنها فأخفته فى تنورتها ، وهو يتساءل :

- ماذا يحدث يا أمى ؟

لم ترد روثى على الفور ، ولكنها همهمت :

- هناك ارهابيون على الطائرة .

دعك شاى ، وهو فى السادسة من عره ، عينه بطرف تنورة أمه ، وهو يسأل :

- هل الموت مؤلم يا أمى ؟

سمعته روثى ، ولكنها لم تقل شيئا ، ارادت أن تتظاهر بالهدوء ولكنها لم تستطع أن تجلسه معها ، فهو يخنقها .

وفى روايات الكوارث ، يمكن أن ينقسم الحدث الرئيسى الى ثلاثة أقسام . الأول عبارة عن عرض بانورامى للاشخاص الذين سيتعرضون لحادث ما . وحياتهم ، ومايتمتعون به من سمات طيبة مع بعض الحديث عن ظروفهم الاجتماعية . والقسم الثانى يتضمن الكارثة التى تحل على هؤلاء البشر ذوى الصفات الملائكية . الابرياء غالبا . أما القسم الثالث والأخير ، فهو يتضمن وقائع انقاذ الضحايا والابرياء . وقد صاغ بورات وزميلاه روايتهم بنفس المنظور ، فبعد العرض البانورامى لركاب الطائرة ، يأخذ الكتاب فى وصف أثر الحادث على الركاب ، «أنا حامل .. شهرين . أعتقد أن شيئا ماحدث لى » .

كتمت أنفاسها كأنها تخنق صرخة ألم .. أشار الارهابى بيده الى باترشيا التى فهمت أنه اختارها .

« همست الفتاة وهى تصحب باترشيا بعيدا : سأستدعى طبيبا »

وفى مكانها الجديد ، بدأت باترشيا فى عض نواجزها . وقدعلاها الشحوب ، والعرق ، وبدت أن غيبوبة سوف تصيبها .

وفى هذه الرواية ، لا يوجد جاسوس يقوم بالعملية بنفس المنظور الذى يحدث فى روايات التجسس المألوفة ، بل المهمة جماعية فعملية جمع المعلومات المدنية والعسكرية تقوم بها الاستخبارات ، وتمدها مباشرة لرئيس الوزراء الاسرائيلى اسحاق رابين ، مثل المعلومات التى تم جمعها عن المناضل الفلسطينى مصطفى حافظ أحد المشتركين فى العملية .

ثم هناك معلومات عن ظروف العمليات المثيلة : « تمكنوا من الوصول الى نقطة ضعف ، ففى فبراير ١٩٧٠ ، هاجم ثلاثة ارهابيون سيارة فى مطار ميونخ تحمل ركابا متجهين الى طائرة لشركة العال ، فقتل اسرائيلى وجرح ثمانية من بينهم الممثل الاسرائيلى المشهور حنا ميرون . حاول الارهابيون اطلاق النيران ، وقد تم القبض على ثلاثة منهم .. ولكن ليس هناك مجالاً للشك فى أنهم درسو المطار جيدا : أرضه وعرباته وكل الرحلات التى تقوم بها شركات العال .

بل أن وكالات الاستخبارات تمد القادة العسكريين والسياسيين بمعلومات عن عيدى أمين وعن ممرضته . فمطار عنتيبى يقع فى مدينة أوغندية قريبة من بحيرة فيكتوريا . وهو مطار قديم تم تجديده قبل العملية ببعض الوقت . ويمكن السيطرة على المطار من خلال غرف التحكم والممرات الثلاثة . وصالات الانتظار التى احتشد فيها قرابة مائه من الجنود الاوغنديين، وقامت الخطة الاسرائيلية من خلال عدة نقاط ومهام :

أ - الطيران من اسرائيل الى أوغندا .

ب - الهبوط على أرض المطار الدولى بعنتيبى .

جـ - الاغارة على الممر القديم حيث يوجد الخاطفون .

د - التغلب على الخاطفين .

هـ - نقل الرهائن فى طائرات .

و - العودة الى اسرائيل .





لقطة من فيلم « عنتيبى » الأمريكى

وقد انقسمت القوات الإسرائيلية الى عدة أقسام . منها القوة (أ) التي هاجمت الخاطفين ، والقوة (ب) التى صعدت الى أماكن المراقبة الجوية فى المطار لمنع الجنود الأوغنديين من التدخل ، ثم القوة (ج) التى قامت بدور في اقناع الركاب بالمطار بهدفهم فى تحرير الرهائن . اما القوة (و) فقد اتجهت الى المطار القديم وسيطرت على الصالات ، والأجهزة لتأمين هبوط وصعود الطائرات المشتركة فى العملية . وحتي لايقع المؤلفون الثلاثة فى تقريرية وصف العملية العسكرية بتفاصيل دقيقة قد تفسد على القارىء اللهاث الذى حدث له وهو يتابع القراءة ، قاموا بوضع تفاصيل العملية العسكرية في صفحتين منفصلتين تماما عن الرواية .

وفي نفس العام ، أصبحت عملية «عنتيبى» بمثابة الأم لاينضب معينه للعديد من الأدباء والسينمائيين الذين يناصرون اسرائيل . حيث كتب يورى دان رواية ثانية تحت عنوان « ٩٠ دقيقة الى عنتيبى » كما أنتج خمسة أفلام وزعتها شركة وارنر ، شارك فى اخراج أحدها المنتج والمخرج الاسرائيلى المعروف مناحم جولان ، من أشهر هذه الافلام «غارة علي عنتيبى» الذى أخرجه ارفين كيرشنر ، ومن تمثيل : تشارلز برونسون ، بيتر فينش ، هورست بوشولز ، جون ساكسون ، ويافت كيتو.

*****

وسط هذا الكم من روايات التجسس العالمية المرتبطة بالصراع العربي الاسرائيلي ،

أصبح علي الروائيين العرب المشاركة فى ذلك الابداع الذى يلقى انتشاراً هائلاً وسط القراء ، خاصة حين يشعرون أن هناك ظلا من الحقيقة يرتبط بأحداث هذه الروايات . وقد بدأ ظهور هذا النوع من الروايات فى النصف الثانى من السبعينات ، أى بعد انتهاء حرب أكتوبر بنصف عام تقريباً ، وذلك من خلال مجموعة من القصص القصيرة نشرها صالح مرسى فى مجلة «المصور» ثم اصدرها فى «كتاب الهلال» فى أغسطس ١٩٧٦ تحت عنوان « الصعود الى الهاوية» .

وقد تحدث صالح مرسى عن هذه التجربة فى مقدمة الكتاب قائلاً : «فعندما طلب منى صوت العرب فى مطلع هذا العام ١٩٧٥ أن أكتب مسلسلاً عن الجاسوسية بدا لي الأمر مثيراً بعض الشيء ، وعندما قرأت قصة ذلك الجاسوس الذى كنت بصدد الكتابة عنه إزداد الامر اثارة ، ذلك انى كنت اعرفه ، فى فترة من الزمان معرفة عابرة ، غير أني عندما بدأت الكتابة ، طلبوا منى أن أقابل السيد عمر» .

« ولم يكن هناك بد من لقاء (السيد عمر) هذا ، فهو ضابط استخبارات ، أن تكنيك الاستخبارات شيء مجهول بالنسبة لى ، وانا دائما كنت فى حاجة الي أن اعرفه ، فلقد أصبحت مسئولية اذاعة الحلقات ، امام طريق مسدود .. وفى احدى غرف مبنى الاذاعة والتليفزيون التقيت بالسيد عمر .

« منذ اللحظة الأولى ... كان اللقاء مثيراً .

ويكمل صالح مرسى قائلاً : «امتد الحوار بيننا ، السيد عمر وأنا ، خمسة عشر يوما لم اكتب فيها كلمة .. خمسة عشر يوماً كنت أتعثر فيها كطفل يتعلم السير .... ويوم أن دعيت لزيارته هناك ... فى هذا المبني القابع خلف اسوار الصمت . أحسست أنى ادخل مدرسة جديدة .... أتعلم فيها شيئاً جديداً . هناك قدّم اليّ السيد عمر كل ماأريده من حقائق . ولقد أصبح السيد عمر صديقي ولقد أحببته ، والاهم من هذا ، أني تعلمت منه الكثير ... » .

تضمنت هذه المجموعة قصصاً من أبرزها حكاية الجاسوسة المصرية «عبلة كامل» ومجموعة أخرى من الجواسيس الذين عملوا ضد مصلحة العرب فى الصراع العربى الاسرائيلى ، أى أن دور وكالة الاستخبارات فى تلك الآونة كان الكشف عن الجواسيس الذين يعملون لصالح اسرائيل ، وفيما بعد سنرى أن صالح مرسى قد اهتم برجال الاستخبارات المصريين الذين عملوا لمصلحة القضية ، سواء اللذين زرعتهم الاستخبارات المصرية فى تل أبيب ، أو

هؤلاء الذين نجحوا في تدمير «الحفار » الذي قامت اسرائيل بتأجيره للتنقيب عن البترول فى البحر الأحمر . أو الذين استطاعوا خداع الموساد ، والحصول منهم على أجهزة استخبارات متطورة مثل جمعة الشوان .

ويهمنا ، قبل أن نتحدث عن بعض ابداع الكاتب أن نلقى الضوء على استراتيجية العمل، ومنظور صالح مرسى لأدب التجسس من ناحية ، وكيفية الحصول علي الحكاية الاصلية للمادة التى يحولها فيما بعد الى رواية بالغة الاثارة .

فحسب قوانين الأمن المصرى ، فانه غير مسموح لأحد بالكتابة عن أجهزة الاستخبارات ، وعملياتها السرية الا بالرجوع الى هذا الجهاز ، وذلك فيما يتعلق بالوقائع الحقيقية ، أما ماعدا ذلك فليس هناك أى حظر في هذا الامر طالما أن الحواديت متخيلة . وفى مقابلة خاصة مع صالح مرسى أكد أن المادة التى يحصل عليها من وكالة الاستخبارات المصرية تكون عادة جافة ، وهو لايتناول كل الوقائع ، بل قدراً معينا من المعلومات المسموح بها ، فقد استلهم أحد أعماله مثلا من وريقة صغيرة مطبوعة على استنسل ومكتوبة بأسلوب بالغ الجفاف .

ويقول صالح مرسى أن « القصة تكتبنى ولا أكتبها ، بمعنى أنى انصهر فى العمل الابداعى وأذوب فيه ذوبانا كاملاً يكاد يخرجنى من حالتى الطبيعية . فأحياناً ماترانى زوجتى ابكى وأحيانا ماترانى أضحك اثناء انفعالى بموقف من مواقف شخوص رواياتى» .

وقد كتب صالح مرسى حكاية الجاسوسة عبلة كامل ، واسمها الحقيقى هو هبه سليم ، بوحى من السيد عمر الذى تحدث عنه فى مقدمة «الصعود الى الهاوية» . وأحسن تسمه لهذا الشكل الروائى الذى اختاره صالح مرسى هو تحقيق روائى . فهى ، كما أكد الكاتب في حديث خاص معه «مجرد عملية تسجيل استخدمت فيه اسلوبى كقصاص فى الكتابة فقط . ليس هناك أى خيال ممتزج بالواقع . »

وقد حكى صالح مرسى هذه الحكاية عن عبلة كامل ، وكأنه علي عجالة شديدة ، وكأنه فى حالة استنفار عميق ، عليه أن يتقيأ فيها قصة هذه الفتاة الخائنة لوطنها . وأن يلفظ سطورها بسرعة الى القارىء ، وسنرى أن صالح مرسى قد تعامل مع الوطنيين من الجواسيس ، فيما بعد ، بحب شديد، واعجاب خاص ، فراح يطيل بقاءه ، كمبدع معهم . ويكتب عنهم مئات الصفحات ، وكأنه لايريد أن يفارقهم مثلما حدث مع «جمعة الشوان » حين حول قصته الى رواية نشرها فى مجلة «المصور» ثم الى مسلسل تلفزيونى قام ببطولته عادل امام . ثم مع

رأفت الهجان فى الرواية التى صدرت في ثلاثة أجزاء ، وحولها بنفسه الي مسلسل من ٦١حلقة أذيع على مدى ست سنوات ، وايضا مع نديم هاشم بطل رواية «الحفار» التى تحولت الى مسلسل تلفزيونى عام ١٩٩٦ .

ويهمنا أن نقتطف فقرة قصيرة من اقصوصة «المشنقة والحرية» المنشورة قبل «الصعود الى الهاوية» مباشرة فى «كتاب الهلال» المشار اليه ، كى نتأكد كيف خلت عبارات صالح مرسى من أي احساس . وبدت كلماته كأنها طلقات رصاص عليها أن تقتل الجاسوس الخائن بعدد كلمات الاقصوصة . ففى يوم ١٤ نوفمبر عام ١٩٧٣ قُبض علي نبيل واعترف . صرح مسئول فى الاستخبارات المصرية أنه كان تحت السيطرة الكاملة لمدة عشر سنوات .

وعندما علمت خطيبته الثانية بالأمر قالت :

- لو كانت دى قضية عادية ماكانش ممكن أسيبه ، لكن دى خيانة .

ثم نزعت الدبلة .

وبهذا الاسلوب تحدث صالح مرسى عن عبلة كامل . فهى ، وايزاك ، العميل الاسرائيلى ليسا سوى قطع من الشطرنج تتبعهما الاستخبارات المصرية ، فقبضت علي إحداهما ، اما الثانى فقد انتحر : «مد يده الي احدي قطع الشطرنج ، والقى بها فى سلة المهملات » .

وعبلة كامل نموذج لامرأة تصلح لأن تكون جاسوسة ، لكن الذى تلقفها هو جهاز الموساد ، فقد كان اذا تردد اسمها في كلية الآداب اقترن بالنبوغ والعبقرية . تتسم بتوقد الذهن وحضور البديهة . وهذا الذكاء المتقد والكيان البالغ الجمال انثويا يُصدم في تجربة عاطفية ، كما انها تعيش فى اسرة تملأها الخلافات بين اب متواضع ، وأم جشعة مالياً . كل هذه الاشياء التى قد تبدو عادية بالنسبة للفتاة أصابتها بحالة من الكراهية «طوفان رهيب من الكراهية راح يتدفق من اعماقها . وانتقلت في لحظة من عالم الى عالم وازداد تفوقها . وازداد نبوغها واعجاب الناس بها » .

وتردد عبلة التى اصابتها عقدة الفقر : «لوكان بابا غنى ماكنش رمزى عمل كده» فلولا المال لما التوت الاعناق فى ڤيلا محمد بك اسماعيل والد صديقتها سلوى ، ورئيس مجلس إدارة إحدي الشركات الكبرى لتشاهد هذه الفتاة التى كانت ترفل فى ثوب لم تره عين.

انه الفستان الذى اشتراه لها مدرسها ببير ... وهو جاسوس يعمل لمصلحة الموساد ومزروع فى مصر ..أى أن بداية تجنيد عبلة كانت فى القاهرة ، فهو الذى وفر لعبلة كامل فرصة السفر الى فرنسا للدراسة فى السوربون بمساعدة الموساد .

وقد كشف صالح مرسى فى هذه الرواية القصيرة عن بعض الوسائل التى يتم بها تجنيد العملاء فليست عبلة كامل الفقيرة الجميلة هى التى تم تجنيدها فقط بتوفير منحة دراسية لها فى السوربون فقط . ولكن هناك تسهيلات يمكن أخذها من البروفسور الفرنسى أرمان الذى تم تهديده بأنه ضد السامية اذا لم يتعامل مع الموساد . أو أنه صديق النازية . أما الطرف الثالث فقد راحت عبلة من ناحيتها تجنيده . انه صبرى الشاب المصرى الذى يكاد يُولع بها. هياما وحباً . وتكمن خطورته فى انه يعمل في مطار سرى : «عارفة يعنى ايه مطار سرى ، عارفة يعنى ايه ملجأ لطيارة ثمنها عشرة مليون جنيه ، عارفة يعنى ايه قاعدة صواريخ ، انا ليل ونهار مغروس في شغلي ، وعمري ما إتكلمت مع حد في الشغل ده ، لكن الواحد ساعات بيحب يفضفض ، يفضفض مع مين إن ماكنتش حافضفض معاكي . ؟..» .

وهكذا اكتملت اضلاع المثلث ، فعبلة تحصل على المعلومات عن طريق صبري والتي تقوم بنقلها الي ايزاك الذي يرسلها الي تل ابيب .

وكما اشرنا ، فان بطولة جهاز الاستخبارات هو الكشف عن العميل . والضابط الذي وراء هذا الكشف هو عمر كامل . ضابط من نوع خاص .. لايقتله في الدنيا سوي الروتين والنظام دون أدنى خلل ، وقد كشف صالح مرسى كيفية مهارة ضابط الاستخبارات . فهو شخص يتمتع بدقة شديدة في الرصد لفتاة مصرية لم يكن حولها أي شيء يثير الشبهات . ذلك انه علم الاستخبارات غير المكتوب ، والذي يكتسب بالتجربة والمران والخبرة المتراكمة عبر السنين ، يوجد نوع من الاسئلة ، أو أسلوب للمناقشة ، يبدو لأشد العيون والاذان تدقيقا ، أسئلة أو مناقشة عادية ، لكنه بالحس وحده تظهر أن هذا النوع من الأسئلة الاستشارية التى تستثير السامع فتدفعه للإدلاء بالمعلومات فى مجال المناظرة أو المباهاة أو محاولة التظاهر بالعلم ببواطن الأمور أو حتي في مجال الحماس .

وكانت اسئلة عبلة من هذا النوع ؟

وقد جاءت خطورة عبلة انها ألقت كل إحساس بأى شعور وطنى أرضا . وبرع صالح مرسى في استفزازه لكراهيتها ، ليس لسلوكها وحده ، بل لكل كلمة تقولها . فالكاتب يذكر

أن عبلة زارت اسرائيل وشاهدت مواقع الجيش الاسرائيلى فى الجبهة المصرية ، وزارت مبنى الكنيست ، وحضرت احدي المناقشات الحادة ، وهي تردد بشكل يذهل الجميع : «لست بطلة . أنا جاسوسة» . ويقول لها ضابط كبير في استخبارات اسرائيل انها افضل لديه من أربعة جواسيس كاملين ».

ويقول صالح مرسى وهو يتحدث عن ضابط الاستخبارات الذى يقف وراء القبض علي عبلة ، انه كان يعلم أن الانتصار يعني الصبر ، ولم يكن الانتصار هو القبض علي عبلة أو صبرى . فالجاسوس يوم أن يُعرف « يصبح بلاقيمة للجهاز الذي يقاومه يوم يكشف امره . ويصبح بلاقيمة للجهاز الذي يشغله يوم القبض عليه » .

وقد رسم ضابط الاستخبارات خطة من أجل القبض علي عبلة «تعرف اننا لو ماكناش قبضنا على عبلة كامل . مكانش ممكن حرب اكتوبر تتم بالكفاءة التى تمت بها » مما يوضح أهمية هذه العملية . فالقبض على الجاسوسة يعادل في منظور صالح مرسي زرع جاسوس .

وهناك ثلاثة انماط من الجواسيس في منظور صالح مرسي ، حسبما جاء في مقدمة روايته عن « رأفت الهجان» ، وهم :

- انسان يعمل من اجل المادة
- وآخر تستعبده الشهوات
- وثالث يدفعه المبدأ والعقيدة لركوب المخاطر ، وهذا النوع لايصبح جاسوسا ، بل يطلق عليه اسم مندوب ..

وعبلة كامل تمثل النوع الأول والثانى معا . ورغم ان لعبلة كامل ملفا له رقم خاص في وكالة الاستخبارات تحت اسم عملية ، فان «الصعود الي الهاوية» قصة عن جاسوس . فهناك في روايات التجسس روايات حول عمليات تجسس وأخرى عن جواسيس . وهذه الرواية تتتبع عبلة كامل الجاسوسة منذ أن تم تجنيدها حتى تم القبض عليها واعدامها ، بكل العمليات التي قامت بها ، حتى وان تم ذلك بشكل عابر ، كما ان رواية «رأفت الهجان» ايضا حول جاسوس . وكذلك «سامية فهمى» . أما رواية «الحفار» أو «الدموع في عيون وقحة» فهي عن عملية تجسس . وبطل رواية « الحفار » - نديم هاشم - هو أيضاً احد الابطال الرئيسيين فى حياة رأفت الهجان ، حيث قام بتدريبه في اوروبا فى مرحلة كان فيها فى أشد الحاجة للتدريب ،

اما تسمية «مندوب » فهى تعبير يخص الاستخبارات في المقام الأول .

ولذا سوف نتناول رواية «رأفت الهجان» قبل «الحفار» على أساس أنها رواية حول جاسوس . وان هناك نقاط تشابه بين الاثنين ، وسوف نعتبر أن الرواية الأولى تمثل نوعا من الكتابة عن جاسوس . أي انها تمثل كافة ماكتبه المؤلف عن «سامية فهمى» .. ، أما رواية «الحفار» فهى نموذج جيد لرواية عن عملية . ومثل هذه السمات واضحة في المؤلفات التى نشرها ابراهيم مسعود في كتب ، فرواية «الثعلب» عن عملية : اما «وكر الجواسيس» فهى عن جاسوسة هى داليا المصرية .

وفي رأفت الهجان . نحن أمام جاسوس واحد منذ ان وقع الاختيار عليه وتجنيده الي أن تنتهي علاقته بالتجسس ، وحتي وافته المنية . وفى حياة هذا الجاسوس يتعاقب ضباط الاستخبارات المصريين على المندوب الذين يختارونه ، ثم يدربونه ، والذين يعيدون تدريبه ، ويتلقون منه المعلومات ، فهناك سنوات طويلة منذ ان رحل الهجان الي اسرائيل في منتصف الخمسينات ، حتي طلب اعفائه في منتصف السبعينات وقد حدثت في هذه الفترة تغييرات كثيرة في إدارة الاستخبارات ، كالعادة . اذن ، فنحن أمام جاسوس يدور في فلكه عالم مزحوم بالشخصيات الرئيسية والثانوية ، بمن فيهم رجال الاستخبارات والزوجات والاشقاء ، والابناء ....

وقد اختصر صالح مرسي رأيه في رواية التجسس من خلال فقرة وردت في نهاية مقدمة روايته عن «رأفت الهجان» : «واذا كانت قصص التجسس في العالم كله .. اذا ماخرجت الي النور لاتخرج بنصها وكما حدثت ، لأن هذا يبدو من وجهة النظر الفنية مستحيلا، وهو أيضا يبدو من وجهة النظر الأمنية من رابع المستحيلا ت ، واذا كان الخلق الفنى نوعا من اشتار السرية المفروضة والضرورية ، فهو أيضا نوع من تجميل تلك الجهات التى تحيط عادة ، بالعمل السرى .. واذا كان الامر كذلك ، فانه لابد لهذا الخلق الفنى الوافد والجديد ، ان يمتزج بالواقع المتاح للكاتب امتزاجا كيميائيا ، إن صح التعبير ، يستحيل بعده على القارىء ، ان يفرق بين الواقع والخيال .. اقول : اذا كان الامر كذلك فاني اتساءل قبل ان أخط كلمة واحدة في هذا العمل :

هل يستطيع الخيال ان يرتفع الي مستوي الحقيقة ؟

وصالح مرسي في هذه الرواية مبهور بالجاسوس اكثر من انبهاره بعملياته التي قام بها ،

وهو ممتن له بالكثير ، ليس فقط فيما يكتبه عنه ، بل في جلساته وندواته الخاصة والعامة .. ويهمنا قبل ان نستطرد في هذه الدراسة ان نؤكد أن الكاتب يختلف معنا في أن روايته «كنت جاسوسا في اسرائيل» رواية حول جاسوس . وهو يطلق عليها عملية . وقد يكون ذلك تقسيم استخباراتى ، لكنه ليس بالتقسيم الادبى ، وحتي لو سمي الهجان بانه «العملية رقم ٣١٣» في ملف الاستخبارات . فلاشك أنه عند تحويل هذه العملية الي رواية فانها تصنف حسب المكتوب فيها . وحسبما رواها الكاتب . فلو أن صالح مرسى قد تناول احدي عمليات الهجان فقط لكانت روايته عن التجسس . أى عن حالة واحدة أو عملية واحدة .

فلو كان لنا أن نقسم رواية التجسس لقلنا انها إنقسمت عند صالح مرسى الى رواية عن التجسس ، ورواية عن الجواسيس . وأشهر جواسيس صالح مرسي جمعه الشوان ، وعبلة كامل ، ورأفت الهجان ، وسامية فهمى . والكاتب يكن أصفى المشاعر تجاه الذين عملوا لصالح وطنهم بقدر ماهو يحمل من كراهية لهؤلاء الذين تجردت مشاعرهم من اسمى الاحاسيس الانسانية ، وهي حب الوطن .

والجاسوس عند صالح مرسى صنيعة جهاز استخبارات ، يتكون من مجموعة ضباط يؤمنون بقضية وطنهم قبل أن يكونوا مواطنين . وكل الذين ذكرناهم جاءوا من خارج جهاز الاستخبارات ، أى تم تجنيدهم للقيام بمهام ما مهما طال زمنها أو قصر . وفى « الصعود إلى الهاوية » رأينا أن عملية التجسس أقرب إلى مباراة شطرنج بين الموساد والاستخبارات المصرية . وقد كان للموساد رجالهم في الجامعة بالقاهرة ، والسوربون بباريس ، وأيضا في جنيف ، وأماكن اخري .

ورواية رأفت الهجان .. هي في المقام الاول حول مندوب . وهو اول جاسوس يتم زرعه من قبل الاستخبارات المصرية في قلب اسرائيل ، ويري المؤلف بأن العثور علي رجل يقبل القيام بهذه المهمة وأن يكون صالحا لها أهم مائة مرة من عملية التجسس نفسها التي قام بها علي مدي أكثر من عشرين عاما زُرع خلالها في أرض العدو . يحمل اسماء بل أسماء مختلفة، ويتدين بدين غير دينه ظاهرياً وعليه اطاعة الأوامر مهما كانت الظروف .

ويرى صالح مرسي أن حكاية رأفت الهجان هي أيضا حكاية مولد جهاز الاستخبارات المصرية الذي تم انشائه في عام ١٩٥٤ بصفة رسمية . وتولته مجموعة من الضباط الذين كان عليهم أن يبدأوا دون أن تكون لديهم خبرة كافية ، فنجاح العثور على جاسوس يتم زرعه في

اسرائيل ، ثم نجاح ارساله هناك هو في المقام الأول نجاح لهذا الجهاز الوليد ، أياً كان شكل العمليات التى قام بها رأفت الهجان فيما بعد ، ومهما كانت درجة نجاحها أو فشلها أو الاستفادة منها .

ورواية «رأفت الهجان» هي ايضا رواية عن الاستخبارات المصرية ، فهناك خطان دراميان متوازيان فى الرواية بأجزائها الثلاثة : خط المندوب رأفت ، ثم خط ضباط الاستخبارات الذين بتابعون مهامه . وقد اختار صالح مرسى شكلاً روائياً غريبا لهذه الرواية بالذات بين السرد التقليدي والعودة الي الماضى .. واهتم بتقريرية الاسلوب . ثم الرجوع مرة أخرى الى الحاضر . مجموعة من الازمنة صبت جميعها في وعاء شخصية واحدة هى رأفت الهجان . هو البؤرة والمركز الرئيسى من السطر الأول وحتى آخر سطور الرواية التي تقترب صفحاتها من الألف . هو رجل متعدد الاسماء والانشطة والصفات والعلاقات ، شديد الغموض فى سلوكه وحياته .. سواء قبل أن يتم تجنيده لصالح الاستخبارات أم بعد مماته . وبدا صالح مرسى معجباً بذلك الشكل الادبى الذي اختاره ، وكأنه يحل العقدة المتشابكة الخيوط ليقدمها . ليس فقط باسلوب مفهوم . بل بأسلوب جذاب بالغ الاثارة ، ومليء بعناصر التشويق .

ومفتاح الدخول الي هذه الشخصية أنها «مبهرة» في كل تصرفاتها . «مبهرة حين ماتت ، ومبهرة حين عاشت » أبهرت الاقارب والاصدقاء ، ورجال الاستخبارات ، واليهود في مصر واسرائيل على السواء . والابهار هنا يأتي مرادفاً لمعنى الحيرة . فهو ليس ذا ثلاثة أوجه كما عرفنا أحد الجواسيس في رواية لفوليت . ولكنه متعدد الاسماء ، ولو ذكرنا الاسماء التى تسمت بها هذه الشخصية في الرواية وحدها لاكتشفنا مدي مايسكن داخلها من اسباب الحيرة. لهذا فهو جاسوس فوق العادة بصرف النظر عما أداه من خدمات ، ومانقله من معلومات ، فحين تم تجنيد رأفت الهجان للذهاب الي اسرائيل كانت احتمالات الفشل قائمة عن احتمالات النجاح ، ولكن المندوب نجح بدرجة تفوق العادة . خاصة انه عاش ، ليس فقط بأسماء مختلفة ، بل بديانة مختلفة ، «وكان عليه أن يخفي اسلامه داخل ثوب التدين الظاهر لليهودية» .

وقد جاء ظهور هذ الشخصية في اسرائيل من خلال جهاز استخبارات جديد بمثابة حالة ملحة لما يدور في اسرائيل . ومثلما يقول المؤلف في روايته - باسلوب تقرير كما سنرى - فإن «المنظمات الارهابية الاسرائيلية التى ولدت في فلسطين قبل قيام دولة اسرائيل ، كانت كل

منها تملك جهازاً خاصاً بها يعمل منذ أن بدأت سراً . لا فى فلسطين وحدها . بل في قلب الامة العربية وعلي سطح الكرة الارضية .. إن اعضاء هذه العصابات جاءوا من كل دول العالم شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً . وكان لكل واحدة منها - بالضرورة وكلاء منتشرون فى كل الدنيا ، ويمدونهم بالاسلحة والتبرعات والمعونات بطبيعة الحال وبالمعلومات .. وكان يكفي لاسرائيل عام ١٩٤٨ أن تجمع هذه الاجهزة الصغيرة فى جهاز واحد . ولم يكن الامر يحتاج الا لجهد تنظيمى لتصبح الموساد حقيقة واقعة !

«وليس هذا هو فقط ، بل ان الوكالة اليهودية التي كان لها ، قبل قيام اسرائيل بسنوات طويلة ، فروع في جميع انحاء العالم ، ومنها بالطبع الدول العربية لم تكن سوي جهاز استخبارات يعمل مع كل الدول ضد كل الدول لمصلحة اليهود (انظر ص ١٣٩ من الجزء الأول من الرواية) .

وإذا كان المؤلف قد خصص أكثر من ٣٥٠ صفحة - الجزء الأول من الرواية - للحديث عن رأفت الهجان والاشخاص الذين يدورون في فلكه ، حيث تم العثور عليه ليناسب مخطط وكالة الاستخبارات المصرية من أجل السفر الي اسرائيل ، فان الجزء الثانى هو حول نشاط الفتى في اسرائيل ، كيف كان يعيش هناك .. وماذا عن الاخبار التي أرسلها الي القيادة المصرية ؟ ومدي استفادة هذه القيادة لصد العدوان الاسرائيلى عام ١٩٥٦ ، الا أن القيادة العسكرية لم تستفد من هذه المعلومات بالمرة ، وقد كان ذلك سببا - علي مايبدو - في اصابة الجاسوس بالبرود ، مما استدعي تدريبه من جديد بعذ ذلك بعامين ، فلقد كانت الرسالة تحوى معلومات غريبة ، غرابة تفوق الخيال ، وكانت المعلومات مشفوعة بمصدرها الذي كان هو نفسه الرائد الملحق برئاسة الاركان الاسرائيلية ، والذي حكي عن خطة محكمة لعدوان ثلاثي تقوم به كل من بريطانيا وفرنسا واسرائيل في الايام القليلة القادمة .

«كان الخطاب خطيراً .

« والمعلومات التي يحويها بالغة الاهمية !

وقد بدا غريباً أن يقفز الكاتب عامين بأكملهما من حياة المندوب دون أن يذكر السبب الفعلي «انه مضطر لان يتوقف عن الاسترسال في قصة الفتي عند هذه النقطة ، كي يلقي نظرة يراها ضرورية ولازمة ، علي المحيط الذي يتحرك فيه ، لا الفتي وحده . بل جهاز الاستخبارات المصري نفسه .. ذلك أننا بالضرورة وبحكم سياق القصة نفسها . نجد انفسنا



رأفــت الهجــان

مضطرين لأن نقفز بالزمن قرابة عامين كاملين .. منذ ماقبل العدوان الثلاثي في ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ وهو ارسال الفتي لرسالته الخطيرة تلك ، وحتي منتصف شهر يوليو من عام ١٩٥٨ (انظر ص ٨٩ من الجزء الثانى) .

وكما اشرنا أن هذه رواية عن جاسوس ، وان هذا الجاسوس الخارق علي الاقل من منظور المؤلف كان هو المحدد الاساسى للاحداث ، وفي الجزئين الثانى والثالث من الرواية بدت الاحداث آبطأ فى الإيقاع ، فبحكم وجود الهجان في المجتمع ، فعليه أن يتعرف على الناس ، وبحكم انه عمل في السياحة ، فلابد ان ينتقل بين اسرائيل واوروبا بسهولة حيث يمكنه مقابلة رجال الاستخبارات المصريين خاصة نديم هاشم الذي دربه ، وقد اهتم الكاتب باضافة البعد الانسانى على سلوك بطله ، فلانه لم يقع في هوى امرأة ، فقد جعل العلاقة بينه وبين اخته شريفة مشبوبة ، فهو يود الحضور الى القاهرة من أجل رؤيتها ، وهناك مساحات كبيرة في الرواية تركز على هذا البعد الانساني ، خاصة حين تأتى رسالة الى شريفة تثير الشكوك ، ثم حين يقوم الهجان بزيارة بيت اخته . والي جوار ذلك ، فان العمليات التي يقوم بها بدت تقليدية، حيث هناك إشارة أنه تعرف علي ضابط اسرائيلى كبير في حاجة ملحة الي المال ، خاصة أنه مقترن بفتاة صغيرة جميلة . وقد كان هذا الضابط لقمة سهلة في طريق الهجان فاستطاع أن يجنده كي يحصل منه علي المعلومات .

وقد أحس القارىء أن كل هذا الجهد ، روائيا الذي بذل من اجل الهجان ، كان أقل بكثير مما قدمه ، بل أن الكاتب فى نهاية كتابه يؤكد أن ماحدث في اكتوبر ١٩٧٣ لم يكن بفضل رأفت الهجان وحده . وفي اسرائيل لم يكن رأفت الهجان بالطبع وحده ..

«كان هناك غيره ، ومن فعل مثله ، يضيف الي معلوماته كما يضيف الي معلومات الآخرين في كل مكان كان هؤلاء الابطال مجهولون ، والذين لايعرفون بعضهم البعض ، يتحركون داخل صفوف العدو ، وكأن كل فرد منهم ، هو المسئول وحده عن النصر .

وقد ارتبط رأفت الهجان في قلوب الناس أكثر ، علي المستوي العام ، بعد أن اذيع اسمه الحقيقي وأصبحت زوجته وابنه محط أنظار وسائل الاعلام ، وعمل ذلك علي الاحساس بمدي أهميته علي المستوي الانسانى ، لكننا لسنا بصدد الحديث عن الاشخاص ، بقدر مانتعامل مع النص الادبي المنشور في كتاب .

*****

واذا كان الجاسوس المجند ، لم يقم بكل ماهو منتظر منه ، أو لاننا لم نعرف ماقام به ، فان رجال الاستخبارات هم الابطال الحقيقيين . وقد بدا ذلك في العملية الناجحة التي سجلها صالح مرسي في روايته «الحفار» التي نشرها صالح مرسي عام ١٩٨٥ . وهي رواية عن عملية تجسس ، بكل ماأحيط بهذه العملية من اشخاص وأحداث اجتماعية وسياسية . فالجميع متكاتفين من أجل ملاحقة الحفار . والجميع يدور في فلك كيان واحد هو «الحفار» ذلك الكائن الحديدي الذي لايظهر في أغلب اجزاء الرواية ، لكنه محور الاحداث . منذ أن تحرك من سواحل كندا ومر بكل من الموانىء التي اجتازها حتي تم تدميره باعتبارات وصوله الي اسرائيل في عام ١٩٧٠ كان يعنى الكثير في منطقة الشرق الاوسط .

و«الحفار» عبارة عن رصد روائى تقريرى لملف في وكالة الاستخبارات المصرية ، راح صالح مرسى يطالع وقائعه بمساعدة احد الضباط الذين كانوا أعمدة هذه العملية بتفاصيل دقيقة ، ثم راح يسجلها باسلوبه الخاص .

وبهذا ، فان صالح مرسي يكون حالة خاصة فى رواية التجسس ، فأغلب الشخصيات التى يتحدث عنها في روايته موجود بالفعل . بل هو يذكر بعضها باسمائها الحقيقية مثل امين هويدى رئيس جهاز الاستخبارات في تلك الآونة . وهو يتعمد أن يعطى اسماء قريبة فى الوزن من الاسماء الحقيقية . وهو حين يتحدث عن فنانة معروفة في تلك الآونة اشتركت في العملية،

يعطيها اسم دلال شوقي لكنه يقدمها الى القارىء بطريقة الكلمات المتقاطعة مما يسهل علي القارىء أن يعرفها بسهولة .

ومفتاح الدخول الي هذه الرواية أن صالح مرسي لايكتبها باسلوب الروائي الذي يجيد الرصد والقص فقط ، بل لأنه كاتب مفعم بالمشاعر الوطنية . فإنه يحب قصة مطاردة الحفار ، بنفس الدرجة التى احب بها رأفت الهجان ، رغم انه لم يقابل ولم ير أى منهما علي الاطلاق .

وبهذا الحماس الوطني المتقد ، راح المؤلف يقدم قصة «الحفار» في صفحات مطولة ، وهو مؤمن أنه لايحكي قصة تجسس مثيرة قدر ماهو يصوغها من دمه ووجدانه .

وفي مقدمة الرواية ، حكى المؤلف باختصار شديد قصة الحفار . وبالتالي فقد أعلم القارىء أن الاستخبارات المصرية قد نجحت فعلا في تدمير الحفار ، اي ان القارىء عندما يبدأ قراءة السطر الأول من الرواية تكون لديه معرفة بالحكاية ، ومع هذا فعليه أن يجد نفسه يلتهم سطور الرواية بشغف شديد وفي كل السطور اللاحقة وهو يعرف أن الحفار سيكون في نهاية الامر بين يدي رجال الاستخبارات المصريين ، ومع ذلك فهو يستمر في القراءة ، لأن المؤلف لم يذكر في المقدمة «كيف» تم تدمير الحفار. ومن هنا جاءت براعة الاستهلال .

ففى اثناء حرب الاستنزاف ، أعلنت اسرائيل عن عزمها على التنقيب عن البترول في سيناء ، وشفعت هذا الاعلان باعلان اكثر استفزازاً يقول انها بالفعل استأجرت حفاراً لهذا الغرض ، واحاطت الدعاية الاسرائيلية هذا الحفار بضجة اعلامية شملت العالم كله . ويبدو واضحاً للقيادة المصرية أن الغرض الرئيسى من شراء هذا الحفار ليس اقتصاديا ، رغم ان وجود الحفار سيدعم خطتها بانشاء مستوطنات ، تصبح مع الأيام منشآت ثابتة تكرس بقاءها في الارض ، وانما كان الغرض الرئيسى هو اذلال مصر عالميا ، واظهارها أمام الاصدقاء والاعداء بمظهر العاجز لاعن حماية أرضه فقط ، بل وموارده الطبيعية فيها .

بطل هذه الرواية اذن ، هو الحفار الذي تتصارع من أجله قوتان متنافستان : الأولى هى وكالة الاستخبارات المصرية . أما الثانية فهى وكالة الاستخبارات الاسرائيلية (الموساد) . ورجال الوكالتين موجودون في كل مكان يمكن أن يتواجد فيه الحفار . في رحلته من كندا متجهاً نحو البرتغال ماراً ببعض الجزء في المحيط الاطلنطى . ثم متجها نحو افريقيا أو بالتحديد السنغال ونيجيريا .

هى مطاردة لاهثة اذن ، وفيها يلعب الزمن البطل الثانى ، فعلي رجال الاستخبارات

في مصر تفجير الحفار قبل وصوله الي باب المندب ، وقبل عبوره الي البحر الاحمر ، ويجب أن يتم ذلك دون إثارة اى شبهات أو أى مشاكل مع الدول الصديقة سواء في افريقيا أو الولايات المتحدة .

ويقدم صالح مرسى ثلاثة من أعمدة جهاز الاستخبارات في تلك السنوات : اولهم الرئيس امين هويدي ، أحد الضباط الاحرار ، والذي عمل سنوات في الجهاز ثم نقل منه ، وعاد اليه مرة ثانية ، ويقول المؤلف أن «التعامل بين هويدي ورجاله كان سلساً . كان كالتعامل بين فريق متجانس الافكار . يفهم كل فرد فيه مايريده الآخرون دون كثير من جدل أو حوار» .

أما الشخص الثاني فهو طاهر رسمي : « ملامحه منسقة وصوته خافتا ، وعلي شفتيه ابتسامة من يخطو في طريق يعرف كل شبر فيه » .

وطاهر رسمي هو بالطبع اسم مستعار ، وكلا الاثنان يمثلان المخ لهذه العملية ، اما الرجل الذي عليه أن ينفذ العملية فهو نديم هاشم الذي يطلق عليه الآخرون اسم «نديم قلب الاسد » ، كان هو الرجل المطلوب لمثل هذه المخاطر الخيالية ، واذا ماتأزمت الأمور ، ووصل الامر الي ذروته ، فلسوف يصبح الجهاز في حاجة الي قلب اسد فعلاً . رجل شديد الشجاعة ، بارد الاعصاب في أشد الاوقات حرجاً » .

ونديم هاشم هو اسم مستعار ايضا ، وقد أذيع اسمه الحقيقي بعد عرض الجزء الأول من مسلسل رأفت الهجان ، وعُرف انه السيد محمد نسيم الذي عمل فيما بعد رئيساً للهيئة المصرية العامة للسياحة .

وتؤكد الرواية أن للمصريين اعوانهم من جنسيات عديدة . وهم متواجدون في انحاء متعددة من العالم ، ابتداء من موريس الذي أرسل أول برقية عن الحفار ، مروراً بالفريد باهر ، والثنائى ليز ونورمان والعشرات من الشخصيات ، جميعها موجود من أجل دور محدد لايخرج عنه ، فلكل من هذه الشخصيات منطقة الرصد التي يعمل فيها ، والمهمة المحددة التي عليه القيام بها .

والمؤلف ، رغم اسلوبه التقريرى ، فأنه لا يجرد الشخصيات من جانبهم الأنسانى ، فهناك حالات توتر وقلق يعيشها نديم قبل أن يذهب من بيته ، فولداه قد اصيبا بمرض الحصبة ، وعليه أن يطمئن عليهما .

لم يكن هناك شيء هام فى جهاز الأستخبارات سوى ملاحقة الحفار ، فالوقت يجرى ، وأصبح للدقيقة الآن ثمن باهظ لا يمكن تعويضه ، وكان يعلم معنى أن تدور العجلة ..

ووسط هذه العجلة ، كان على الأب أن يكون بالفعل قلب الأسد وأن يخرج من بيته بعد وداع تقليدى بسيط كى يتجه إلى مكان يستعد منه لمهمته .

وكما أشرنا فإن الذى يقوم بهذه العملية هو جهاز بأكمله ، له رجاله ونساؤه فى أماكن عديدة وعلي الكثير منهم أن يلبس زيا مختلفا ، وشخصيات مغايرة ، ويتجه كل منهم الي حيث طُلب منه أن يعمل ، مثل المدرس ابراهيم سيد فرج الله الذي يذهب الي باريس ، والمواطن أحمد زين العابدين المتجه لاداء العمرة .

ولان هذه المهمة حساسة ، فإن الامر يتطلب « سرية مطلقة » وكتمانا شديداً واخفاء كاملا ، رغم ان الحركة المحسوبة في حقل ترصد فيه كل حركة ، وكل همسة وكل ايماءة ، بل وكل نظرة ، «تسعون في المائة من نجاح هذه العملية يتوقف علي عدم احساس جواسيس اسرائيل بما هو مقدم عليه » والامن يتطلب عدداً قليلاً من الافراد .. أقل عدد ممكن منهم .. وانت تستطيع أن تحفظ سراً بين اثنين ، ولكنك تضمن عدم إفشاء هذا السر تماماً اذا لم تبح به لأحد !! »

ولأننا آمام عملية يقوم بها جهاز الاستخبارات ، فان الكاتب يتابع كل الاشخاص خاصة الرئيسية منها ، الموكول لها مهام حساسة ، مثل نديم هاشم الذي كان عليه أن يدخل من مطار شارل ديجول ، ثم أورلي ، ومعه حقائب مليئة بملابس الضفادع البشرية ومعداتهم وأدوات تفجير تحت الماء . وكشافات خاصة في وقت كانت اوروبا تنظر الي العرب بحذر شديد نتيجة لكثرة أعمال الفدائيين في المطارات . « احس بالجو المتوتر الذي يسود المطار ، تلك النظرات المتشككة التي تصوب الي كل عربي مهما كانت جنسيته ، أيقن أن شيئا ما قد حدث » .

وقد واجه نديم هاشم وهو في طريقه الي داكار الكثير من الصعوبات ؛ لكنه واجهها بقلب الاسد ، كان موقنا أن المطار مشحون بالخطر ، كما كان واثقا من ذلك التعاون السرى بين الاستخبارات الفرنسية والاسرائيلية ، ولابد أنهم هنا ، هؤلاء وأولئك ، في كل مكان يسعون بين المسافرين ، يحملقون فى الوجوه ، ويفرزون الملامح ، ويلتقطون كل حركة بعقول دربت علي كشف الخبيء »

وباسلوبه الخاص ، وعلي غرار مايفعل كتاب الرواية البوليسية ، فان صالح مرسي يكثر من التساؤلات عن مصير اشخاص .. كأن يقطع حديثه عن نديم هاشم أثناء التفتيش كي يبدأ فصلاً جديداً : «علي السطح كانت الكتب المتراصة في نظام وترتيب ، وانقضت يد الضابط علي كتاب راح يتفحصه ويفحصه ، القي به ، ثم امسك بكتاب آخر وثالث ورابع .. كان واضحاً أنه يشك في أن الكتب صناديق تحوي متفجرات ، لكنه عندما دس يده فيما تحت السطح ، وراح يعبث بمحتويات الحقيبة . أدرك نديم أن اللحظة قد حانت فاستعد ، فتحت هذا السطح كانت تكمن كارثة ، ملابس الضفادع البشرية ، وأدوات تفجير تحت الماء وكشافات خاصة » .

وكما اشرنا ، فان كل هؤلاء الاشخاص مكرسون لهدف واحد هو ، ملاحقة الحفار والعمل علي تفجيره قبل الوصول الي البحر الاحمر ، والقارىء في هذه الرواية في حالة لهاث وراء الاحداث ، ورغم انه يدمنها مسبقاً ، وكأن هناك حالة من سباق مع الزمن ، فعلي رجال الأستخبارات المصريين ، ومن يعاونهم ، القيام بمهامهم علي خير وجه ، في الوقت المناسب .

وفي مواجهة رجال الاستخبارات من مصر ، يقول المؤلف أن هناك رجالا ونساء من أمهر اعضاء الموساد يعملون علي حراسة الحفار ، وعلي كل شخص أن يسير تبعا للخطة المرسومة له ، ومن هؤلاء سارة جولدشتاين «اسمها الحقيقي ليلى مسعود» ، ولدت في اليوم التاسع من شهر مارس عام ١٩٣٦ . في حارة زاوية الاعرج المتفرعة من حارة اليهود ، والمتفرعة من شارع الميدان بالاسكندرية . رحلت عن مصر في عام ١٩٥٣ . وهي في السابعة عشرة من عمرها بصحبة امها وشقيقة صغيرة وشقيق أكبر منها هو زكى مسعود الذي عُرف فيما بعد باسم ايزاك ليفي ، المتخصص في اصطياد الشباب العربي في اوروبا وتجنيده لحساب الاستخبارات الاسرائيلية » .

ومثلما جاء ذكر نديم هاشم اكثر من مرة أيضاً في رواية « رأفت الهجان» ، فان ايزاك ليفى . هو نفس الشخص الذي سبق ان قام بتجنيد عبلة كامل في أقصوصة «الصعود الي الهاوية » والذي اشار صالح مرسي في نهاية الاقصوصة أنه انتحر عقب القبض علي الجاسوسة المصرية عبلة كامل التي عملت لصالح اسرائيل .

وعلي طريقة الاحالات في الرصد ، فان صالح مرسي كلما ذُكرت شخصية ذات أهمية في أحداث الرواية ، يقدم عنها المعلومات اللازمة مثلما فعل مع سارة جولدشتاين ، وهي امرأة

شديدة الذكاء . ذات قدرة خاصة علي التخفي ، تجيد ست لغات ، تبدو دائماً أصغر من سنها بعشر سنوات علي الاقل ، ولاتظهر الا في الاوقات التي تستلزم جرأة فائقة ، ويصاحب ظهورها دائما عمليات عنف غير متوقع » .

وهكذا نرى صالح مرسى يجيد صناعة التوتر لدي القاريء ، وهو يتساءل عما يمكن أن يحدثه ظهور هذه المرأة التى تتولى حماية «الحفار» وهو فى رحلته نحو البحر الأحمر .

ووسط هذا الجو المليء بالتوتر نجح نديم هاشم في الذهاب الي داكار ، ووصلت أيضا بعثة سينمائية مصرية لتصوير فيلم هناك كنوع من النشاط التمويهى لمايفعله المصريون ، ووصل ايضا أربعة من الضفادع البشرية ، علي كل منهم أن يحمل عبوة ناسفة وأن يضعها في مكان معين من قاع الحفار . «وضع نديم نظارته المعظمة فوق عينيه ، وراح من مكمنه داخل سفينة الصيد الماثلة ، يرقب الحفار قدما بقدم . في قلب السفينة ، كان خليفة مشغولاً بتجهيز اللمسات الأخيرة لمعدات الرجال ، وفي تلك الليلة ، مثلا ، وبينما الرجال يستعدون لعمليتهم، كان الحفار يتحرك ، وبدا الحفار علي البعد يتبع القاطرة كالامل يتبدد في الفضاء ، وسرى صوت الات القاطرة المكتوم في سماء الميناء كالهدير البعيد .. شبحان يتتبع احدهما الآخر ، هدأت العاصفة فى المحيط ، ومرت ، فاستكانت مياهه حتى الآفق ككرة بللورية في عالم مسحور . »

وفى اللحظات الحاسمة اشتدت المواجهة بين رجال الاستخبارات المصريين الذين وكلت اليهم المهمة ، وبين عوامل عديدة منها الظروف المناخية التى يعملون فيها ، ومنها شراسة الجاسوسة الاسرائيلية سارة جولدشتاين التى كانت تتصرف بشكل يجعل المصريين يعرفون أن اسرائيل ليست غافلة ، وأنها على استعداد لخوض المعركة مهما كانت شراستها . «وبعد أن مضت تلك الساعة الملتهبة ، بدا واضحاً ان سارة قد وصلت الي طريق مسدود ، وان اتخاذها لقرار ما أصبح صعبا ، برغم أنه حتمى .. » .

والبطل الثالث في هذه الرواية ، بعد «الحفار» و«الزمن» هو فكرة المطاردة ، فهى العنصر الجديد الذي دخل حرب العقول التى تأججت هذه الايام ، وقد اعتمدت الفكرة علي تحديد المكان والزمان ، فقد استقر أن انسب الاماكن لتدمير الحفار هو ابيدجان التى كانت قد تحولت في نفس الوقت الي قلعة امريكية حصينة .

لم يكشف صالح مرسى عن «كيف » تم تدمير الحفار ، الا ابتداء من الفصل الحادى

عشر فيما اسماه بالخطة الثالثة . فقد شاركت البعثة السينمائية المصرية التى تعمل في افريقيا في نقل صاروخين على درجة عالية من كفاءة التدمير .. واذا كان الكاتب قد خصص عدة صفحات للحديث عن الممثلة دلال شوقى فانه لم يكشف عن دور هذه البعثة السينمائية إلا في الفصول الأخيرة من روايته .

«امتلأت المدينة برجال الاستخبارات المركزية الأمريكية ، الذين ليس بالضرورة ان يكونوا أمريكيين : ثم انها امتلأت ايضا برجال الموساد ، ثم كانت هناك تلك العناصر السياسية الشديدة الأهمية التى تمثلت في تلك الصداقة الوطيدة التي استطاعت اسرائيل أن تبنيها مع حكومة ساحل العاج ....

وفي الفصل الأخير وصف المؤلف كيف تم تدمير الحفار . والدور الذي قام به رجال الضفادع البشرية تحت قيادة نديم هاشم .

" قضت المدينة ليلة هادئة سعيدة ...

" ولكن قلبها كان يغلى بمافيه من أحداث ، ففى تمام الساعة الثانية والنصف من فجر يوم الاحد من مارس ، كان الرائد خليفة جودت قد جهز كل شيء في البيت الآمن : ملابس الضفادع البشرية ، العبوات الناسفة ، أقلام التفجير التى اختيرت من النوع الذي يحدد وقت التفجير بعد ثلاث ساعات » .

«انتفض جسد نديم من مكانه ، قفز مع صوت انفجار يأتيه من بعيد ، نظر في ساعته فاذ هي السابعة وخمسون دقيقة ، خفق قلبه خفقانا شديداً ، وراح يرقب عقرب الثوانى ، وهو يدور في ساعدته ببطء مميت امام النافذة ، كان يروح ويجيء مطمئناً أن أحدا لن يراه من خلال النافذة المبطنة بشبكة من السلك الرقيق ليمنع الناموس عن الغرفة .. في الثامنة وسبع وخمسون دقيقة دوى الانفجار الثانى ، فاهتز حتى الاعماق » .

ويهمنا ونحن نعرض لهذه الرواية ، أن نورد ماكتبه صالح مرسي عن تجربته في رواية «الحفار» في العدد ٣٣٦٦ من مجلة المصور قائلاً أنه واحد «من الذين يؤمنون بأن العقل المصرى قادر دائما على اقتحام الجديد والصعب ، ماذا لو إنى مزجت الواقع بالخيال الضرورى لكتابة رواية من نوع جديد ؟ عندما عدت الي بيتى في تلك الليلة كانت الافكار تصطرع في رأسى بعنف شديد ، واذا كانت معاناتى في فيلم «الصعود الى الهاوية» لان اكتبه اثنتى عشرة مرة قرابة ثلاث سنوات ، فإن «دموع فى عيون وقحة » كان لها وجه آخر من أوجه



وحيد سيف ولبلبة وسماح أنور فى « الحفار »

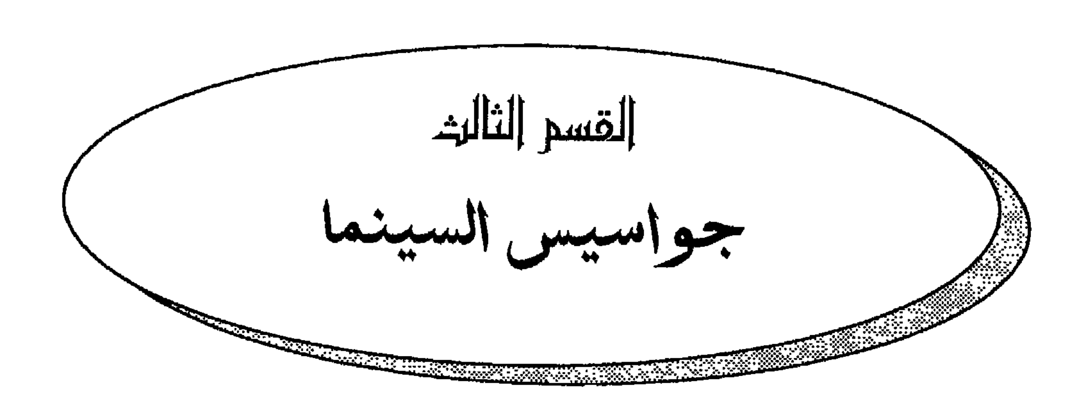
المعاناه ، وجه لاسبيل الي الافصاح عنه الآن ، فكيف ستكون المعاناة مع الحفار » ؟

ولعل صالح مرسى لم يكن يعرف أن أول عمل من روايات التجسس مأخوذ الي السينما أو التليفزيون من أفلامه لايكون هو كاتب السيناريو والحوار فيه هو «الحفار» حيث اسندت كتابته الى بشير الديك وقام باخراجه وفيق وجدى وقام ببطولته كل من حسين فهمي ومصطفى فهمي ، ويوسف شعبان وهالة صدقى ، وسماح انور ، وكرم مطاوع ، وسوسن بدر ، ومنال سلامة .

ويكمل المؤلف حول تأليف هذا النوع من الروايات قائلاً في نفس العدد من مجلة المصور : «من اشد الامور ايلاما للنفس ذلك الظن الذي يحمله البعض أن هذا النوع من القصص لايحتاج الي مجهود ، أنت تجلس لتسمع أو تقرأ المكتوب ، ثم تكتب ماقرأته أو سمعته ، ووصل الامر بأحد الزملاء مرة أن أتهمني بأنى اكتب مثل هذه القصص كى أروج القضايا والأسئلة ، وربما المشاكل الي جوار تلك المشكلة الكبري مع الكتابة ».

في الطبعة الأولي من كتابنا «رواية التجسس» تنبئنا أنه من المتوقع ان تستمر العلاقة قوية بين الكاتب وبين هذه الروايات ، واشرنا انه لم يظهر كاتب روائى عربي له نفس الاهمية في رواية النوع مثل صالح مرسي . ولكن ماحدث هو العكس ، فقد بدأ كأنه اصبح علي صالح مرسي الا يكتب ثانية مثل هذه القصص الحقيقية ، ولم يفعل شيئا سوى أن طبع رواية «دموع

في عيون وقحة» في كتاب ، وقد تأخر ذلك سنوات طويلة ، لكنه لم يقم بتأليف رواية واحدة جديدة . وكأن دوره فى ذلك قد توقف بينما قام كاتب آخر ليس على نفس درجة الموهبة هو ابراهيم مسعود بتأليف روايات مثل « وكر الجواسيس» .. و« الثعلب» ورغم تحويلها الي أفلام ومسلسلات ، فانها لم تنجح ، وأتت بنتائج عكسية . خاصة بعد عرض مسلسل «الطريق إلى بئر سبع » عن قصة لعبد الرحمن شوقى فى آواخر عام ١٩٩٥ . وحتى الآن ، لايزال صالح مرسى هو الكاتب الأكثر أهمية في العالم العربي في أدب النوع ، وسيظل هكذا لسنوات طويلة . ربما أطول ممايتوقع المرء .



القسم الثالث

جواسيس السينما

القسم الثالث
جواسيس السينما

ارتبط شغف الناس بمشاهدة قصص الجواسيس فى السينما تبعا للصراعات والحروب الدولية فى كل أنحاء العالم . ففى زمن هذه الصراعات يبرز دور الجواسيس الذين ينقلون من طرف محارب الى الطرف الآخر ، وعليهم تتوقف نتائج الحروب ، و هؤلاء الاشخاص ، رجالا كانوا أم نساء لابد أن يتمتعوا بجاذبية ، وذكاء بالاضافة الى ما يعيشون فيه من أجواء غامضة ، تدفع الناس الى التعرف عليهم أكثر.

ولولا الحرب العالمية الأولى ما ظهرت شخصية اسطورية من طراز ماتاهارى ، ظلت تلهم الأدباء والسينمائيين المزيد من الحكايات حتى الآن ، ومن وقت لآخر تطلع علينا دور النشر بكتب جديدة عن حياتها ، كان آخرها كتاب الفه الفرنسى جان - باكس ميرفويه ، قال فيه أن التاريخ لم يقل بعد كلمته فيما يتعلق بكل أسرارها . فلا تزال هناك ملفات ضائعة خاصة بها ، منذ أن تم اعدامها فى ١٥ أكتوبر ١٩١٧ .

وطوال المسافة الزمنية بين الحربين العالميتين ، قدمت السينما روايات عديدة تدور أحداثها فى الحرب العظمى مثل فيلم " ٣٩ درجة سلم " الذى أخرجه هيتشكوك عام ١٩٣٥ ، ومثل فيلم " الرجل الذى يعرف الكثير " وهو أيضا من اخراج هيتشكوك . لكن الحرب العالمية الثانية أفرزت قصصا أكثر اثارة بالاجواء الرومانسية والاثارة التى جعلت أفلاما من طراز "كنت جاسوسا " و " الجاسوس فى الظلام " ، " يوم أسود " و"عميل بريطانى " وغيرها من الأعمال الشعبية .

وهناك الكثير من هذه الأفلام ، راحت السينما تعيد اخراجها أكثر من مرة ، مثل الفيلمين السابق ذكرهما لهيتشكوك ، بالاضافة الى أفلام أخرى مثل " السيدة تختفى " . ولم ينتظر السينمائيون حتى تنتهى الحرب فكنت أفلام التجسس التى ظهرت أثناء الحرب بمثابة جبهة أخرى للمعارك . ومنها على سبيل المثال : " كازابلانكا" ، و"المتآمرون " و" جاءوا

لتفجير أمريكا" و " مراسلات برلين "، و" عميل موثوق منه "

وبعد انتهاء الحرب بسنوات قليلة ، بدأت أفلام من نوع جديد تظهر على الساحة ، هى افلام عن التجسس بين المعسكرين الشرقى والغربى ، وقد طالت الحرب الباردة بين القوتين العظمتين ، فكثر عدد الافلام مثل "تزوجت شيوعيا " و "كنت شيوعيا لمؤسسة المباحث الفيدرالية" و " كنت جاسوسا أمريكيا ".

ولم تكن أفلام التجسس بمثابة أعمال هامشيه مليئة بالغموض ، بل أن مخرجين كبار من طراز أرنست لوبيش قد قدموا أفلاما كوميدية مثل " تكون أو لا تكون " "وظهر الممثل بوب هوب فى فيلم"غطونى" .

وقد ازدهرت أفلام التجسس فى سنوات الحرب الباردة بشكل منقطع النظير ، خاصة بعد نجاح سلسلة أفلام جيمس بوند ، والتى ولدت عشرات الجواسيس فى كل أنحاء العالم ، ففى أيطاليا ولد جيمس تونت و "S.O.S". . وفى الولايات المتحدة ظهر عملاء من طراز فلينت (جسده جيمس كوبرن) ، ومات هيلم (جسده دين مارتن) ، وجواسيس UNCLE(جسدها كل من رويرت فوجان ودافيد ماكلوم) . كما قام الممثل مارشيلو ماسترويانى بدور مماثل فى فيلم «الضحية العاشرة " ، وفى بريطانيا ظهر الجاسوس هارى بالمر (جسده مايكل كين) فى مجموعة أفلام .

وبالاضافة الى ذلك ظهرت أفلام منفصلة عن الجاسوسية ، أخرجها مخرجون مشاهير ، جسدها نجوم كبار مثل ريتشارد بيرتون فى " الجاسوس الذى أتى من الصقيع " ، وكارى جرانت فى " اللغز" ، ودريك بوجارد فى "يونيو ساخن بما فيه الكفاية" . وجريجورى بيك فى "ارابيسك " ، ويول براينر فى "الرجل المزدوج" و " الثعبان" . بل ظهرت نساء جواسيس مثل «موديستى بليز » التى جاءت الى الخليج العربي وجسدتها المثلة الايطالية مونيكافيتى ، من اخراج جوزيف لوزى .

ويمكن تقسيم أفلام التجسس الى عدة مجموعات نوردها في النقاط الآتية :

* مجموعة الأفلام التى تروى حكايات حقيقية عن جواسيس معروفين فى التاريخ بمعنى أن كتاب السيناريو راحو يستهلون من حكاية الجاسوس أكثر من فيلم . وقد كانت ماتاهارى احدي الشخصيات المحببة كثيرا لدى صناع السينما العالمية ، ففى حياة ماتاهارى



ماتاهاري

ما يثير شهية الكتاب وأيضا شهية السينمائيين والمتفرجين ومن أبرز هذه الأفلام «ماتاهاري» الذى قامت ببطولته جريتا جاربو عام ١٩٣١ من أخراج جورج فيتس موريس والذى صنع من جاربو والجاسوسة الالمانية اسطورة ناجحة فى السينما ، وقد تفنن السينمائيون فى تقديم شخصية ماتاهارى ، فبينما كستها جاربو غموضا. فان جان مورو فى الفيلم الذى قامت ببطولته عام ١٩٦٣ قد تحدثت عن غرامياتها مع القادة الفرنسيين الذين حصلت منهم على المعلومات . أما سيلفيا كريستال فقد بدت أقرب الى الإباحية فى الفيلم الذى اخرجه البريطانى كيرتس هارنجتون عام ١٩٨٥ .

جيمس بوند

كما أن السينما الايطالية قدمت فيلما عن «ابنة ماتاهارى» عام ١٩٥٦ قامت ببطولته الممثلة لودميلا تشرينا وأخرجه ريتسوموريس . وماتاهارى هى تلك الراقصة التى جاءت من أندونسيا كى تتجسس لحساب الالمان فى فرنسا ،ولاتوجد شخصية أخرى فى عالم الجاسوسية تم اخراج نفس العدد من الأفلام عنها.

أما عن أهم جواسيس الحرب العالمية الثانية الذين اهتمت بهم السينما فهناك العميل الالمانى البريطانى المزدوج ايدى تشابمان . الذى عمل تارة لصالح الالمان، وعمل تارة أخرى لصالح البريطانيين فقام بتدمير أحد المصانع الحربية الالمانية .

وفى عام ١٩٥٦ ، قدم تيرنس يونج فيلما يحمل عنوان « الصليب الثلاثى » جسد فيه كريستوفر بلومر دور ايدى ، وشاركه فى البطولة الممثل بول براينر .

وفى السينما العربية كان نموذج عبلة كامل أكثر وضوحا فى فيلم « الصعود الى الهاوية » لكمال الشيخ عام ١٩٧٧ . ورغم أن الناس كانوا يعرفون أن مايشاهدونه واقعى فان الكثير من أحداث الفيلم كانت من نسيج الخيال قياسا الى القصة القصيرة التى كتبها المؤلف صالح مرسى .

وقد حاول حسام الدين مصطفى أن يضفى بطولة خاصة على شخصية « حكمت فهمى » فى فيلمه المعنون بنفس الاسم ، فجعلها هى التى توقع بعشيقها الالمانى جون آبلر بدافع الوطنية ، وذلك بناء على أوامر من الفريق عزيز المصرى أثناء الحرب العالمية ، فقد بدا من الواضح أن هناك أطرافاً عديدة ، فى الابداع ، يرى كل طرف منهما أنه هو الذى أوقع بالجاسوس الالمانى ، فحسب رواية كين فوليت ، فهو يرى أن أمرأة من الوكالة اليهودية هى التى أوقعت به بعد أن اختفى حبيبها القائد البريطانى أمام حكمت فهمى فى الفيلم المصرى ، فهى التى ساعدت فى القبض على آبلر بعد أن اكتشفت انها كادت أن تخون وطنها .

والجدير بالذكر أن السينما البريطانية سبق أن قدمت نفس القصة عقب القبض على آبلر مباشرة فى فيلم « خمس مقابر الى القاهرة » من اخراج بيللى وايلدر وتمثيل أن باكستر ، لكن كان هناك اختلافا كبيراً ما بين قصة الفيلم والواقع .

وأغلب الأفلام العربية التى تنتمى الى نوع التجسس مأخوذ عن قصص حقيقية ، مثل «إعدام ميت » لعلى عبد الخالق .و« فخ الجواسيس » لاشرف فهمى ، و « بئر الخيانة » لعلى عبد الخالق ، جميعها مأخوذ عن سيناريوهات وقصص كتبها ابراهيم مسعود . وفى هذا الفيلم الأخير على سبيل المثال لجأ شاب مصرى الى السفارة الاسرائيلية فى روما ، وطلب أن يتجسس لحسابهم بعد أن ضاقت به السبل هناك . اذن ، فنحن أمام نموذج سلبى من الجواسيس الذين يخونون وطنهم ، والغريب أن الافلام التى كتبها مسعود كانت عن هذا النوع الجواسيس ، ففى « اعدام ميت » يتم القبض على جاسوس من العريش يعمل لمصلحة الموساد ، ويرسل بديلا عنه أحد ضباط الاستخبارات المصريين من أجل الحصول على معلومات ، ولكن لا يلبث أن يتم اكتشاف أمره . وفى المشهد الأخير فى الفيلم ، فان والد الجاسوس يطعنه بخنجر ، باعتباره أنه يرد شرف وطنه بالقصاص من ابنه الجاسوس .

وفى « فخ الجواسيس » المأخوذة عن قصة « داليا المصرية » فاننا نرى تشابها مع قصة عبلة كامل ، حيث تنشأ داليا حاقدة على النظام الحاكم الذى أمم ممتلكات والدها والذى يموت

بحسرته ، لذا كان من السهل استدراجها فى أثينا لتعمل لحساب الاستخبارات الاسرائيلية للتجسس على بلادها ، ويتعقبها رجال الاستخبارات ، وعند القبض عليها يحاول الضابط محيى أن يجعلها تتعاون مع الاستخبارات المصرية ، الا أنها تستمر على موقفها ، وتمد الاستخبارات الاسرائيلية بموقع احدى قواعد الصواريخ بالجبهة ، وهى نفس المعلومات التى كانت تحصل عليها فى مكان آخر عبلة كامل ، وتعرف داليا أن أخاها قد استشهد أثناء تدمير احدى القواعد ، فتندم على جريمتها مما يسهل الدخول اليها كى تتعاون مع الاستخبارات المصرية ، وتعرف أن نبأ مصرع أخيها كان حيلة من أجل استقطابها .

مديحة كامل

* المجموعة الثانية من أفلام التجسس تدور حول جواسيس غير معروفين فى التاريخ ، ولكن السينما راحت تحكى موضوعاتهم لما فيها من جاذبية ، والكثير من هذه الحكايات مأخوذ من روايات أدبية كتبها مؤلفون ، مثل رواية « ٣٩ درجة سلم » التى اخرجها هيتشكوك عام ١٩٣٥ ، ثم أعادت السينما البريطانية اخراجها مرتين ، الأولى فى عام ١٩٦٠ من اخراج رالف توماس ، والثانية فى عام ١٩٧٩ من اخراج دون شارب .

وفى هذه الرواية التى كتبها جون بوشان نرى قصة مطاردة جواسيس لانسان بسيط يتصور البعض أنه اكتشف خطة اشعال الحرب العالمية الأولى .

وتنتمى روايات جراهام جرين التى وجدت طريقها الى السينما الى نفس النوعية . ومن

أبرز هذه الأمثلة « عميلنا فى هافانا » . وقد أخرج كارول ريد هذه الرواية عقب صدورها فى نهاية الخمسينات ، من تمثيل الك جينس وموررين أوهارا .

كما تنتمى الروايات التى أخرجتها السينما عن جون لوكاريه الى نفس النوعية مثل فيلم « الجاسوس الذى أتى من الصقيع » الذى أخرجه مارتن ريت عام ١٩٦٦ ، أي عقب صدور الرواية بفترة قصيرة . وقد جلب الفيلم الكثير من الشهرة للكاتب . واستطاع ريتشارد بيرتون أن يجسد دور الجاسوس الذى يعيش على هامش المجتمع ، والذى يستطيع أن ينجح فى الهروب عبر جدار برلين الشرقية الى الجزء الغربى من المدينة .

ولم تلتفت السينما كثيرا الى كل روايات لوكاريه ، لكن التلفاز قدم روايته « الجلد » (وهو اسم حيوان سميك الجلد) فى مسلسل ضخم قام ببطولته اليك جينس فى دور الجاسوس سمايلى الذى يتعاطف مع المعسكر الشيوعى بعد أن أحس بالشيخوخة تقتحمه ، لكن هذه السينما التى تجاهلت روايات لوكاريه المتعددة كانت تسرع أحيانا الى التقاط بعض رواياته فور صدورها باعتبار أنها تناقش قضايا ساخنة ، مثل « الطبالة الصغيرة » التى أخرجها جورج روى هيل فى عام ١٩٨٤ . وقامت فيه ديان كيتون - نجمة الثمانينات البارزة - بدور تشارلى ، وآدي كلاوس كينسكى دور العميل الأسرائيلي .

ورغم كل هذا الحشد من الفنانين الاكفاء ، فان الفيلم لم يلق نفس الصدى الذى لاقته الرواية التى نشرت عقب الغزو الاسرائيلى للبنان بأشهر قليلة ، فجاءت لتؤكد مدى ما تؤمن به اسرائيل فى أن تكون شرطيا لمنطقة الشرق الأوسط .

كما أسرعت هوليوود بانتاج رواية « المنزل روسى » عقب صدرورها مباشرة فى أواخر عام ١٩٨٩ ، وذلك لمؤازرة الزعيم السوفيتى ميخائيل جورباتشوف فى برنامجه الاصلاحى الذى يحاول فيه إخراج المعسكر الشرقى من جبل الجليد الذى عاش فيه سنوات طويلة . وكأنه بذلك يقوم بتحيته التحية الأخيرة ، قبل أن يتفكك الاتحاد السوفيتى .

وقد حشدت السينما الامريكية الكثير من طاقتها من أجل إنجاح الفيلم الذى قام ببطولته شون كونرى وميشيل فايفر وجيمس فوكس . وفيه قام كونرى بدور الجاسوس البريطانى الذى يختار الاقامة فى موسكو لاسباب عاطفية .

ويدخل فى هذا الاطار بالطبع المسلسلات السينمائية المتعددة التى تم انتاجها فى

الخمسة والثلاثين عاما الأخيرة هى فى المقام الأول من بنات خيالات الأدباء والسينمائيين .

وقد بدأت هذه المسلسلات فى الانتشار بعد مجموعة أفلام جيمس بوند الأولى ، فكان لابد من صناعة جواسيس يحاولون السير فى خُطى « العميل رقم ٧ » من ناحية ، أو أن يتفوقوا عليه ، أو أن يحققوا نجاحات مقاربة .

وفى رأينا أن السبب الأول الذى دفع بالسينما الأمريكية الى صناعة العديد من المسلسلات الفيلمية عن الجواسيس ، أن جيمس بوند كان صناعة بريطانية أدبيا ، أمريكية سينمائيا . وكان على هوليوود أن تصنع أفلاما لتمجيد جواسيس أمريكيين مثل العميل فلينت ، ومات هيلم . لكن هذه الأسماء مالبثت أن اختفت ومالبث شون كونرى نفسه أن هجر هذا المسلسل فتعثر بعض الوقت ، ثم تحولت الأفلام المأخوذة عن جيمس بوند الى صورة ممسوخة من الأفلام القديمة ، فعندما عاد شون كونرى مرة أخرى عام ١٩٨٣ فى فيلم « لا تقل ابدا لا » لايرفن كيرشنر ، كان الفيلم اعادة اخراج لفيلم قديم ناجح هو « كرة الرعد » .

وحتى عام ١٩٩٦ ، تم اخراج ثمانية عشر فيلما من سلسلتجيمس بوند ، لاشك أن أكثرها نجاحا تلك التى قام ببطولتها شون كوندى ، واخرجها تيرنس يونج ، وجاى هاملتون .

بدأت حكاية السينما مع جيمس بوند فى عام ١٩٥٨ تحت أشعة الشمس فى جزر البهاما . كان ايان فلمنج الذى بلغ الخمسين فى ذلك العام ، يبحث عن فكرة جديدة يقوم بها عميله جيمس بوند، حيث التقى بالمخرج جريجورى راتوف الذى طلب منه حق شراء انتاج روايته الأولى « الكازينو الملكى » مقابل ٧٥٠٠ دولار . لكن هذه النقود راحت كلها فى شراء سيارة فورد . وفى نفس الفترة اشترت شركة رانك الانجليزية حقوق الرواية الثالثة « سارق القمر » مقابل ستة آلاف دولار كى يخرجها البريطانى كيفن ماكلورى . الا أن فلمنج لم يرض عن الثمن . فعلق المخرج بأنه رجل لايملك حسا سينمائيا . وباع فلمنج الرواية ، الا أنها تعطلت فى ادراج كتاب السيناريو ، حتى جاء المنتجان هارى سلتزمان الكندى الجنسية ، والامريكى البرت بروكولى ، وقدما عرضا مجزيا لفلمنج مقابل مائة ألف دولار ٥٪ من الارباح واستطاعت شركة يونايت أرتستس أن تشترى كل حقوق توزيع هذه الأفلام بعد أن قامت بمحاسبة كل الذين تعاقدوا مع ايان فلمنج قبل أن يظهر فيلم واحد من هذه الأفلام . الطريف أن ماكلورى لم ينه علاقته ببوند .، فقد عمل مستشارا لكل الأفلام التى ظهرت من هذه السلسلة .

وفى السينما ، كان جيمس بوند جاسوسا بريطانيا يعمل لصالح العالم مرتديا الزى الامريكى من خلال مطاردته لعصابة الشبح من ناحية ، ومهربى الذهب والمخدرات من ناحية أخرى . وعصابة الشبح يرأسها رجل غامض يسعى الى الاستيلاء على العالم يدعى بلوفيلد وهذا الرجل موجود فى روايات « تحيات من روسيا » و « أنت تعيش مرتين » و «ماس الى الابد » . ويسعى بوند من خلال جهاز الاستخبارات الذى يعمل فيه الى الايقاع بالرجل وعصابته ، أو على الأقل احباط مؤامرته ، كى يمكن دائما أن تكون هناك مغامرات جديدة . أما فى فيلم « الأصبع الذهبى » فيقوم بانقاذ الاقتصاد الامريكى من عصابة تخطط للاستيلاء على فورت نوكس مخزن احتياطى الذهب الامريكى.

وبوند ، فى الأدب والسينما ، رجل مغامرات جذاب ، محاط بالنساء ومع كل مغامرة جديدة توجد نساء كثيرات يحمن حوله نساء يعملن فى دائرة الطرف المنافس . وكثيرات من هؤلاء النسوة يساعدن بوند فى مهمته ، بعد أن كن منافسات له . ويرجع هذا فى المقام الأول الى جاذبيته كرجل . كما أن هناك نساء شرسات يقاتلنه مثل المرأة الشرسة فى « تحيات من روسيا » التى يبرز من حذائها سكين قاتل ، ومثل دور الفتاة التى جسدتها كارينا دور فى «أنت تعيش مرتين » ودفعت حياتها ثمنا بأن التهمتها أسماك البيرانا بعد أن قامت بمساعدة بوند .

وقد قام باخراج افلام جيمس بوند مخرجون من بريطانيا مثل تيرنس يونج ، وجاى هاملتون ، وجون جلين ولويس جيلبرت ومارتن كامبل ، كما جسد الشخصية على الشاشة نجوم بريطانيون وأيرلنديون مثل شون كونرى وروجر مور ، وتيموثى دالتون ، اما جورج لازنبى فهو استرالى أما أحدث جيمس بوند بيرس بروسنان فهو بولندى مثل شون كونرى

وفى السينما تم اخراج الروايات الاحدى عشرة التى الفها فلمنج بالاضافة الى احدى القصص القصيرة ، كما تمت إعادة إخراج القصص باسماء جديدة ومعالجات مختلفة ، مثل «لاتقل ابدا لا » الذى يعتبر اعادة انتاج لفيلم « كرة الرعد » ، أما « تصريح بالقتل » فهو اقرب الى « عش ودع الآخرين يموتون » . أما آخر فيلم « العين الذهبية » فأن العميل البريطانى يذهب إلى روسيا من أجل مواجهة المافيا المحلية .

وقد ترك جيمس بوند فى السينما المصرية فى عدة نواح منها أن موسيقى أفلامه قد سمعت كثيرا فى أفلام من طراز « أخطر رجل فى العالم » و«عودة أخطر رجل فى العالم »



جيمس بوند ١٩٦٢ - ١٩٨٣

لنيازى مصطفى ، وغيرها من الأفلام . وفى الستينات انتشرت ظاهرة افلام التجسس، وبدت أفيشات أفلام يقوم ببطولتها فريد شوقى أقرب الى أفيشات أفلام جيمس بوند ، وقام فريد شوقى ببطولة افلام من طراز « الجاسوس » و « العميل ٧٧ » وهما أيضا من إخراج نيازى مصطفى ، وفى الفيلم الأول يقوم بدور ضابط بحرى من الاستخبارات ، استطاع أن يكشف عن شبكة تجسس لحساب اسرائيل زعيمها خبير بحرى سابق فى اسرائيل ، وتحت اداراته مصنع تحف وأدوات زخرفية فى خان الخليلى . تساعدة مغنية تعمل فى الملاهى الليلية تتصيد الشباب المجندين فى القوات المسلحة ، من أجل الحصول منهم على المعلومات الهامة ، وينجح الضابط البحرى فى الايقاع بشبكة التجسس ، ولاشك أن فريد شوقى هنا يتمتع بنفس الجاذبية التى يتمتع بها جيمس بوند فى تحويل النساء المنافسات الى مساعدات له فى مهمته .



جيمس بوند ١٩٩٦

وفى فيلم « العميل ٧٧ » يقوم فريد شوقى بدور ضابط شرطة عليه أن يكشف الدور الحقيقى لمجموعة من السينمائيين الاجانب الذى جاءوا الى مصر لتصوير أحد الأفلام ، وهم فى الحقيقة يقومون بالتجسس على القواعد العسكرية . ومن الواضح هنا أن السينمائيين المصريين لم يكونوا يفرقون بين ضابط الشرطة ، وضابط الاستخبارات العامة ، الذى عليه القيام بهذه العملية ، مما يوضح أن انتاج هذه الأفلام كان محاولة للاستفادة بنجاح أفلام جيمس بوند فى المقام الأول .

ومادمنا بصدد الحديث عن الأفلام المتخيلة ، التى

لاتستند الى وقائع حقيقية ، فأننا يمكن أن نضم فى نفس القائمة فيلمين مصريين هما « أريد حبا وحناناً لنجدى حافظ عام ١٩٧٨ ، و «مهمة فى تل أبيب » لنادر خلال عام ١٩٩٣ . وفى الفيلم الأول هناك جاسوس مصرى عائد من الخارج من أجل التوصل الى معلومات عسكرية هامة . وهذا الجاسوس سمير يحاول التقرب الى فتاته السابقة منى ، التى تحب مهندسا يعمل بقاعدة صواريخ . وهناك عقيد يتولى مراقبة سمير ، وهو شقيق للمهندس حسين الذى تحبه منى . وكما هو واضح فأن هناك نقاط تشابه عامة بين الفكرة الرئيسية فى هذا الفيلم وبين معرفة أسرار قواعد الصوريخ فى فيلم « الصعود الى الهاوية » ، لكن هناك أيضا خلطا بين الأسماء . والوظائف ، فمن الواضح أن المؤلفة ضحى حافظ قد جعلت ضابط الشرطة ، وليس ضابط الاستخبارات ، هو الذى يقوم بهذه المهمة .

واذا كان جابر قد اتجه الى سفارة اسرائيل فى ايطاليا ليطلب تجنيده فى الموساد ، فى فيلم « بئر الخيانة » لعلى عبد الخالق ، فان آمال فى فيلم « مهمة فى تل أبيب » جاسوسة مصرية تعمل لحساب الموساد ، تتوجه الى السفارة المصرية فى باريس وتطلب من السفير أن يحدد لها موعدا مع رئيس الاستخبارات العامة فى القاهرة. وبعد أن توضع تحت أجهزة كشف الكذب تصبح عميلة مزدوجة ، ويطلب منها السفر الى تل أبيب ، لتصوير شريط خطير عليه أحدث أنواع السلاح ، والخطط الاستراتيجية الاسرائيلية فى حالة نشوب حرب مع مصر. وتلقى أنواعا من التعذيب البشع ، لكن رجال الاستخبارات المصرية يتمكنون من اعادتها الى القاهرة ، بعد أن تصورها الجميع قد ماتت .

تباينت أفلام التجسس ، مثلما فى الروايات الى أفلام عن جواسيس وأفلام أخرى عن عمليات تجسس يقوم بها عملاء وكالات الاستخبارات ، ففى كل فيلم جديد تقوم فيه وكالة الاستخبارات الخاصة « أونكل » بارسال رجالها ، خاصة نابوليون سولو ، وزميله كورياكن الى أى مكان فى العالم عليهما القيام بعملية جديدة ، ومقابلتشخصيات تختلف ، وكذلك فى مسلسل أفلام « مات هيلم » . فهناك أربعة أفلام قام فيها دين مارتن بدور رجل الاستخبارات الامريكى ، وفى كل مرة هناك مهمة محددة ، وأشخاص جدد يقابلهم ، وتبدو هذه السمة واضحة فى أفلام جيمس بوند حيث لم يتكرر ظهور أي بنت من بنات جيمس بوند فى أى فيلم، ربما عدا سكرتيرة السيد « م » رئيس الاستخبارات ، ولم يتكرر ظهور مجرم فى أي فيلم سوى شخصية الفك المفترس الذى ظهر فى فيلم «الجاسوس التى أحبتنى » ، ورأيناه مجددا فى فيلم « سارق القمر » ، أما العميل الأمريكى لايتر ، فقد ظهر فى أفلام قليلة مثل



مهمـــة فى تل أبيب

«الدكتور نو » و « عش ودع الأخرين يموتون» .

وإذا كـان خبـراء التجسس قد أكدوا أن هناك فرقـاً شاسعا بين ما يحدث فى هذه المسلسلات الفيلمية ، وبين حكايات التجسس الحقيقية ، فإن الصورة الماثلة فى أذهان غالبية الناس هى ماقدمته السينما عن عملاء جاءوا من الخيال .

وأغلب الأفلام العالمية عن عمليات تجسس ، خاصة أن أفلام المسلسلات ، لكن هناك أفلاماً عن جواسيس منذ أن يتم تجنيدهم ، وحتى يتم القبض عليهم أو التخلص منهم ، مثل ماتاهارى ، أو ايدى تشابمان ، أوجون آبلر ، وكلا الأخيرين اعتزل التجسس بعد محاكمته ، فأصبح الأول من كبار الرأسماليين ، أما الثانى فلانه لم يكن عميلا مزدوجا فأنه دخل دائرة النسيان .

والجاسوسية فى سينما الغرب هى صناعة غربية بإعتبار أن الجواسيس الغربيين هم الذين يصنعون أعمالاً لمصلحة المعسكر الغربى ، وعليهم التخلص من الخصوم سواء فى

المعسكر الشرقى أو الدول التى تناهض المعسكر الغربى بشكل عام .

وبينما حاولت السينما الغربية تجاهل الجواسيس الذين عملوا لمصلحة المعسكر الاشتراكى ، فإنها قدمت أفلاماً كثيرة عن الجواسيس المزدوجين الذين حاولوا العمل لمصلحة الطرفين المتنافسين ، وقد بدا ذلك واضحاً فى فيلمى « الرجل المزدوج » و « الثعبان » ، وجسّد فى كليهما دور هذا الجاسوس الممثل يول براينر ، والعميل المزدوج فى « كلا الفيلمين يسافر إلى الغرب ، ويقنع الأستخبارات الأمريكية بأن يعمل لمصلحتهم ، أما فيلم « الثعبان» الذى أخرجه الفرنسى هنرى فرنوى فكان من الأعمال الأولى التى صورت كيف يتعرض الجاسوس للكشف عن مدى صدقه بوضعه تحت جهاز كشف الكذب .

وأغلب كتاب روايات التجسس عرفت أعمالهم طريقها إلى الشاشة وغالبتها عن عمليات تجسس ، مثل روايات آريك آمبلر ، وفردريك فور سايث ، ولين دايتون .

وفى السينما المصرية ، كان أغلب الأفلام عن عمليات تجسس ، لكن شخصية الجاسوس تبدو واضحة ، وبإستثناء فيلم « الصعود إلى الهاوية » رغم أنه أقرب إلى العملية ، فإن بقية الأفلام المصرية عبارة عن عملية للكشف عن جاسوس خائن مثلما حدث فى « بئر الخيانة » و « فخ الجواسيس » و « اعدام ميت » .

والشىء اللافت للنظر أن أفلام التجسس المصرية ، قد ازدهر وجودها على الشاشة ابان السلام مع اسرائيل ، وقد شهدت سنوات التسعينات بصفة خاصة تواجد ملحوظا ولعل سبب هذا فى المقام الأول تنامى الشعور الوطنى بأن هناك عداء ما لا يزال قائماً بين العرب وأسرائيل رغم معاهدة السلام ، أو أن هناك ابطالاً على الأدب والسينما أن يقوما بتمجيدهم ، وقد وجد هذا الأتجاه صداه لدى الناس ، خاصة متفرجي مسلسلات التليفزيون الذين يتابعون هذه المسلسلات المعادة والجديدة بنفس الحمية .

للمؤلف

في الرواية

- لماذا (دار المطبوعات الجديدة ١٩٨١)
- أوديسانا (مدينة الغبار) (دار المطبوعات الجديدة ١٩٨٢)
- الثروة (المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣)
- البديل (هيئة الكتاب ١٩٨٧)
- وقائع السنوات الصبا (دار الانماء الحضارى - حلب - ١٩٩٤)
- زمن عبدالحليم حافظ (المركز الفضى للمعلومات ١٩٩٦)

في الترجمة

- آلهة الذباب (تأليف ويليام جولدنج) (طبعة ثانية دار الهلال ١٩٩١)
- شحاذون ومعتزون (تأليف ألبير قصيرى) (هيئة الكتاب ١٩٨٧)
- العاشق (تأليف مرجريت دوراس) (هيئة الكتاب ١٩٩٠)
- منزل الموت الأكيد (تأليف ألبير قصيرى) (دار سعاد الصباح ١٩٩٢)
- رجل عديم الأخلاق (تأليف أندريه جيد) (دار الهلال ١٩٩٣)
- العنف والسخرية (تأليف ألبير قصيرى) (دار الهلال ١٩٩٣)

في الدراسات

- الرواية اليهودية (دار آفاق عربية ١٩٨٦)
- الاقتباس فى السينما المصرية (طبعة ثالثة - نهضة مصر ١٩٩٠)
- الخيال العلمى . أدب القرن العشرين (الدار العربية للكتاب ١٩٩٣)
- جائزة نوبل - أضواء واسرار (دار المعارف ١٩٩٣)
- موسوعة الأفلام العربية (مع آخرين) (بيت المعرفة ١٩٩٤)
- موسوعة جائزة نوبل (مكتبة مدبولى ١٩٩٦)

- سينما عادل إمام (المركز الفضى ، المكتبة الوطنية الجديدة ١٩٩٦)
- الأدب العربى المكتوب بالفرنسية (هيئة الكتاب ١٩٩٦)

في أدب الأطفال

- آلة الزمن العجيبة - حكايات غيرت الدنيا (جزأن) - أجمل حكايات البحر - حكايات سينمائية مثيرة - العملاق - بستان الحكايات - شارلى المتشرد - مغامرات رأفت الهجان (دار الهلال)
- حكايات علمية مثيرة (دار عثمان)
- طه حسين (دار المعارف)
- أجل حكايات الدنيا (المغامرات - أفلام الحروب - أفلام الجاسوسية - أفلام الغرب - الأفلام البوليسية - الأساطير العالمية - الأساطير العربية - الخيال العلمى - أفلام البحر - الأفلام الضاحكة) (نهضة مصر)
- الغاز الشروق (٢٠ رواية) (دار الشروق)
- اعرف عصرك(٥ كتب فى تبسيط العلوم الحديثة) (دار الهلال)
- مغامرات آلة الزمن العجيبة (هيئة الكتاب ١٩٩٦)

الفهـــرس

رقم الإيداع ١١٦٢٦ لسنة ١٩٩٦
الترقيم الدولى
I.S.B.N.
977 - 5709 - 02 - 4

